سلسلة كنوز الحضارة

تاريخ نهاية الدولـــــة الأمويـــــة

إعـــداد

د. أحمد توفيق محمد الأنصاري   د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دار الجديد للنشر والتوزيع

٩٠١.٩	**الأنصاري ، أحمد توفيق محمد .**
أ.١	**سلسلة كنوز الحضارة / أحمد توفيق محمد الأنصاري . {واخ}.-ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.**
	٢٦٤ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
	تدمك : ٦ - ٦٥٩ – ٣٠٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨
	١. الحضارة – تاريخ .
	أ - الأنصاري ، أحمد توفيق محمد (معد مشارك) .

رقم الإيداع : **٢٨٨٣ .**

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز
هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣
E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر
هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣
محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣
E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

تنويه:

الفهرس

الفصل الأول
لمحة تاريخية عن الدولة الأموية

خلافة أموية:

الأمويون أو بنو أمية هم أولى الأسر المسلمة الحاكمة، حكمت ما بين ٦٦٢ إلى ٧٥٠.الاصل والمنشأ مكه المكرمه. المقر: العاصمة دمشق عاصمة الدولة الأموية. والمقر في الأندلس قرطبة. وهم من البيوت الكبرى في قريش، وبيوت الرئاسة فيها. وأمية هو أبن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب الجد الأكبر للأمويين.

أشهر سادات بني أمية أبو سفيان واسمه صخر ابن حرب، وهو سيد قريش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والذي أسلم عام الفتح.مؤسس السلالة الأموية الحاكمة ب دمشق هو معاوية بن أبي سفيان (٦٦٢-٦٨٠ م) المولود بمكه المكرمه. كان أخوه يزيد بن أبي سفيان واليا على الشام في عهد الخليفة الأول أبو بكر وبعد وفاته بعث هو واليا عليها منذ ٦٥٧ م من قبل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

مؤسس الخلافة الأموية- معاوية بن أبي سفيان:

تولى الخلافة معاوية الأول بن أبي سفيان (٦٦٢ - ٦٨٠م) بعد أن أجمع المسلمون بخلافة معاوية وتنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما في عام الجماعة سنة ٤١ هـ، واتخذ معاوية من دمشق عاصمة للخلافة الإسلامية. وبذلك انتقلت الخلافة إلى الفرع السفياني من بني أمية، أسس معاوية الخلافة

الأموية وارسى كيانها كخلافة قوية جذب مخالفيه علـى طاعتـه ارسـى كيان الدولة وعمل على توحيد المسلمين. وتميز حكمه بالحكمة والعدل. أنشأ أول اسطول بحري إسلامي، ووصل إشعاع الحضارة الإسلامية من دمشـق إلى اصقاع بعيدة من العالم لتكون الدولة الأموية أكبر دولـة إسـلامية عرفهـا التاريح، **من بعد معاوية بن ابي سفيان انتقلت الخلافة إلى:** –

الخليفة يزيد الأول بن معاوية ابن سفيان:

استمر تطور الدولة الإسلامية في عهده وقعت واقعة كربلاء الشـهيرة والتي قتل فيها حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين هو واهله واصحابه حيث خرج على يزيد رافضاً خلافتـه وكـان أول مـن خانـه الـذين وعدوه بالنصر في الكوفة رغم أن كثيراً ممن بقي من الصحابة والتابعين نهـوه عن الخروج من المدينة خوفاً عليه من الخيانة والغدر، بعدها ثار عبـد الله بـن الزبير بن العوام على يزيد بن معاوية وبايعة أهـل الحجـاز والـيمن والجزيـرة والعراق.

من بعده معاوية الثاني بن يزيد الأول بن معاوية والذي تنازل عن حقه في الخلافة لأنه محباً للعلم والأدب والشعر ولم يكن يرغب في الخلافة رغم أنه تولاها ٦ أشهر ومن بعدها ترك الأمر شورى بين المسلمين.

الخليفة مروان الأول بن الحكـم المولـود بمكـه المكرمـه. ويعتـبر هـو المؤسس الحقيقي للفرع المرواني من السلاله الأموية في دمشـق، حيـث تـوالى ابناؤه على الحكم من بعده استمرت الفتوحات في عهده ومتداد الدولة نحـو الشرق، مات مروان بن الحكم بالسم وخلفه ابنه عبد الملك.

الخليفة / عبد الملك بن مروان :

من بعده آلت الخلافة إلى ابنه عبد الملك بن مروان بن الحكم (٦٨٥ – ٧٠٥م) وهو والمؤسس الفعلي لكيان دولة الخلافة الأموية القوية. وأستطاع الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥ م)من أن يسيطر على الأمور ويخضع الخوارج على يد المهلب بن أبي صفره وأن يخمد ثورات العراق والمتمردين على كيان الدولة امثال عبد الله بن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي بعد حصار لمكة دام ٦ شهور وارساء الأمن في أنحاء البلاد.

ازدهرت العلوم في عهد عبد الملك بن مروان وصك النقود الإسلامية الأموية، واقام المكتبات وشجع العلماء واهتم بهم، وأنشأ في دمشق الكثير من دور العلم والمدارس والفقه ودور العبادة واجتذب العلماء والمفكرين والفقهاء وتم في عهد الخليفة عبد الملك تعريب الدواوين الحكومية بعدما كانت المراسلات والسجلات تكتب بالرومية وبناء مسجد قبة الصخرة على وضعهة الحالي حتى اليوم كم زادت في عهد عبد الملك رقعة الدولة وامتدادها.

الخليفة / الوليد الأول بن عبد الملك :

من بعد الخليفة (عبد الملك بن مروان) آلت الخلافة إلى ابنه البكر الوليد (٧٠٥ – ٧١٥ ميلادي) وتواصلت حركة الفتوحات والغزوات الإسلامية وفتح الأمويون مزيداً من البلاد في آسيا شرقاً إلى أوروبا غرباً لتصبح الدولة الإسلامية أهم وأكبر إمبراطورية في التاريخ على الإطلاق الدولة الأموية وعاصمتها دمشق، إذ وصلت سنة ٧١١ م غرباً حتى إسبانيا في أوروبا، ثم شرقاً حتى تخوم الهند والصين في وسط آسيا، ثم سنة ٧١٥ م

كان غزو بخارى وسمرقند وتكملة فتح الأندلس وغيرها من البلاد في كل اتجاه، وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك تم تطوير بناء الجامع الأموي – جامع دمشق الكبير واهتم بعمارته وزينة بالفسيفساء والزخارف والنقوش ليصبح الجامع الأموي بدمشق أهم معلم إسلامي، وكان للعلم والعلماء والادباء والشعراء مساحة من اهتمام الوليد وشجعهم واهتم بأنشا العمائر في عاصمة الدولة دمشق وفي المدن الإسلامية كافة وظهر فن العمارة الأموية الذي تميز العصر الأموي بعد ذلك.

مما هو جدير بالذكر في عهد الخلفاء الأمويون تقدمت وازدهرت الخلافة بكل مقوماتها وقوتها، وامتد النفوذ الأموي في كل مكان شرقآ وغربآ وعملوا على تقوية أواصر الدولة الإسلامية التي وصلت إلى أكبر اتساع لها بشكل لم تصل إليه أي دولة إسلامية في كافة العهود السابقة أو اللاحقة، وبرزت الدولة الآسلامية كإمبراطورية ضخمة بكل المقاييس وصل نورها إلى اصقاع بعيدة من العالم، وازدهرت في العهد الأموي العلوم والعمارة والأدب والشعر والفنون والصناعة.

تواصل الخلفاء الأمويون، فتولى الخلافة بعد ذلك الخليفة سليمان بن عبد الملك، والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بن مروان الأول بن الحكم وهو الخليفة الأموي الذي لقب بخامس الخلفاء الراشدين وعرف بالعدل والزهد والسخاء على الرعية حتى لم يبقى في عهده من يستحق الزكاة (قيل أنه مات مسموماً)، ومن بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك والذي أراد أن يسير بالناس سيرة عمر لكنه لم يستطيع بسبب حاشية السوء، ومن ثم الخليفة هشام بن عبد الملك.

الخليفة / هشام بن عبد الملك :

تولى الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م) الخلافة ليكمل رسالة الخلافة الأموية الحضارية واهتم في ترسيخ الامن في الولايات الإسلامية كافة، ووصلت الحضارة الإسلامية الأموية في عهده إلى مستوى من التقدم في شتى المجالات، واشتهر عهده بأزدياد إقبال العلماء وانشأ المزيد من دور العلم والمدارس المتخصصة ودور العبادة وعرفت فنون العمارة الأموية الإسلامية المميزة للعهد لأموي التي تميزت ببناء القصور والحصون التي انتشرت في دمشق وأنحاء مدن الشام وكافة أرجاء البلاد الإسلامية

ومن بعد هشام بن عبد الملك تسلم الخلافة على التوالي وهم :-

الخليفة الوليد الثاني بن يزيد الثاني بن عبد الملك :

وهو أول خلفاء عهد الضعف للدولة الأموية، كان مهملاً للخلافة طائشاً لايُحسن تصريف الأمور (مات مقتولاً).

الخليفة يزيد الثالث بن الوليد الأول بن عبد الملك :

كان حسن السيرة حاول إنقاذ مايمكن إنقاذه من الدولة بسبب ثورات العرب اليمانية والقيسية لكن بعد فوات الأوان.

الخليفة إبراهيم بن الوليد الأول بن عبد الملك :

تولاها بعد أخية يزيد الثالث ولم يستمر بها أكثر من ٦ شهور حيث ثار عليه ابن عم أبيه مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم.

الخليفة مروان الثاني بن محمد (٧٤٤- ٧٥٠م) :

آخر الخلفاء الأمويون في المرحلة الأولى كان الخليفة مروان الثاني بن محمد (٧٤٤-٧٥٠م) الذي واجه مؤامرة من العباسيين الذين تمكنوا من

قبض زمام الأمور وتكوين دولتهم في خراسان فواجه دسائس المفسدين والخارجين على أسس الدولة الإسلامية إلى أن انتهى مروان مقتولاً في دير بمصر بعد هروبه من جنود العباسيين وبه انتهى عصر الخلافة الأموية في المشرق سنة ٧٥٠ م والذي دام أكثر من ٩٠ سنة.

الخلافة الأموية في الأندلس:

تمكن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من الفرار من بطش العباسيين هو ومولاً له اسمه بدر حيث تمكن من بناء بيت الحكم بالأندلس ويجمع حوله مؤيدى الأمويون وكون جيش قوي استطاع بعدها ان يقيم الدولة الأموية من جديد في الاندلس، وحارب عبد الرحمن الداخل العباسيين وانتصر عليهم وهزمهم شر هزيمة واعاد امجاد البيت الأموي، ولقبه أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني العباسي بـ صقر قريش، وفي سنة ٧٥٦ م استطاع أن يؤسس حكما أمويا جديداً في الاندلس، واتخذ مدينة قرطبة عاصمة له وجعلها على غرار دمشق وأصبحت منارة للعالم الإسلامي في أوروبا كما دمشق كانت منارة للعالم في المشرق. وأعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل نفسه خليفة امتدادا للخلافة الأموية.

قائمة الخلفاء وبعض الأحداث الهامة:

- **معاوية بن أبي سفيان٦٦٢ ٦٨٠-:**
  - تأسيس الخلافة الأموية وعاصمتها دمشق.
  - توحيد البلاد الإسلامية.
  - وقعة صفين في عام ٣٩ هجري.

- معركة سيلايوم في عام ٦٧٧ ميلادي.
- تأسيس أول أسطول بحري إسلامي في عهد معاوية

يزيد بن معاوية ٦٨٣-٦٨٠:

- اتساع الدولة الأموية.
- ملاحقة المناهضين لخلافته.
- معركة كربلاء ٦١ هجري.
- معركة الحرة ٦٣ هجري.

معاوية بن يزيد٦٨٤-٦٨٣

مروان بن الحكم٦٨٥-٦٨٤

عبد الملك بن مروان٦٨٥ ٧٠٥-:

- مزيد من اتساع الدولة الأموية واستمرار الفتوحات.
- بناء قبة الصخرة بالقدس.
- تنقيط القرآن الكريم.
- وصول الفتوحات الأموية إلى مشارف الصين.
- فتح الهند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي.
- صك النقود الإسلامية الأموية دينار عبد الملك بن مروان.

الوليد بن عبد الملك ٧١٥-٧٠٥ :

- فتح بخارى وسمرقند.
- فتح الاندلس ووصول الأمويون إلى أوروبا.
- بناء الجامع الأموي في دمشق عاصمة الخلافة.

- فتح بلاد آسيا الوسطى.
- الخلافة الأموية في أكبر اتساع لها لتصبح أكبر خلافة إسلامية في التاريخ.
- الاهتمام بالعلماء ودمشق منارة العلم والعلماء.

سليمان بن عبد الملك ٧١٥-٧١٧:

- مقتل قتيبة بن مسلم.

عمر بن عبد العزيز ٧١٧-٧٢٠ :

- وقف العطايا.
- الحكم بالعدل في أرجاء الخلافة.

يزيد بن عبد الملك٧٢٠-٧٢٤ :

هشام بن عبد الملك ٧٢٤-٧٤٣ :

- عصر ازدهار للدولة الأموية.
- تعريب الدواوين.
- ازدهار العلم والاهتمام بالعلماء.
- الاهتمام بالعمارة وبروز فن العمارة الأموية بشكل واضح.
- خروج زيد بن علي ومقتله.
- إخماد ثورة الخوارج والقضاء على الفتنة.

الوليد بن يزيد٧٤٣-٧٤٤ .

يزيد بن الوليد٧٤٤ .

إبراهيم بن الوليد٧٤٤ .

مروان بن محمد ٧٤٤-٧٥٠ :

- وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.
- انتصار عبد الرحمن الداخل وهزيمة العباسين على يديه.
- قيام الدولة الأموية في الأندلس.

الأندلس:

١. عبد الرحمن الداخل - صقر قريش.
٢. هشام بن عبد الرحمن الداخل.
٣. الحكم بن هشام.
٤. عبد الرحمن الثاني.
٥. محمد بن عبد الرحمن.
٦. المنذر بن محمد.
٧. عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن.
٨. عبد الرحمن للهالناصر لدين الله".
٩. الحكم المستنصر بالله.
١٠. هشام المؤيد بالله.
١١. هشام الرشيد.
١٢. محمد المهدي بالله.
١٣. سليمان المستعين بالله.
١٤. علي المتوكل على الله.
١٥. عبد الرحمن المرتضى.
١٦. عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله.
١٧. محمد المستكفي.
١٨. هشام المعتمد على الله.

نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي.

الأمويون الصحابة:

عدد الصحابة من الأمويين كثير يصعب عده. من أشهرهم:

- **عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية:** من أوائل من أسلم، تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم بنات رسول الله صلى الله عليه وعليهما وسلم، هو ثالث أفضل رجال الأمة بعد أبي بكر وعمر بن الخطاب لدى السنة.
- **أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية:** قديمة الإسلام تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي في الحبشة (حالياً أريتيريا وإثيوبيا)بعد ارتداد زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي عن الإسلام وقد كان ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم.
- **أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية:** قديمة الإسلام من المهاجرات، تزوجها زيد بن حارثة فمات عنها شهيداً في مؤتة ثم تزوجت الزبير بن العوام فمات عنها شهيداً قتله عمرو بن جرموز ثم تزوجت عبد الرحمن بن عوف فماتت عنده.
- **عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية:** قديم الإسلام شهد بدراً، أمره النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن بالمدينة ثم ولاه بعض قرى العرب، استشهد يوم بدر.

- **عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية**، قديم الإسلام شهد بدراً وهاجر الهجرتين، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على وادي القرى (حالياً العلا).
- **خالد بن سعيد بن العاص بن أمية**: قديم الإسلام جداً أسلم في أيام الإسلام الأولى، من مهاجرة الحبشة، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على صنعاء.
- **أبان بن سعيد بن العاص بن أمية**: أسلم أثناء غزوة خيبر عام ٧هـ، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على الخطّ (حالياً القطيف).
- **عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن امية**: أسلم يوم فتح مكة، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على مكة.
- **أبو سفيان بن حرب بن أمية**: أسلم قبل فتح مكة بسُوَيْعات، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على نجران.
- **معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية**: أسلم عام عمرة القضاء سنة ٧هـ، أحد قادة الجيوش في فتوح الشام، ولاه عمر بن الخطاب دمشق وبعلبك والبلقاء، ثم جمع له عثمان بن عفان ولاية الشام بأسرها، ثم صار أول ملوك الإسلام.
- **يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية**: أسلم يوم فتح مكة، أحد قادة الجيوش في فتوح الشام، ولاه عمر بن الخطاب على دمشق.

❀ **مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية**: كان صغيراً يوم فتح مكـة . وقد روى الشافعي أن علياً كان يسأل عن مروان بعد معركة الجمل، وقال: يعطفني عليه رَحِمٌ ماسّة، وهـو مـع ذلـك سـيد مـن شـباب قريش.

الأمويون والجهاد:

الفتوحات الإسلامية من عهد الرسول وحتى نهايـة الخلافـة الأمويـة فقال الحافظ ابن كثير: "فكانت سوق الجهاد قائمـة في بنـى أميـة، لـيس لهـم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرهـا وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلـوب المشرـكين مـن المسـلمين رعباً. لا يتوجه المسلمون إلى قُطْرٍ من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عسـاكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبـار التـابعين في كـل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينـه". ويعـترف جـورجي زيـدان بذلك ويقول: "ولم يبلغ العرب من الغزو والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هـذه الخلافة، وقد تكاثروا في عهدها، وانتشروا في ممالك الأرض وكان الأمويـون أنفسهم يصطلون بنيران هذا الجهـاد، ويقـدمون بأنفسـهم القـدوة والمثـل في التضحية وقيادة الجيوش ومصادمة الأعداء فقد أرسل معاوية ابنه يزيد عـلى رأس جيش لحصار القسطنطينية، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مراتٍ للغـزو في بلاد الروم، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تُعد، وحصاره مدينة الروم-القسطنطينية- معروف ومشـهور، وكـان أخـوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى الغزو في أغلب الأحيان ،وأولاد الوليد بن

عبد الملك وهم العباس وعبد العزيز وعمر ومروان يقودون الغـزو في بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك، كـما أن سـليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواتـه المجاهـدة في بـلاد الـروم، وأمـا هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بنى مروان جميعا، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء، وكان أولاده في مقدمـة الغـزاة ،ومـنهم معاويـة وسليمان ومسلمة وسعيد وغيرهم ،أما مروان بن محمـد فكـان بنفسـه يقـود الجيوش ويصبر في القتال صبراً شديداً.

مميزات الخلافة الأموية:

قامت الخلافة الأموية واتخذ بني امية دمشـق عاصـمة لهـا وأصـبحت منارة للعلم والعلـماء والفقهـاء واهـتم الخلفـاء الأمويـون بـالعمارة وإنشـاء المساجد والتي تعد أهم المعالم الإسلامية اليوم، وفتحوا الكثير من البلاد مـن حدود الصين شرقاً إلى الأنـدلس غربـاً وأصـبحت أكـبر خلافـة في التـاريخ الإسلامي امتـدت سـلطتها في جميـع الاتجاهـات وأصـبحت مدينـة دمشـق العاصمة أهم مدن العالم الإسلامي، واهتم الخلفاء الأمويون بمدارس العلم والعمارة واهتموا ببناء المساجد كما المسجد الأموي بدمشق والمسجد الاقصى في القدس والمسجد النبوي بالمدينة المنورة ومسجد قرطبة وغيرهـا في ارجـاء الخلافة التي اتسعت في كل اتجاه.

انجازات الخلافة الأموية:

جامع بني أمية الكبير في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك باتساع الخلافة الأموية وضمها للعديد من البلاد في الشرق والغرب قدمت الخلافة الكثير من المعطيات لـ الحضارة الإسلامية، اهتم الخلفاء بالحياة الاقتصادية لمختلف البلاد الإسلامية وبتعيين الولاة والحكام ومحاسبة المقصرين منهم، وفي أرجاء الخلافة المترامية الأطراف كما في العاصمة دمشق اهتموا بالصناعة والعلم والفقه والطب وانشئوا المشافي وقدموا العلاج وشجعوا العلماء وافتتحوا المكتبات والمطابع، وصكوا أول عملة إسلامية (الدينار الأموي)، وعمل الخلفاء الأمويون على جمع المسلمين والمساواة والحكم بالعدل واتخذوا من الكتاب والسنة مرجع في إدارة شئون الخلافة، وساهم الأمويون في نشر الدين الإسلامي بشكل كبير في وسط آسيا وحتى مشارف باريس حيث موقعة بلاط الشهداء بعهد الخلافة الأموية في الاندلس، ومما يذكر انه قد تم بناء أول اسطول بحري إسلامي في عهد الخلافة الأموية.

جاء في أطلس تاريخ الإسلام (ص٥١): "إن الخلافة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كخلافة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول في الإسلام، لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجَلَّ الخدمات، ولغيّرت صفحات التاريخ. وهكذا تكون الخلافة العباسية قد خذلت الإسلام في الشرق والغرب. فهي في الشرق لم تتقدم وتُدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام، كما تمكنت الخلافة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك في

الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين. وفي الغرب قعـدت الخلافـة العباسية عن فتح القسطنطنية. ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصـقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعاً لذلك، إذ لم تكن قد بقيت أمام هـذه الأجناس أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها. وهنا ندرك الفـرق الجسـيم بـين الخلافة الأموية والخلافة العباسية. فالأولى أوسعت للإسلام مكاناً في معظم أراضي الخلافة البيزنطية، وأدخلـت أجنـاس البربـر جميعـاً في الإسـلام، ثـم انتزعت شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) من القوط الغربيين، ثم اقتحمـت عـلى الفرنجة والبرغنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام، وحاولت ثـلاث مـرات الاستيلاء على القسطنطنية. أما العباسيون فلم يضيفوا الا القليل -رغم طول عمـر خلافـتهم- إلى عـالم الإسـلام إلا القليـل، ومعظمـه في شرقـي آسـيا الصغرى". انتهى النقل وخسروا مناطق نفوذ كانت تتبـع للخلافـة الأمويـة وتقلص حجم الخلافة الإسلامية في العصر العبـاسي، بيـنما حقـق الأمويـون انتصارات كبيرة وكونوا أكبر دولة إسلامية في التاريخ.

تاريخ الدولة الأموية:

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً من سادات قريش فى الجاهليـة.. وكـان بنـو أميـة مـن المتـأخرين فى دخـول الإسلام إذ أسلم أبو سفيان بن حرب عند فتح مكة.

ولكن بعد إسلامهم أبلوا فى خدمة الإسلام بلاءً حسناً وكان لهـم دور كبير فى عدد من الأحداث الجسـام أذكـر منهـا دورهـم البطـولى فى حـروب الردة، كما ساهم بنو أمية فى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية.

وقد كانت نشأة الدولة الأموية قصة تاريخية مشهورة إذ كـان التمهيـد لبدايتها فتنة شديدة قامت بين رابع الخلفـاء الراشـدين سـيدنا عـلى بـن أبـى طالب رضى الله عنه ومعاوية بن أبـى سـفيان رضى الله عـنهما حـين عـارض معاوية خلافة على بن أبى طالب بحجة أن علياً تهاون فى الدفاع عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأسفرت هذه الفتنة عن معارك عنيفة بين الجانبين استمرت حتى يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية حين قتل أحد الخوارج الخليفـة الراشـد سـيدنا على بن أبى طالب وكان من الممكن أن تستمر هـذه المحنـة طـويلاً لـولا أن الحسن بن على الذى بويع بالخلافة بعد أبيه رضى الله عنهما تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما حقناً لدماء المسلمين وتوحيداً لكلمتهم .. وقد كان ذلك فى عام ٤١ هـ الذى سمى بعام الجماعة.. وهو يعـد البـدء الحقيقـى للدولة الأموية التى بدأت بالتحديد حين أخذت البيعة لمعاوية بن أبى سفيان بالكوفة في حضور الحسن والحسين رضى الله عنهما يوم ٢٥ ربيع الأول عـام ٤١ هجرياًمنذ ذلك اليوم أخذت شجرة الخلافة الأموية فى النمو والازدهـار والتفرع حتى وصل عدد فروعها إلى ١٤ فرعاً كان أولها:

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه الذى تولى الخلافـة فى ٢٥ ربيـع الأول سنة ٤١هـ (يوليو ٦٦١م) وتلاه: يزيد بن معاوية وقد تولى الخلافـة فى رجب سنة ٦٠هـ (ابريل ٦٨٠م) وتولى الخلافة بعده: معاوية بن يزيد في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٤هـ (نوفمبر ٦٨٣م) .. وينتمي ثلاثتهم للأسرة السـفيانية التى حكمت ٢٤ عاماً بدأت بعام ٤١هـ وانتهت بعام ٦٤هـ. وتلتها بعد

ذلك الأسرة المروانية التى حكمت ٦٧ عاماً بدأت بعام ٦٤هـ وانتهت بعام ١٣٢هـ حين أسدل الستار على الدولة الأموية.

✍ **وكان تسلسل الخلفاء فيها كالتالي:**

- ✓ مروان بن الحكم في الفترة من ٦٤هـ إلى ٦٥هـ.
- ✓ عبد الملك بن مروان ولى الخلافة في ٢٧ رمضان ٦٥هـ (مارس ٦٨٥م).
- ✓ الوليد بن عبد الملك ولى الخلافة في ١٤ شوال ٨٦هـ (أكتوبر ٧٠٥م)
- ✓ سليمان بن عبد الملك ولى الخلافة في ١٥ جمادى الآخر ٩٦هـ (فبراير ٧١٥م).
- ✓ عمر بن عبد العزيز ولى الخلافة في ١٠ صفر ٩٩هـ (سبتمبر ٧١٧م)
- ✓ يزيد بن عبد الملك ولى الخلافة في ٢٠ رجب ١٠١هـ (فبراير ٧٢٠م).
- ✓ هشام بن عبد الملك ولى الخلافة في ٢٦ شعبان ١٠٥هـ (يناير ٧٢٤م.
- ✓ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى الخلافة في ربيع الثاني ١٢٥هـ (فبراير ٧٤٣م).
- ✓ يزيد بن الوليد بن عبد الملك ولى الخلافة في جمادى الآخر ١٢٦هـ (ابريل ٧٤٤م).

- ✓ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ولى الخلافة في ذي الحجة ١٢٦هـ (سبتمبر ٧٤٤م)
- ✓ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ولى الخلافة في صفر ١٢٧هـ (نوفمبر ٧٤٤م) وهو آخر خلفاء بني أمية.. فقد انتهت الخلافة الأموية بمقتله فى ٢٧ ذي الحجة ١٣٢هـ.

وجدير بالذكر أنه قد نبتت شجرة مباركة بجانب تلك الشجرة الكريمة خلال الفترة من ربيع الثانى عام ٦٤هـ (ديسمبر ٧٨٣م) إلى جمادى الأول عام ٧٣هـ (أكتوبر ٦٩٢م) حيث حكم عبد الله بن الزبير بن العوام في الحجاز واليمن والعراق وخراسان .. ولا ينتمي عبد الله بن الزبير إلى أى من الأسرتين السفيانية أو المروانية لكنه مع ذلك يعد الخليفة الشرعى خلال تلك السنوات التسعة برغم وجود خلافة مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان من الأسرة المروانية.

امتد عمر الدولة الأموية قرابة القرن ، وبالتحديد عاشت الدولة الأموية ٩١ سنة ما بين سنتى ٤١هـ و١٣٢هـ، وامتازت فترة الخلافة الأموية على قصرها - بالمقارنة بالخلافة العباسية - بوجود مجموعة من الحركات الفكرية والثورية كان أهمها:

✓ الشيعة:

وهم أقدم الحركات الفكرية ظهوراً.. فقد ظهروا بمذهبهم فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه.. وهم أصحاب الرأى القائل بأولوية آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بالخلافة.. وأحق آل البيت فى نظرهم هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

ولما جاء العصر الأموي ووقعت مظالم على آل البيت وخاصة العلويين رأى الناس فى على وأولاده شهداء هذه المظالم واستغل دعاة المذهب الشيعى هذا في الدعاية لمذهبهم.

ومع تطور الفكر الشيعي تفرق الشيعة إلى عدة مذاهب وطوائف بعضها معتدل والبعض الآخر تطرف وغالى حتى وصل إلى درجة تأليه على بن أبى طالب رضي الله عنه.

✓ **الخوارج:**

وقد نشأت حركتهم حين قبل على بن أبى طالب طلب معاوية بن أبى سفيان بالتحكيم فى موقعة صفين حيث قام فريق من جند على وقالوا: إن التحكيم خطأ لأن معناه الشك فيما قمنا بالحرب من أجله.. وطلبوا من الإمام على الإقرار على نفسه بالخطأ بل بالكفر لقبوله التحكيم.. ولما لم يستجب لهم أجمعوا على الخروج من الكوفة إلى قرية تسمى حروراء وسموا حينئذٍ بالحروريه.وأطلق عليهم البعض اسم الخوارج لأنهم خرجوا على الإمام على وصحبه.وقد انقسم الخوارج بعد ذلك إلى فرق كثيرة منهم المعتدل ومنهم المغالى، وأعدل طوائفهم وأقربها إلى الإسلام هى الإباضية ولهذا كتب لها البقاء إلى اليوم.. أما باقى الخوارج فقد حاربوا الأمويين والعباسيين إلى منتصف القرن الثالث الهجري فكانت نهايتهم.

ورغم وجود هذه الحركات وغيرها كالمعتزلة والجبرية والمرجئة لم تنشأ فى فترة الخلافة الأموية دويلات مستقلة مثل التى ظهرت خلال الدولة العباسية ، فقد ظلت الدولة متماسكة رغم اتساعها الذى شهدته طوال فترة حكم خلفائها الأقوياء.

ولقد تعرض تاريخ الدولة الأموية إلى الكثير من الطعن والتشويه من جانب خصومها من العباسيين والشيعة والخوارج ولذلك فهو كما يؤكد أحد المؤرخين المعاصرين (تاريخ يحتاج إلى إنصاف) لأن هذه الخلافة كانت خيراً للمسلمين إذ انتهت بها الفوضى والاقتتال فوجه المسلمون قوتهم إلى الخارج حيث عاد الجهاد وحدثت الفتوحات وتوسعت الدولة الإسلامية فى القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا.

ففى آسيا استطاع المسلمون بقيادة محمد بن القاسم الثقفى فتح بلاد السند ومدينة كابل.. كما استطاع المجاهدون الأبرار بقيادة قتيبة بن مسلم فتح بلاد ما وراء النهر وكل من سمرقند و بخارى و خوارزم و طشقند. وليس هذا فقط بل لقد وصل قتيبة بن مسلم بجيوشه إلى الصين وتصالح مع ملكها على أن يدفع له الجزية.

وفى أوروبا وصلت جيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد إلى إسبانيا واستطاعت فى معركة وادى لكة فتح الأندلس و قرطبة. ثم فتح المسلمون أشبيلية بقيادة موسى بن نصير. ولم تتوقف الفتوحات فى أوروبا حتى بعد معركة بلاط الشهداء التى استشهد فيها قائدها عبد الرحمن الغافقى بل عاد المسلمون مرة أخرى واستولوا على الكثير من المقاطعات فى فرنسا وحتى سويسرا.أما أفريقيا فقد استمرت الفتوحات فيها امداً طويلاً بقيادة عقبة بن نافع حتى أتم الله عليه وعلى المسلمين فتح شمال أفريقيا كله حين وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً.

ومن أشهر المعارك التي قادها فى فتوحاته معركة ممس وكانت فى مدينة القيروان.

ومن أروع ما ميز هذه الفتوحات أنها كانت إسلامية الروح بمعنى أنها لم تكن ابداً غزواً من أجل الحصول على أرض وملك وإنما كانت دعـوة خـير وسلام لكل البشر فى البلاد المفتوحة فالإسلام رسالة إنسانية عالميـة تكوينهـا الأساسى الوحدانية المطلقة فى العقيدة ثم الاستقامة كسلوك.. والذى حدث فى كثير من الأحيان أن الله شرح صدور أهالى البلاد المفتوحة للإسـلام حـين بهرتهم فيه الأخلاق الحربية و المساواة العنصرية، وفى الأحيان القليلة النـادرة شـملهم التسـامح الـدينى حـين قبلـوا دفـع الجزيـة فعاشـوا فى ظـل القـيم الإسلامية الرفيعة التى تقبلها الفطرة السليمة، فمن ذا الذى يـرفض الـوعى بالزمن أو يكره الرفق بالحيوان.

ومن الجدير بالذكر أن إنجازات المسـلمين فى الدولـة الأمويـة لم تكـن فقط عسكرية حربية فالإسلام دين شامل يدعو للعمل فى كل المجـالات وإن كان الجهاد هو أشرف الأعمال وأزكاها فإن للعلم أيضا مكانة راقيـة ودرجـة سامية بـين الأعـمال. ولهـذا اهـتم المسـلمون عمومـاً والأمويـون خصوصـاً بالعلوم وانتشرت مراكز الحياة العلميـة فى مكـة والمدينـة والبصرـة والكوفـة ودمشق والأسكندرية والفسطاط وكثير من المدن فى العصـر الأمـوى فمـثلا فى مكة والمدينة برزت علوم القرآن ومنها علم النحو الذى وضع قواعده أبو الأسود الدؤلى ثم سار على دربه فى البصرة كل من يحيى بن يعمر النحوى

والخليل بن أحمد الفراهيدى، وكان تدوين الحديث الشريف على أيدى علماء شرفاء مثل مالك بن انس ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى الذين أخذوا الأحاديث عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة الأجلاء ورواة الحديث الثقات.

وتناول الكثير من العلماء الأمويين آيات القرآن الكريم بالتفسير واشتهر منهم عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد بن جبير وعكرمة بن عبد الله وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبى رباح ومحمد بن كعب القرظى وتبعهم عامر الشعبى والحسن البصرى وقتادة السدوسى وسفيان بن عيينة.

واهتم الأمويون أيضاً بالعلوم الدنيوية فقام علم التاريخ على يد وهب بن منبه وعروة بن الزبير بن العوام ومحمد بن شهاب الزهرى وغيرهم .ونشأت الكيمياء بمفهومها العلمى والتطبيقى البعيد عن الخرافات والسحر.. وكان الدور الأكبر فى ذلك للأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وبرزت من المدن فى علم الكيمياء الإسكندرية وجنديسابور. وإضافة لذلك نمت الترجمة فى دمشق والإسكندرية واشتهر من المترجمين المسلمين فى ذلك العصر حسان بن أبى سنان الذى كان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية.

وعموماً كان النظام التعليمي في العصر الأموي منحصراً في حلقات المساجد التى اشتهرت منها حلقات كل من عبد الله بن عباس فى مكة وربيعة الرأى في المدينة والحسن البصري في البصرة ولأن اهتمامات الأمويين كانت متنوعة فقد كان طبيعيا أن تنشأ مؤسسات جديدة وصناعات مبتكره لخدمة هذه الاهتمامات فكان الجهاد مثلا يتطلب اهتماماً خاصاً بالجيش وصناعة السفن وكانت العلوم تتطلب أن تتطور صناعة الورق، ومن أجل استتباب الأمن الداخلى اهتم الأمويون بالشرطة، ولنشر العدل وحفظ الحقوق كانت الحسبة ونشأ ديوان النظر فى المظالم وهو أحد الدواوين الكثيرة التى أنشأها الأمويون ومنها ديوان البريد وديوان الخاتم وديوان الخراج وديوان الطرز، وكان السبق للأمويين فى تعريب معظم هذه الدواوين بعد أن كانت تكتب باليونانية والفارسية والقبطية وغيرها، ومن أهم إنجازات الأمويين فى مجال الاقتصاد تعريب السكة الذى كان فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

ولم ينس الأمويون الفن.. فالله جميل يحب الجمال. ولهذا فإن الزائر لأي مدينة نشأت أو كانت قائمة فى العصر الأموى يستطيع أن يلمس الطراز الأموى فى الفن الإسلامى فى كل مكان ابتداءً من معمار المساجد مروراً ببوابات المدينة وانتهاءً بالبساتين والمنتزهات .. وتشهد الرها و حلب على كل هذا الجمال والفن.

وغير الرها وحلب هناك العديد من المدن التى تحوى فنوناً أموية بديعة وآثاراً إسلامية رائعة فالزائر مثلاً لمدينة القدس سينبهر بالفسيفساء الجميلة التى تزين قبة الصخرة وكذلك الأخشاب المزخرفة التى نراها فى المسجد

الأقصى وتبدو فى أروع صورها فى جامع الزيتونة الذى أنشأه حسان بن النعمان في تونس.

أما الجامع الأموي في دمشق ففيه أجمل نماذج لفنى التصوير المعمارى والعقود المعمارية، وفى دمشق أيضاً نرى الزخارف الحجرية التي تميز قصر المشتى.

ونذكر من أجمل الآثار الباقية شاهدة على الفن الأموى المسجد الكبير بالقيروان الذى تعتبر مئذنته خير نموذج لمعمار المآذن فى شمال أفريقيا.وكذلك جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط.. ويجب ألا ننسى قصير عمرة الذى أنشأه الوليد بن عبد الملك، وقصر خربة المفجر الذى يبعد حوالى ثمانين كيلو متراً شمال شرقي مدينة الخليل.

هذا ومن الفنون التي اهتم بها الأمويون ككل العرب فن الشعر وقد برز من الشعراء في العصر الأموي قطري بن الفجاءة وحماد الراوية وجرير.وختاماً لم يعثر المؤرخون على قطع معدنية كثيرة يمكن نسبتها إلى فنون المعادن في العصر الأموي.

الفصل الثاني

الدولة الأموية - دولة الفتوحات

في عام (٤١ هـ – ٦٦١م) ويسمى عام الجماعة – تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن حرب معاوية بن أبي سفيان، الذي كان والياً على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب، والذي رفض مبايعة علي بن أبي طالب – رابع الخلفاء الراشدين – متذرعا بأن عليا قد فرط في الثأر من قتلة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً.

وبتنازل الحسن استقر الأمر لمعاوية فأصبح خليفة المسلمين، وقامت دولة بني أمية التي تنتسب إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فحكمت نحو تسعين عاماً (٤١ – ١٣٢هـ) (٦٦١ – ٧٥٠م) ونقلت عاصمة الحكم من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجاز إلى دمشق بالشام.

كان نظام الحكم في عهد بني أمية عائلياً، وقد تداول الحكم أربع عشرة خليفة أولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد الذي قتله العباسيون في "أبو صير" من حلوان مصر .

الخلفاء الأمويون:

١. كان معاوية أول الخلفاء الأمويين ومؤسس دولتهم، وكان مولده بالخيف من منى قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وأمه هند بنت عتبة، وأبوه أبو سفيان، وقد أسلموا جميعاً في فتح مكة. وأصبح معاوية من كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واشترك في حروب الردة مع أخيه وأبيه، ثم ولاه عمر جزءاً من بلاد الشام، فلما جاء عثمان رضي الله عنه جمع الشام كلها تحت حكمه.

٢. وبموت معاوية سنة ٦٠هـ بايع المسلمون ابنه يزيد، ما عدا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، وقد وقف الأولان منه موقف العداء، وقتل في عهده الحسين، في كربلاء، وحكم ثلاث سنوات ثم مات سنة ٦٤هـ، وعمره ثمانية وثلاثون عاماً.

٣. ثم تولى معاوية بن يزيد، بوصاية أبيه، لكنه كان ورعاً زاهداً فتنازل عن الخلافة بعد ثلاثة أشهر.

٤. وقد وقعت حروب انتهت في (مرج راهط) بين الأمويين وعبد الله بن الزبير، وأصبح مروان بن الحكم خليفة على الشام وحدها، وبقي ابن الزبير خليفة على سائر الأمصار، حتى ظهر عبد الملك بن مروان، فتمكن من توحيد العالم الإسلامي الشرقي تحت إمرته، ولذا اعتبر المؤسس الثاني للدولة الأموية.

٥. وكانت لعبد الملك أياد عظيمة، فقد عرب الدواوين وضرب العملة، وبقي في الحكم اثنين وعشرين عاماً، وتوفي سنة ٨٦هـ، فتولى بعده ابنه الوليد بن عبد الملك، الذي حكم عشرة أعوام، وتمت في عهده إصلاحات داخلية عظيمة وفتوحات إسلامية كبرى على يد قادة عظام مثل محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند، وموسى بن نصير فاتح الأندلس.

٦. ثم جاء بعده أخوه سليمان بن عبد الملك فحكم ثلاثة أعوام لم تتقدم فيها الدولة شيئا، لا من الداخل ولا من الخارج، ومات سنة ٩٩هـ، فوسد الأمر لأعظم شخصية في تاريخ بني أمية، على الرغم من أنه لم يحكم إلا عامين، وهو عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره البعض (خامس الخلفاء الراشدين) لكثرة ما عمل من إصلاحات خلال الفترة الوجيزة التي حكم فيها.

لقد راقب عمر الولاة بحذر، وأخذ على أيديهم وطرد القساة منهم، وانتشر الإسلام في عهده انتشاراً كبيراً لأنه وضع الجزية عمن يعتنق الإسلام، وكان ولاة السوء لا يفعلون ذلك، ويروي ابن عبد الحكم، ملخصاً عهد عمر بن عبد العزيز، في قوله الوجيز: "إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلا يجده، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس".

٧. ثم ولي الأمر بعده يزيد بن عبد الملك، بعهد من أخيه سليمان بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وهو ابن تسع وعشرين سنة. فدامت خلافته أربع سنوات وشهراً، ثم مات بعدها دون أن يترك أثراً ذا بال اللهم إلا إخماده لفتنة يزيد بن المهلب.

٨. وولي بعده هشام بن عبد الملك، فمكث في الخلافة عشرين عاماً حاول فيها تقليد عمر بن عبد العزيز، ولم ينجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وإن كانت الدولة قد اتسعت في عهده، ففتحت قيسارية وبلاد الخزر، وأرمينية، وشمال آسيا الصغرى، وجزءاً كبيراً من بلاد الروم. لكن الأحوال الداخلية لم تكن مستقرة على عهده وتوفي في عام ١٢٥هـ، وترك الحكم للوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يعتبر عهده - الذي لم يدم أكثر من عام إلا قليلاً - من أسوأ عهود الدولة الأموية، ظلماً وانتقاماً من أبناء سلفه هشام فضلاً عن عنصريته وخلاعته.

٩. ولم يكن للخليفتين اللذين وليا بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم ابن الوليد أثر يذكر، ولم يدم حكم كل منهما إلا ثلاثة أشهر، ولم تستقم لهما الأمور، وكانت أيامهما، وأيام سابقهما الوليد بن يزيد، فرصة ذهبية نجح فيها العباسيون في تعبئة النفوس وتنظيم الصفوف، للانقضاض على الدولة.

١٠. فلما آلت الخلافة لمروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية في المشرق لم يستطع أن يقر قواعد الدولة، على الرغم من أنه "كان أشجع بني أمية وأقدرهم على تحمل الأخطار" .. فسقطت الدولة في عهده، بعد فتنة واضطرابات دامت خمس سنوات، وكان سقوطها في سنة ١٣٢هـ.

وكانت دولة بني أمية دولة عربية تتعصب للعرب وللتقاليد العربية، وللغة العربية ، ولم يستطع معظم خلفائها أن يرتفعوا على مستوى المساواة والعدل في الإسلام. لكن مع ذلك كان لهذه الدولة أياد طولى على المسلمين لعل من أهمها جهودها العظيمة في مجال الفتوحات الإسلامية.

فتوحات الدولة الأموية:

اتسعت فتوحات الدولة الأموية اتساعاً عظيماً، منذ عهد معاوية الذي لم تكد تستقر له الأوضاع حتى جهز الجيوش وأنشأ الأساطيل، وأرسل قواده إلى أطراف الدولة لتثبيت دعائمها، بعد أن حاول الفرس والروم استغلال فترة الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

- وقد أخضعت هذه الجيوش ثورة فارسية هدفت إلى الامتناع عن دفع الجزية. ثم توغلت جيوشه شرقاً، فعبرت نهر جيحون، وفتحت بخارى وسمرقند وترمذ.
- ومن الجهة الرومانية، كان الرومان قد أكثروا من الغارات على حدود الدولة الإسلامية في الناحية الشمالية الغربية، فأعد معاوية لهم الجيوش، وانتصر عليهم في مواقع كثيرة.

وبأسطوله الذي بلغت عدته (١٧٠٠) سفينة، استولى على قبرص ورودس وغيرهما من جزر الروم - كما قام بالمحاولة الأولى لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية سنة ٤٨هـ، فأرسل جيشا بإمرة ابنه يزيد، وجعل تحت إمرته عدداً من خيرة الصحابة كعبد الله بن

عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأبي أيوب الأنصاري، لكن المحاولة لم تنجح !!

ومن الشمال الإفريقي (تونس والجزائر والمغرب الأقصى) امتد الفتح الإسلامي، فأرسل (معاوية) عقبة بن ابن نافع سنة (٥٠هـ) في عشرة آلاف مقاتل ، لتثبيت فتحها، وقد عمل عقبة على نشر الإسلام بين البربر ثم بنى مدينة القيروان، وفي عهد ابنه الخليفة (يزيد) وصل عقبة في اكتساحه للشمال الإفريقي حتى المحيط الأطلسي غرباً، وقال هناك كلمته المأثورة "والله لولا هذا البحر لمضيت في سبيل الله مجاهداً".

وفي الشرق اتجهت جيوش عبد الملك بن مروان - الخليفة الأموي الخامس - إلى التوسع في بلاد ما وراء النهر، وكانت القيادة في هذا الركن للمهلب بن أبي صفرة وليزيد بن عبد الملك. وكان من أبرز الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك فتح بلخ ، والصفد، ومرو، وبخارى، وسمرقند، وذلك كله على يدي قتيبة بن مسلم.

أما محمد بن القاسم الثقفي فقد فتح السند (باكستان). وفتح مسلمة بن عبد الملك فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى، منها فتحه لحصن طوالة وحصن عمورية، وهرقلة، وسبيطة، وقمونية، وطرسوس .. كما حاصر القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك .

وفي أوربا فتح موسى بن نصير الأندلس، وبقيت في حوزة المسلمين ثمانية قرون (٩٢-٨٩٨ .. هـ) وكان جزاؤه من بني أمية جزاء سنمار !!

وقد حاول عنبسة بن سحيم الكلبي غزو جنوب فرنسا وفتح سبتمانية، وبرغونية، وليون - ونجح المسلمون في ذلك نجاحاً مؤقتاً، حتى انتهت هذه المحاولات بعيد موقعة بلاط الشهداء التي قادها عبد الرحمن الغافقي - بقليل. ولم يكن لهذه الفتوحات صدى حقيقي، لأنها كانت أشبه بحملات جهادية فردية.

ولماذا سقط هؤلاء العظماء؟

كان معاوية رضي الله عنه - بلا ريب - أحد دهاة العرب القلائل، وكان رجل دولة وخبير سياسة بمعنى الكلمة .. بيد أنه كانت هناك حقيقة حضارية ينبغي عليه إدراكها وهي: أن الحضارة حين ينفصل جسدها عن دماغها لا يمكن أن تكون قابلة للبقاء .. حين يحدث انشقاق بين روح الأمة وجهاز عملها المادي تحدث الآلية القاتلة وتسير القافلة بلا روح تماماً كما يسير الذي قطع رأسه من جسده.. إنه لا بد من أن يسقط بعد خطوات !!

ومنذ قامت الدولة الأموية، واعتمد فيها نظام وراثة الخلافة كرهاً عن الأمة منذ هذا الحدث وثمة انفصال بين جسد الأمة وروحها ذاقت منه الأمة الإسلامية مر الأهوال .. وكان أحد الأسباب ، بل أهم الأسباب في سقوط الدولة الأموية.

لقد تشكلت طبقة تعطي نفسها امتيازا جنسيا غريب الشكل فهي لمجرد أنها من البيت الأموي، حتى ولو افتقدت كل صلاحيات الوجود والحكم بعد ذلك، لا بد أن تقف في الصف الأول .. وأن تقود وتحكم..!! والأدهى من ذلك أن هذه الدولة اعتمدت العنصرية العربية المستعلية حقا تتكئ عليه في سيادتهاوظلمها!!

وهذه الظاهرة تلد أمراضا حضارية خبيثة كلها شؤم وبلاء . فإن هـذه الطبقة سرعان ما يحاول كل واحد منها الحصـول عـلى حـق .. أكثـر شرعيـة جنسية لكي يصـل إلى الحكـم، وبالتـالي يلجـأ إلى الـدس والخديعـة والقتـل والاغتيال ويسود الطبقة الحاكمة جو مـن الصراع الـداخلي يمنعهـا عـن أن تؤدي للأمة أي شيء ، ويكون كل هم الحاكمين أن يحافظوا على الموقع الـذي يقفون فيه .. هكذا كان الأمر بين الأمويين ولا سـيما في الأيـام الأخـيرة مـن عمرهم .. أيام الوليد بن يزيد، ومروان بن محمد.

ومن الأمراض الخطيرة التي تلدها ظاهرة الانفصام المشئومة اسـتعانة هؤلاء الحاكمين بطبقة تتولى هي في الحقيقـة الأمـر، وتسـتبد بالأمـة، وحـين تستغيث الأمة لا تجد من يغيثها، إذ يكون الحكام في واد آخر بعيد عنهـا، بـل إن هؤلاء الحكام يعتقدون أنهم بوجودهم في مراكز السـلطة مـدينون لهـؤلاء العمال أو الولاة الغاشمين الظالمين.

وقد زخرت صفحات التاريخ بعديد من هؤلاء الجبابرة الذين أساءوا إلى المسـلمين والإسـلام إسـاءات بالغـة كالحجـاج بـن يوسـف الثقفـي في المشـرق، والوالي عبد الله ابن الحبحاب في المغرب.

ولقد أساءت هذه الطبقة المصطنعة العازلة إلى تـاريخ الأمـويين نفسـه أيما إساءة، وزينت للخلفاء الأمويين كل جور، وعملـت في المسـلمين عمـل كسرى وقيصر في شعبيهما وكانت – يعلم الله – بلاء على المسـلمين أي بـلاء !! وقد كانت سبباً في نجاح الخوارج، وفي إشعال ثـورات بربريـة، في سـاحة الأندلس والمغرب.

وبتأثير الطغيان الذي ساس به الولاة جماهير المسلمين، انصرف الناس إلى أمورهم، تاركين أمور الدولة في يد الفئة الحاكمة بل انصرفوا إلى الاندماج في كل حركات الخروج على الدولة .. وقد تمخض كل ذلك عن ميلاد تنظيم من أدق التنظيمات في تاريخ الانقلابات السياسية، وهو التنظيم العباسي الذي رفع الراية العلوية (الرضا من آل البيت) أيام سريته .. إلى أن وصل إلى الحكم.

ولم يك هذا التنظيم لينجح ويجد المناخ والعناصر الصالحة إلا نتيجة سياسة الولاة الغريبة عن روح الإسلام.

وقد اختلف المؤرخون في سقوط هذه الدولة العظيمة .. دولة الفتوحات وقد رأى بعضهم، وهم محقون، أنه النزاع بين المضرية واليمانية، الذي ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية، قد أدى إلى ضياع بني أمية.

ويرى بعضهم أن مصرع الحسين بن علي في كربلاء كان الداء القاتل الذي تفاقم حتى قضى عليها. ورأى آخرون أن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط بني أمية هو تعصب الأمويين للعرب، مما أدى إلى خروج الموالي على الدولة الأموية وهم غير العرب الذين دخلوا في الإسلام عقب الفتح العربي في فارس ومصر والمغرب.

وما لبث هؤلاء أن أصبحوا أعداء للعرب من بني أمية ولا شك أن سلوك الوليد ابن يزيد الذي أدى إلى مصرعه كان من أبرز الأسباب المباشرة في فساد الأحوال.

كما أن الاستبداد الفردي عامل من عوامل سقوط الدولة قال به كثيرون. وقد تكون كل هذه الأسباب صحيحة، بل قد تكون متداخلة، لكننا نميل إلى سبب جوهري نراه أكبر الأسباب وأبرزها، وهو العنصرية الأموية التي جعلتهم يرفعون العرب على حساب غيرهم، ويثيرون الأحقاد في بقية الطوائف المسلمة!!

وتبقى عبرة التاريخ الأخيرة في سقوط الدولة الأموية. فإن نصر بن سيار (والي خراسان) كان على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .. وكان نصر هذا .. كما كان مروان .. كان كلاهما من خيرة من أنجبت الدولة الأموية.. هذا في الولاة ، وذلك في الخلفاء.

لكنهما ظهرا بعد أن اتسعت خروق الدولة على أي راقع، وكان رصيد الدولة من الفساد والتحلل والظلم والضعف، قد أصبح أكبر وأضخم من طاقة أي إنسان.

لقد كانت حركة التاريخ التي هي من سنة الله قد قالت في الدولة الأموية كلمتها .. وقد حاول "نصر" أن يستعمل ذكاءه في إنقاذ الدولة ، إذ كان يستشف ببصيرته الوقادة أن ثمة أمورا تبينت للدولة ، وأن دولة الأمويين على وشك الرحيل، وكم كاتب الخليفة الأموي الأخير "مروان" في ذلك .. ولكن دون جدوى .. لقد اتسع الخرق ووجب أن ينهار البناء !!

وكان مروان .. مشغولاً بسداد "شيكات" سابقيه من الديون .. في بنك الضياع .. فلم يمكنه أن يستجيب لا "لنصر" ولا لضميره الذي كان يحس بقرب الكارثة .. هكذا تفعل الدول بنفسها .. نتيجة ظلمها. وتراكم هذا الظلم.

وعندما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، ولقـي مـروان المسـكين مصرعه في حلوان بمصرـ كـان كتـاب التـاريخ يطـوي إحـدى صـفحاته .. يطويها بعنف لأن أبطالها أرادوا لأنفسهم هـذا حـين راحـوا ينفصـلون عـن ضمير الأمة ووجدانها، ويعزلون أنفسهم عن شعوبهم – بطبقـة مـن العـمال الظالمين الغاشـمين وبعنصرـية عربيـة قوميـة ظالمـة لقـد فتحـوا كثـيرا مـن الأراضي، لكنهم فشلوا في أن يفتحوا القلوب . والعقول !!

سقوط الدولة الطولونية في مصر:

الانتصار في معركة .. والحصول عـلى مكسـب وقتـي والوصـول إلى السلطة هذه كلها ليست هي قضية التاريخ ولا معركة التقدم البشري بل هي عموماً ليست من عوامـل تحريـك التـاريخ إلى الأمـام أو الخلـف عـلى نحـو واضح وضخم إن الانتصار في معركة .قد لا يعني الهزيمة الحقيقية للأعداء، فحين لا تتوافر العوامل الحقيقية للنصريصبح أي نصر مرحلي عملية تضليل، واستمراراً للسير الخطأ، وتمادياً في طريق الوصول إلى الهزيمة الحقيقية هكـذا سار التاريخ في مراحل كثـيرة مـن تطوراتـه .. كـان النصرـ بدايـة الهزيمـة ، وكانت الهزيمة بداية للنصر!

وحين يصل إنسان ما إلى الحكم دون أن يكـون معـداً إعـداداً حقيقيـاً للقيادة، ودون أن يكون في مستوى أمته يكون وصوله على هـذا النحـو هـو المسمار الأخير الذي يدق في نعش حياته وحياة الممثل لهم

والتاريخ في دوراته غريب وهو يعلمنا أنه لا توجد قاعدة ثابتة للتحول ترتكز على أسس متينة، اللهم إلا قاعدة التغيير من الداخل المرتكزة على عقيدة لها جذورها في أعماق النفس، ولها انسجامها مع حركة الكون ولها صلاحياتها في البقاء والانتشار والخلود!

وعندما أعلن "أحمد بن طولون" مؤسس الدولة الطولونية في مصر انفصاله عن الدولة العباسية بعد سنة ٢٥٤هـ، كان ينقصه الوعي بحركة التاريخ والشروط الضرورية للتغيير، وكان بإنشائه هذه الدولة ليس أكثر من "انقلابي" سيطر على الحكم في ظل أوضاع معينة مرت بها الدولة العباسية، سمحت له ولأمثاله بإظهار مطامحهم في مزيد من السلطة والشهرة والرغبة الجامحة في السيطرة. لم يحاول هذا الرجل - ما دام قد وصل إلى مستوى الثقة لدى الجهاز العباسي الحاكم - أن يتقدم بإصلاحاته، وأن يبحث عن السبل المؤدية لحماية الدولة الإسلامية الجامعة، وإنما راح في إغراق في عبودية الذات يبحث عن استغلال الظروف لصالحه.

ومنذ استقر في مصر سنة ٢٥٤هـ وهو يحاول جمع كل مقاليد السلطة في يده، فيتخذ من الإجراءات ما يجعله الرجل الوحيد في مصر، وليس الرجل التابع لدولة إسلامية كبرى تستطيع عزله وتولية غيره. وقد عزل - في سبيل ذلك - عامل الخراج الذي عينه العباسيون على مصر - وتمكن من التحكم في الشئون المالية إلى جانب الشئون الإدارية والعسكرية.

ودخل أحمد بن طولون في صراع مع الدولة العباسية الجامعـة وانتصر على أخي الخليفة أبي أحمد "الموفق" واتخذ من الإجراءات الثورية ما يكفل لـه الوقوف على قدميه لصد أي هجوم عباسي.

لكنه في الحقيقة لم يكن في حاجة إلى هجوم . فنشأته على النحو السـابق تحمل في أحشائها النهاية الطبيعية العاجلـة. ورأت الخلافـة مـن الحكمـة أن تستغله بدل أن تدخل معه في صراع، وكلفته بمهام جديدة، منها حماية الثغور الشامية ومات أحمد بن طولون تاركا دولـة تقـف كلهـا عـلى أقدامـه وحـده وليست لها أقدام أخرى من عناصر الحياة التاريخيـة والحضـارية ولـذا فإنهـا بموته وقعت على الأرض.وعلى الرغم من كل ما أبداه "خمارويـه" ابنـه مـن إتباع لسياسة أبيه، ومن تمسك بمعالم استقلال وقوة دولته المسـتقلة إلا أنـه لم يعد أن يكون مرحلة عبرهـا التـاريخ ليـدخل بالدولـة - فـوراً - في مرحلـة الأفول والفناء.

فبعد خمارويه انغمس الأمراء الطولونيون في لهوهم ، وتفشـت ظـاهرة حب السلطة والاستقلال لدى عمالهم في الأقـاليم. وانقلـب الثوريـون عـلى أنفسهم، أو بالتعبير الدارج بدأت طلائع الثورة يأكل بعضها الـبعض. وقـد ولي الأمر بعـد خمارويـه ثلاثـة مـن آل طولـون لم يـزد حكمهـم عـلى عشـر سـنوات، ولم تسـتفد الـبلاد المصريـة أو الشـامية مـنهم شـيئاً غـير الفـوضى والتنافس بين الطامعين في السلطة أو الفساد الذي نجم عـن الـترف، وعـن الاستبداد وغيبة الأمة عن الرقابة أو الحكم وفي هـذه الحـال لم يكـن الأمـر متعباً بالنسبة للدولة العباسية فتقدمت جيوشها لاسترداد مصر من خامس

الولاة الطولونيين وهو "شيبان" الذي كانت الفوضى قد وصلت في عهده قمتها وأعلى معدلات خطورتها ، وشهدت سنة ٢٩٢ هـ دخول هذه الجيوش إلى القطائع في القاهرة .. ومن فوق المنبر أعلن إزالة الدولة الطولونية التي لم تستطع أن تحكم أكثر من أربعين سنة عاشتها في صراع خارجي وعاشت معظمها في صراع داخلي، مع شعب لم يهضم حركتها التي لم يكن لها المبرر الحضاري الهام لإحداث التغيير.

وعادت مصر إلى حظيرة الدولة العباسية .. وعلى امتداد تاريخنا سجلت صفحاته عشرات من الانقلابات وسجلت أسماء مئات الانقلابيين .. ولكنهم – جميعاً وبلا استثناء – لم يقدموا ما يتوازى مع أحجام الخسائر التي كبدوها لأمتهم .. لأن الانقلاب ليس الوسيلة التاريخية المهيئة للتغيير، إذ هو موجة انفعالية سرعان ما تنحسر محدثة رد فعل انحساري عنيف .. ودائماً ... دائماً أثبتت كل تقلبات تاريخنا كما أثبتت كل تطورات الحضارة "أن الانقلاب يدفع إلى انقلاب .. وأن حركة التاريخ لا تندفع بالعنف والانفعال"!!

الصفاريون وقصة سقوطهم:

تاريخنا الإسلامي العظيم كتاب كامل من التكاملية التاريخية، يضم بين صفحاته كل صور التقدم والتأخر. وهو معلم عظيم .. اشتملت تجاربه على نوعيات من كل تجارب التاريخ البشري، وليس ذلك لأن القرآن العظيم قد حكى على نحو تركيبي كل صور التقلب والحركة والهبوط والارتقاء التي مر بها الموكب البشري، والتي تغني التطور التاريخي الإسلامي وتكفل له

الاندفاعة العاقلة ليس مرد الأمر إلى ذلك وحسب .بل لأن كتاب التاريخ الإسلامي نفسه قد شاء الله له أن يكون من التكاملية والحبكة والتنوع بحيث يصلح كمرجع تال للقرآن والسنة يرجع المسلمون إليه ويتعلمون منه، ويتلقون تلقي التلميذ من الأستاذ . إننا لا ندعو إلى رفض تأمل الموكب البشري المتحرك الذي يتحرك إلى جانبنا ومن حولنا أبداً فكل ما هنالك أننا لا بد أن ندرس أنفسنا قبل أن ندرس الآخرين.

والعجيب في أمر الدولة العباسية التي عاشت أكثر من خمسة قرون .. أستاذاً وقائداً زمنياً وروحياً - مع اختلاف في الدرجة - العجيب أن هذه الدولة قد اشتملت على باب كامل من أبواب تاريخنا تكاملت له البداية .. والعقدة .. والنهاية.

وكما تعرضت هذه الدولة لعلل الانفصال عنها بوضوح منذ منتصف القرن الثالث الهجري ببروز الدولة الطولونية في مصر، فإنها كانت تتعرض على امتداد النصف الثاني من القرن الثالث المذكور لهذه العلل على امتداد أرضها كلها.

كانت حركات الانفصال التي كانت لا تزال تخطب في المغرب باسم الخليفة العباسي "حركات الأغالبة والرساميين والأدارسة " بدلاً من هذا أصبح الفاطميون حركة عصيان وتمرد علني بل وخروج على الأيديولوجية العباسية.

ومن الغريب أن حركة خروج أخرى تحمل نفس العداء السياسي والعسكري للخليفة العباسي، وإن كانت لم تخرج أيديولوجيا، كانت قد برزت في خراسان وتمخضت عن صراع عسكري اتبعه انفصال عن الدولة في سنة ٢٥٤هـ وهي السنة نفسها التي برزت فيها الدولة الطولونية وسميت حركة الانفصال في خراسان هذه باسم "الدولة الصفارية"!!

وكان لخراسان - كما هو معروف - وضع خاص في الدولة إذ كان هؤلاء الخراسانيون يشعرون بأنهم أصحاب فضل على الدولة العباسية، وبأن سيدهم "أبا مسلم الخراساني" هو المؤسس الأكبر في رأيهم للدولة العباسية، لكنهم - وهذا رأيهم كذلك - جوزوا جزاء "سنمار" حين قتل أبو جعفر المنصور الثاني ثاني الخلفاء العباسيين أبا مسلم هذا.

وقد تجاوزت الخلافة العباسية عن خراسان بعض الشيء بدافع من الوفاء والمجاملة، وتركت "لطاهر بن الحسين" الذي قدم للدولة خدمات جليلة فرصة التحكم في خرسان .. له ولأبنائه من بعده في إطار الخلافة الجامعة والسمع والطاعة لدولة الخلافة عاصمة وخليفة .. حرباً وسلماً.

لكن منتصف القرن الثالث شهد بروز جماعة من المجاهدين الحريصين على بقاء هيبة الخلافة . تمكن "يعقوب بن الليث الصفري" من الاتصال بها .. والسيطرة عليها . وتحويلها إلى جماعة خادمة له . نجح بها في تأسيس "الدولة الصفارية".

وقد استطاع يعقوب أن يجتذب إلى تأييده عدداً من المتطـوعين الجـدد، فعظم جيشه، واستطاع أن يحدث القلق لدى دولة الخلافة، وبالقلق وإظهـار تعاونه مع الدولة، وحروبه تظاهراً لمصلحتها، ثم باصطدامه بهـا . اصـطداما فاشلاً كاد يلقى حتفه فيه .. بكل هذا سكتت الخلافة عن هذه الحركات التي ولدت لتموت، ولم يلبث يعقوب أن مات متـأثرا بجراحـه سـنة ٢٥٦هـ في سابور.

وخلفه أخوه عمرو بن الليث .. وأقرت الخلافة ولايته عـلى خراسـان ولواحقها كالسند وسجستان وكرمان وفـارس وأصـبهان .. فـأظهر عمـرو الطاعة الكاملة للخلافة، لكنـه - أمـام كـرم الخلافـة - قـد زاد في أطماعـه، ودخل في معارك مع السامانيين في بلاد ما وراء النهر، واسـتطاع السـامانيون بقيادة إسماعيل بن نصر الساماني أسره في إحدى المعارك، وسيروه مكبلاً إلى الخليفة العباسي المعتضد ..وأحضر إلى مجلس الخليفة المعتضد محمولاً على جمل ذي سنامين، وسجن حتى مات في سجنه سنة ٢٨٧هـ .

واضطرب أمر الصفاريين لمدة ثلاثة أعـوام بعـد ذلـك، وسـقطوا كـما تسقط كل حركة انفعالية ترتكز على طموح شخصي، وتفتقد الـوعي بحركـة التاريخ وبأيديولوجية قتالية واضحة تستأهل الموت في سبيلها.

ودائماً يعلمنا التاريخ الإسلامي العظيم مـن تجربـة الانقـلاب، الـذي سماه المؤرخون غير المحددين بعمق لرصيد المصطلحات " الدولة الصـفارية "؛ يعلمنا التاريخ الإسلامي العظـيم أن " الانـدفاع غـير الموضـوعي وغـير المتناسق مع روح التطور لا مصير له إلا الموت السريع " !!

الإخشيديون على خطى الطولونيين يسقطون!!

في قوانين الحضارة: أن المادة والروح لا تفنيان فناء مطلقاً وأن بذور الخير والشر لا يمكن أن تموت موتا أبدياً .. وأن الخير أو الشر يتحولان إلى مادة خام لميلاد جديد سواء كان هذا الميلاد انبعاثة خير أو انبثاقة شر.

وبوسع علماء الحضارة أن يقدموا نماذج عديدة تبين بوضوح أن "الخمر العتيقة" لا يمكن أن تذوب دون أن تدخل في صنع مآدب حضارية جديدة تماماً كالجسم الميت الذي يدخل في أجسام أخرى حية يمنحها من طاقته الذاهبة طاقات جديدة مندفعة للحياة والإبداع، وكما يأكل الإنسان لحوم الدواجن والحيوانات الأخرى الحلال والأسماك .. ثم يتحول هو يوما إلى طعام يسهم في إحياء حيوانات أخرى. أو في منح الأرض بعض المواد الكيماوية والحضارات تمر بنفس الطريق الدائري الخالد . فأثينا برقيها الفلسفي والأدبي تتحول إلى خميرة حضارة لروما والحضارة الأوربية تقوم على خميرة الحضارة الإسلامية وبقايا الحضارات الرومانية.

وعندما زرع أحمد بن طولون منشئ الدولة الطولونية أولى بذور الحركات الانفصالية في مصر عن الخلافة العباسية الجامعة والأم، بدأت بزرعه لهذه البذرة الخبيثة بذور الانفصام تدب في نفوس قوى كثيرة جياشة بالفوضى زاخرة بالطموح الشخصي، ناقمة على قيادة العباسيين . الجامعة . متأثرة بعوامل قومية من تلك العوامل التي تدمر روح الحضارة وتبشر بمستقبل ضائع ميت لقد كانت دولة ابن طولون مثالا لكثير من الدويلات التي شذت على الخلافة، وشيدت أبنيتها المتداعية على أنقاض الخلافة، ولم يعد لكثير منها علاقة بالخلافة أكثر من الاعتراف بسلطة الخليفة الاسمية.

وبعد السقوط المتوقع لهذه الدولة عادت مصر وسورية إلى حكم العباسيين، بيد أن بذرة الانفصال - كما ذكرنا - كانت قد زرعت في نفوس قوى كثيرة، جائشة بالفوضى فوارة بالنوازع القومية الوثنية فما كادت دولة ابن طولون تموت حتى حلت محلها بعد برهة زمنية قصيرة - في مصر - دولة الإخشيديين التي أسسها "محمد بن طغج" والتي عاشت آيلة للسقوط بين سنوات (٣٢٣ - ٣٥٨هـ) (٩٣٥ - ٩٦٩م).

وكانت بداية الدولة نظيرة لنفس البداية التي انطلقت منها الدولة الطولونية ، فمحمد ابن طغج وكل إليه من قبل الخلافة العباسية أمر مصر لتنظيم أحوالها فنظم أحوالها لنفسه واستقل بالأمر، واستولى على سورية وفلسطين وضم مكة والمدينة إلى دولته.

وبموت ابن طغج حكم بعده ابنان له صغيران لم يكن لهما من الحكم إلا اسمه وكانت مقاليد الأمور في الحقيقة منوطة بيد عبد خصي حبشي يدعى "كافور" "أبا المسك" - كان ابن طغج الذي لقب بالإخشيد - قد اشتراه من تاجر زيت بثمانية دنانير .

وقد استقل هذا العبد الحبشي بإدارة مصر .. (وكانت له مع شاعر العصر أبي الطيب المتنبي قصص مشهورة) كما أن هذا العبد الخصي نافس دولة الحمدانيين التي ظهرت في شمال سورية.

وعبر خمسة حكام ضعاف باستثناء أولهم محمد بن طغج - مشت الدولة مسرعة في طريقها إلى الموت المحقق .. فلم يكن الحاكمان التاليان لمؤسسي الدولة إلا تابعين لكافور - كما ذكرنا - وبموت كافور وتولي (أبي الفوارس أحمد) سقطت الدولة سقوطاً مروعاً على يد جوهر الصقلي قائد

المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ.

ولم يقدر لهذه الدولة أن تخلف شيئاً يذكر من المآثر العامة، كما أن الحياة الأدبية والفنية لم تكن ذات بال فيها، ولم يظهر كلمعة الشمس المتوهجة إلا ذلك الضيف الباحث عن فضلة من كأس الحكم .. يدعم بها غروره الشعري وتفوقه الجدير بالتقدير في ميدان الكلمة المسيطرة الآمرة!! وعندما ضن عليه كافور بفضلة الكأس هرب من مصر دون "تأشيرة خروج" ولقي حتفه جزاء له .. بعد أن ترك حقده على السلطة ممثلا في أشهر أبياته:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

مريداً بذلك أشهر حكام الدولة الإخشيدية "كافور".

ولو لم يصل جوهر إلى حدود مصر لسقطت الدولة الإخشيدية بفعل عامل آخر، فعندما لا يكون هناك مبرر للوجود لا يكون ثمة مبرر للبقاء .. ولا تفعل القوى الخارجية التي تسيطر على الأمم والشعوب سوى أن تتقدم في فراغ دون أن تصطدم بجدران حضارية أو صخور قوية راسخة بالعقيدة " بمبرر الوجود . ومؤهل البقاء"!

سقوط السامانيين في فارس:

كما لا تلد الطفرات غير الطبيعية إلا طفرات مضادة اندفاعية – هكذا تحولت أرض خراسان – منذ أن ابتدع فيها سنة الانفصال عن العباسيين بنو طاهر، ولئن كان بنو طاهر قد أفلتوا من العقاب المضاد، لأنهم لم يكونوا حركة ثورية عنيفة، وإنما كانت انفصالاً هادئاً في حدود السلطة الرسمية

المشـروعة، سلطة الخلافة العباسية الأم لئن كان هذا قد تم لهم . فـإن الأمور قد استفحلت من بعدهم .. وأصبح الشذوذ هو القاعدة .. وانقلبـت الأرض الخراسانية إلى أرض للثورات المذهبية والجنسية .. ولعـل هـذا كـان من أكبر عوامل القضـاء عـلى الـدور التـاريخي الـذي كـان يمكـن أن يلعبـه الخراساني في صنع الحضارة الإسلامية الإنسانية.

فحيثما حل العنف واللامشروعية وانساقت الجماهير دون تعقل خلف رايات متعددة، وخلف كلـمات مبهمـة فقـدت بالتـالي قـدرتها عـلى الرؤيـة .وقدرتها على العطاء الحضاري. أصبحت لعبة في يد كل ناعق سواء كـان ذا صوت طبيعي أو مصطنع.

وهكذا شرب الطاهريون الانفصاليون من نفس الكأس التي أذاقوهـا للعباسيين، فقام الصـفاريون علـيهم. واسـتولوا عـلى حكـم خراسـان سـنة ٢٦١هـ بقيادة يعقوب ابن الليث الصفاري.

وكان بنو سامان الذين يرجع نسبهم إلى سامان أحد نبلاء "بلـخ" قـد نشأوا عمالاً مسلمين لبني طاهر. ثم لم يلبثـوا أن اسـتأثروا بفـارس ومـا وراء النهـر مـن ٨٧٤ هـــ إلى سـنة ٩٩٩م وكـان ذلـك عـلى أشـلاء الانقلابيـين الانفصاليين: الطاهريين والصـفاريين .. وكـان مؤسـس دولـتهم الأول هـو نصر بن أحمد، إلا أن موطد الدولة هو إسماعيل الذي قدر له أن يهزم يعقوب بن الليث الزعيم الصفاري وأن يصيبه بجروح قاتلة.

وفي عهد ملكهم نصر الثاني بن أحمد (٩١٣ - ٩٤٣) وهو الرابع من ملوكهم، وسعوا ملكهم إلى أعظم حدود وصلوا إليها، فاستولوا على سجستان وكرمان وجرجان وما وراء النهر وخراسان وتمتعوا بسلطة مستقلة، وإن كانوا لم يقطعوا الصلة الرسمية الإسلامية بالخليفة العباسي في بغداد.

وقد قدمت هذه الدولة بعض مظاهر التقدم العلمي والأدبي سواء من ناحية اللغة أو الأدب شعراً ونثراً .. وكانت النهضة الفارسية فيها أبرز من النهضة العربية من ناحية فكرها وطابعها العام باعتبارها دولة فارسية، ففيها ظهر الرازي الشهير، وقدم كتابه المنصوري في الطب إلى أحد ملوكها وكان ابن سينا أحد المترددين على مكتبات بخارى عامة الدولة ووضع الفردوسي أشعاره بالفارسية لأمرائها.

على أن أسلوب الطفرات غير الطبيعية التي لا بد لها أن تلد طفرات مضادة انفعالية، لم يلبث أن ظهر كقانون حضاري لا بد له من أن يؤدي دوره مع الدولة السامانية، كما أداه مع الطاهريين ومع الصفاريين، ومع الطولونيين والإخشيد ، فلم تنج الدولة بالتالي من عناصر التهديم والفوضى التي قضت على ما سواها من الحركات الانقلابية في ذلك العصر.

وبالإضافة إلى المشاكل الخارجية التي كانت تسببها الخلافة للدولة كلما أتيح لها ذلك، وفضلاً عن سرعة توالي الأمراء على الحكم بتأثير الصراع الداخلي بين الأسرة الحاكمة، وبتأثير مطامع الكبراء العسكريين الذي يظنون

أنفسهم أولى بالحكم لأنه لا يوجد من يفوقهم في حكم البلاد، فكلهم أصحاب حق في مغانم الانقلاب الانفصالي.

بالإضافة إلى هذا وذاك ظهر خطر جديد يهدد كيان السامانيين ويؤذن بأفول شمسهم ولقد بدا أنهم يكادون يشربون من نفس ما أذاقوه للخلافة .تماما كما شرب غيرهم من الانفصاليين.

وقد ظهرت القبائل التركية البدوية .. وارتفع نجمها في الدولة، وسيطرت على الشئون الداخلية للدولة، وتحولت القوة تدريجياً من أيدي السامانيين إلى أيدي الأتراك الموالي .. وحتى قصورهم كان الأتراك يتمتعون بنفوذ كبير فيها.

وقد نجح الغزنويون الذين كانوا من الموالي الأتراك في انتزاع الجنوب، كما وقعت المنطقة الشمالية من نهر جيحون في أيدي خانات تركستان "الايلاق" الذي قدر لهم أن يستولوا على عاصمة السامانيين "بخارى" ثم لم يلبثوا - بعد تسع سنوات - أن التهموا الدولة السامانية!!.

ولم تكن الدولة السامانية أكثر من حركة قومية غرقت في إحياء تراثها الخاص، كما أنها لم تكن أكثر من حركة انقلابية قامت بأسلوب الطفرة غير الطبيعية وانتهت كذلك بأسلوب الطفرة غير الطبيعية سنة ٣٠٨هـ بعد أن عاشت في ظل حماية (ضعف الخلافة) قرناً من الزمان!!

البويهيون الذين سطوا على الخلافة يسقطون !!

بينما كانت الدولة العباسية تستجمع قواها وتلتقط أنفاسها بعد تخلصها من حركات الانشقاق في خراسان ومصر ـ أخريات القرن الثالث للهجرة، بينما هذا كانت الدولة تنتقل بسرعة لتدخل في طور جديد ذي معالم جديدة لم تشهدها من قبل .. وبدخولها هذا الطور شهدت انفصالاً ضخماً بين رأسها وجسدها ظل هو السمة العامة المسيطرة عليها لحين زوالها رسمياً من محاضر التاريخ سنة ٦٥٦هـ .

إن الأمر لم يكن مجرد حركة انشقاق هذه المرة، كما أنه لم يكن مجرد الاستئثار بحكم جزء من الدولة، مع رفع راية الدولة، كما أنه لم يكن ثورة انفعالية مذهبية أو سياسية لقد كان الأمر أعمق من ذلك بكثير لقد كان أسلوباً جديداً في التعامل مع الدولة العباسية الجامعة لقد كان احتواء لها أو بتعبير آخر سيطرة عليها وفرض نوع من الوصاية على خليفتها ولأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية نرى بعض الخلفاء – على نحو واضح وعنيف – لعبة في يد بعض المغامرين، ونرى بعض الخلفاء يعزلون ويولون دون أن يكون لهم من الأمر شيء .. يفعل باسمهم كل شيء ويخطب لهم على كل منبر وتعلن باسمهم الحروب التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل وليس هذا وحسب . بل لأول مرة تصبح الخلافة عبثاً يهرب منه الخلفاء .وينأى عنه المحترمون لأنفسهم لأن مصير الخليفة غالباً الجر من قدميه أو الجوع الشديد ..

وبدأ العالم الإسلامي يترنح منذ هذا الحدث الضخم الذي انفصل فيـه رأس الأمة عن جسدها.

وقد حمل كبر هذا الأمر الخطير، الأتراك من الجند الذين كانوا يمـرون آخر القرن الثالث فترة تمزق داخلي، وانقلاب ضد الخلفاء الـذين أتـوا بهـم، بادئ الأمر لحمايتهم منذ أن انتشرت هذه السنة السيئة.

فلما وصل (أحمد بن بويه) المؤسس الحقيقي للدولة البويهيـة (٣٣٤ – ٤٤٧) إلى بغداد، بعد أن كاتب الخليفة المستكفي، ووافق الأخير على دخوله بغداد فدخلها في يسر ودون مشقة وفتحت له أبواب بغداد، واستقبله الخليفة (المستكفي) ولقبه معز الدولة وفرح الناس بـه لينقـذهم مـن الفـوضى التـي أحدثها الجند الأتراك في جهاز الدولة وبين الشعب.

لما تم هذا الدخول وتحولت به الدولة إلى حماية البويهيين الرسمية، بعد أن كان خضوعها للأتراك مجـرد نشـاز أو انقـلاب في داخـل السـلطة يعتقـد الناس أنه طارئ لا بد أن يزول.

لما تم هذا كانت الخلفية التاريخيـة في ذهـن البـويهيين واضـحة، وكـان دخولهم بغداد بمثابة تقلد صريح لقيادة الخلافـة .. وقيـادة المسـلمين . وقـد فهم الخلفاء أنفسهم هذا فلم يحاولوا منافسة البـويهيين في السـلطة التنفيذيـة أو السياسية .

بيد أن الأمر لم يقف عند هذه الحدود بالنسبة للبويهيي، فلقد تمـادوا في الأمر، وقد زعموا لأنفسهم نسباً ساسانياً فارسياً، وبـما أنهـم كـانوا يعتنقـون المذهب الشيعي الزيدي .. فقد حاولوا فرض المناخ الشيعي على الناس، بل

إن أحمد بن بويه المذكور حاول تغيير الخلافة العباسية إلى خلافة شيعية لولا نصيحة أصحابه له بأن يتجنب ذلك خشية العواق.

ولم يعد للخليفة في ظلهم حتى حق تعيين كتابه ووزرائه، وقد منع وارد الخليفة عنه، ولم يعد يصله إلا مرتب شهري استبدل به مرتب سنوي .. ثم اقتطع منه بعد ذلك بحجج واهية، وقد بلغ إذلال بعض الخلفاء مبلغه المستكفي عن الخلافة وعزل الخليفة الطائع وعزل غيرهما، وقد عزل المطيع لله نفسه بعد أن رأى أنه لا قيمة له!!

وقد وقع البويهيون فيما وقع فيه الأتراك ، فقد أحدثوا الفوضى في البلاد وصادروا الأموال، ودخلوا مع الناس في صراع عنيف من أجل الحصول على الأموال.

وخلال أكثر من قرن ظل البويهيون يسيطرون على خلافة العباسيين، ولم يفعلوا فيها شيئاً ذا بال سوى أن يضيفوا إلى صورة الجند الأتراك مزيداً من ملامح الطيش والرعونة.

وكما هي العادة في أمثال هذه الأسر المتسلطة . أنها سريعة الانقسام على نفسها شديدة التنافس فيما بينها، وهكذا سقطت الأسرة البويهية إلى حضيض الانقسام والتناطح الداخلي.. وعانى المسلمون من وراء تناطحهم وتسلطهم الشيء الكثير.

إن سيطرة عنصر من العناصر المتعصبة قوميا أو المتأثرة بخلفية تاريخية لم تتخلص من شوائبها هو أبرز ما واجه ركب مسيرتنا الحضارية والتاريخية.

وبالقوميـة المتعصـبة وبأصـحاب النزعـات المشـبوهة وذوي الـولاء لحضارات معاكسة لنا ولخطنا الحضاري، بهؤلاء تمت عملية سقوطنا المتكـرر في مراحل تاريخنا.

لكن تاريخنا الذي تتدخل فيه إرادة الله بحفـظ هـذا الـدين كـي يظـل المعلم الثابت المضيء في ليل البشرية الطويل المظلم.

هذا التاريخ يجد مع كل نكبـة تاريخيـة، أو فـترة مـن فـترات التـداعي والهبوط، من يعيد إلى الجسم حيويته ويمنـع عنـه السـقوط القاتـل وهكـذا انبعث – من جديد – من بين الأتراك أنفسهم عنصر إسلامي مجاهـد . أعـاد للخلافة شبابها، ونجح قائد الأتراك السلاجقة "طغرلبك" سنة ٤٤٧ هـ في أن يقضي على دولة البويهيين.

وبين عشية وضحاها سقط البويهيون الذين أثبت تـاريخهم أنهـم غـير أهل لتحمل أمانات التاريخ .. وقد تعبت الأمـة مـن جـراء سياسـتهم أشـد التعب .. لأن التاريخ يعلمنا دائماً أنـه "بانفصـال رأس الأمـة عـن جسـدها تتعطل طاقات الحياة فيها" .

سقوط الانفصاليين في طبرستان:

في كل دولة جامعة كالدولة العباسية، يمكن لأي راغب في السلطة أن يجد مندوحة للقيام بثورة ولرفع راية الانفصال، وإقامة حكم ذاتي له ولأبنائه.

فثمة قوميات مختلفة من السهل استجاشة عواطف كل منهـا القوميـة وثمة أوطان مختلفة من السهل الضرب على وتر الاستقلال ودعـوى الحريـة الذاتية فيها.

وثمة عقائد مختلفة.سواء عقائـد مخالفـة تمامـاً، أو عقائـد منشـقة عـلى العقيدة الأصل، وبالتالي يمكـن الضربـب عـلى وتـر مـن ينضـمون إلى هـذه العقيدة المضادة أو المنشقة، من أجل سـيطرة العقيـدة المضـادة عـلى العقيـدة الأصل.

وثمة لافتات أخرى كثيرة يمكن أن يجد فيها كـل راغـب في التمـرد – التبرير الذي يسهل له أمام الجماهير – لاسيما الغوغاء الذين يجرون وراء كـل ناعق بدون وعي – عملية الثورة والانفصال .. وكانت هذه أكبر التحـديات التي واجهت الدولة العباسية الجامعة.

وكان طابع الانفصال في طبرستان وبلاد اليمن مختلفـاً عـن محـاولات الاستقلال بالسلطة فقط، كان يحمل بذرة الانشـقاق الروحـي عـن الخلافـة العباسية .. كان يحمل بـين يديـه دعـوى آل البيـت والـترويج لأحقيـتهم في الخلافة.

وفي طبرستان في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ضـغط عـلى الفلاحين الإقطاع المتزايد، وقد أقطع الخليفة العباسي محمد بـن عبـد الله بـن طاهر – حاكم بغداد – أراضي في طبرستان لم تكفـه، فقـام بوضـع يـده عـلى الأراضي المجاورة له، مما جعل الفلاحين يضجون من ذلك.

وقد استغل بعضهم هذه الفرصة، فقاموا بإعلان الثورة عـلى الإقطـاع ووعدوا السكان برفع الإجحاف والظلم وفي سنة ٢٥٠هـ وبالتحديد – قـام الحسن بن زيد بإعلان ثورته وجمع حوله عددا كبيراً من الفلاحين، واسـتولى على طبرستان وجرجان، ونجح في إقامة إمارة مستقلة باسمه – وظلت

دولته قائمة حتى سنة ٢٨٧هـ حين ظهر السامانيون فأزاحوها – بسهولة –عن المنطقة كلها.

ومع ذلك ظلت هذه الدعوة الشعار المسكين أو قميص عثمان الذي يتمسح فيه الراغبون في السلطة وهم يصلون إلى أغراضهم عن طريق رفع رايات مختلفة بحسب الظروف ليكن الشعار القضاء على الاستغلال، أو محاربة الإقطاع المهم الوصول إلى الغاية.

ولم يمض إلا قليل أربعة عشر عاماً فقط .. حتى ظهر متمسح جديد في آل البيت !! ومن الغريب أن هذا الثائر الجديد "حسن بن علي الأطروش" الذي لقب نفسه "بناصر الحق" سار على نفس الطريق الذي سارت فيه الحركة السابقة التي تزعمها الحسن بن زيد .. فقد قام في طبرستان . وقد رفع شعار "القضاء على الإقطاع" وأبرز سلاح آل البيت، وكما هو المرتقب، التف حوله الفلاحون ..ونجح في الوصول إلى السلطة.

وكما هو المنتظر كذلك، لم تلبث هذه الحركة على مسرح السلطة في طبرستان أكثر من ثلاثة عشر عاماً (٣٠١ – ٣١٤هـ) وانكشفت حقيقتها ولقيت حتفها بفعل عاصفة "الزياريين" الذين أطاحوا بحكم الأطروش، وحكموا جرجان وطبرستان بين أعوام (٣١٥ – ٤١٧هـ) ثم زالوا كما زال غيرهم.

وفي جنوبي الجزيرة العربية ظهرت دعوة الزيديين رافعة راية آل البيت، متمسحة في شعار القضاء على الإقطاع . وقد نجح يحيى بن الحسين من أحفاد القاسم الرسي أحد كبار علماء المذهب الزيدي في إقامة حكم لنفسه

متخذاً من (صعدة) عاصمة له. وقد حكمت الدولة الزيدية مدة طويلة بلغت قريباً من أربعة قرون ونصف. واعتمدت هذه الدولة في تكوينها على أسس أكثر أصالة من مجرد "القضاء على الإقطاع" وبذا حققت لنفسها انتصاراً وشهرةً كبيرة على امتداد العالم الإسلامي .. وكانت في الحق من الحركات الممتازة في التاريخ الإسلامي.

وأياً كان الأمر، فقد كان شعار "القضاء على الإقطاع" قميص عثمان الذي تمسحت فيه دول كثيرة وحركات أكثر .. ولم تتضح الرؤية عند هذه الحركات أو تلك الدول إلا أن تحقيق علاج اقتصادي مؤقت لا يكفي لإقامة دولة، فضلاً عن أن ينشئ حضارة لا تضيف جديدا لموكب البشرية.

إن حجم العلاج لا بد أن يكون مساوياً لحجم المرض. كما أن من الضروري أن تكون نوعية الدواء مناسبة لنوعية المرض أما علاج ظاهرة اقتصادية بالوصول على قمة السلطة السياسية .. فهو جرعة كبيرة من العلاج قد تكفي للقتل والموت.

ومن هنا أخفقت كل الحركات الزاعمة القضاء على الإقطاع، لأنها بعد أن نجحت، أو أصدرت قرارها بإصلاح الوضع الاقتصادي - إذا حدث - تجد نفسها في فراغ، وتجد أن مبرر وجودها قد انتهى ولم يعد ثمة ما وجب الاستمرار والبقاء.

قصة سقوط الحمدانيين:

من "تغلب" - إحدى قبائل العرب الكبرى - انبثقت دولة بني حمدان، جاعلة من الموصل - أول الأمر - عاصمة لها وكان ذلك سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) على يد زعيم الدولة حمدان بن حمدون.

كـان عـلى هـذه الدولـة الناشـئة أن تلعـب دوراً مصـيرياً في عـدة جبهات:

في محاولة تضميد جروح الدولة العباسـية مـن الطعنـات المتتاليـة مـن الأتراك الذين استبدوا بها، وحولوا خلفاءها إلى دمى للتسلية واللهو وأيضـاً من الطعنات الانفصالية التي تصيب الدولة من كل صوب.

في مقاومة الغـارات البيزنطيـة التـي يقودهـا الإمبراطـور الرومـاني (شميشق) رغبة في الاسـتيلاء عـلى بيـت المقـدس، وفي مقاومـة الإمبراطـور البيزنطي "نقفور فوقـاس" الـذي حـاول بكـل قوتـه السـيطرة عـلى حلـب والثغور المتاخمة لحدود الدولة الرومانية في مقاومة الحركـة الانفصـالية التـي تحكم مصـر الإخشيدية، وتريد فرض سيطرة كاملة على مصرـ وبـلاد الشـام والحجاز، وتناوئ بالتالي أية حركة انفصالية أخرى تحـاول بنـاء نفسـها عـلى حسابها.

لقد نجح الحسن بن عبد الله الحمداني في أن يشل نفوذ الترك. وأن ينقذ الخليفة العباسي المتقي بالله من استبداد الأتراك به، وقد رضي الخليفة العباسي عن صنيعه ومنحه لقب أمير الأمراء ومـنح أخـاه المرافـق لـه لقـب "سـيف الدولة " لكنهما سرعان ما هزما أمام الأتراك وخرجا مـن بغـداد عائـدين إلى عاصمتهما الموصل سنة ٣٣١هـ" ٩٤٢م ". ولما تولى سيف الدولة – وكـان شجاعاً كريماً – قام بعدة غارات لصد البيزنطيين، ونجح في أن يطردهم مـن المناطق التي تسللوا إليها ، وواصل زحفه حتى دخل بلادهم واستولى على

بعض حصونهم . والمهم، زرع هيبته في نفوسهم . وجدد شباب الإرادة القتالية، ولم تستطع بيزنطة أن تمد نفوذها إلى بلاد الشام وفلسطين.

وفي الجانب الإخشيدي استمر الحمدانيون في مقاتلتهم تتبع نفوذهم، لكنهم أيام سيف الدولة خسروا أمامهم معركة في قنسرين .. وانتهى الأمر بصلح وضع حدود الصراع المستمر بين جبهتيهما.

كانت هذه هي التحديات التي واجهتها دولة الحمدانيين . وقد نجحت الدولة في بعضها وأخفقت في أكثرها، ولقد بدا سيف الدولة الحمداني .. وكأنه الرجل الوحيد الممثل لهذه الدولة.

كان سيف الدولة بحق يملك أكبر رصيد من أمجاد الدولة .. ولم يرفعه في سجل التاريخ ما قام به من حروب خارجية وحسب، بل كانت له في مجال الحضارة والعمران الداخلي مجالات برز فيها أكثر من بروزه في المجالات الخارجية.

ولقد يبدو سيف الدولة في أعين كثير من المؤرخين وكأنه هارون الرشيد أو المأمون، وإنه ليعيد إلى الأذهان ذكرى تلك الساحة العلمية الفكرية التي مثلتها بغداد .. في عصرها الذهبي .. لكن الساحة كانت على عهده .. حلب الشهباء!!

كان سيف الدولة – الذي احتضن المتنبي وأبا الفرج الأصفهاني والفارابي وابن نباتة فضلاً عن أبي فراس الحمداني " شاعر الدولة " – كان هذا الرجل يمثل قوة الدولة وقمة ما وصلت إليه من رفعة. وظهرت الدولة بعده وكأنها بناء مائل للسقوط.

وقد تولى الحكم بعد وفاة سيف الدولة ثلاثة خلفاء ضعاف حتى زالت في عهد أبي المعالي شريف سنة ٣٩٤هـ . أي أنها لم تعش بعد سيف الدولة الذي مات سنة ٣٥٦هـ أكثر من أربعين سنة!!.

لقد تمثلت قوة الدولة الحمدانية في شخص، وكعادة الدول التي ترتبط بأشخاص تسقط بسقوطهم وكان أكبر عامل حضاري زحزح الدولة الحمدانية عن مكانتها في التاريخ أنها فشلت في الاستجابة للتحدي الذي كان أقوى منها، ولم تنهج النهج السليم في مقاومته .. عن طريق إيجاد وحدة إسلامية تتجاوز الصراعات الجزئية لتواجه الخطر الحضاري الكبير .. وعندما تفشل دولة في الاستجابة للتحدي الذي يفرضه القدر عليها .. فإنها، وإن قاومت قليلاً، فإنها لا بد أن تسقط من قطار التاريخ.

السلاجقة الذين أنقذوا الخلافة يسقطون:

في تركستان - بدولة الاستعمار السوفيتي - نشأت هذه الأسرة .. ولظروف ما هاجرت هذه الأسرة بقيادة كبيرها "سلجوق" الذي تنسب الأسرة إليه وبين خراسان، وبخارى، وأصبهان، تراوحت إقامتها حتى استقرت بمرو حيث هاجمها السلطان الغزنوي مسعود ولكنه هزم أمامها .وأصبحت الخطبة تلقى بمرو باسم داود السلجوقي نجل سلجوق الكبير ، وكان هذا في سنة ٤٣٣هـ .

ومن مرو انتشر سلطان السلاجقة إلى الري وإلى خوارزم، وبدأ تاريخهم يظهر كقوة لها كيانها المستقل في العالم الإسلامي خلال القرن الخامس للهجرة.

وقد نجحوا في السيطرة على بلاد كثيرة . كخراسان وأصبهان وهمذان وبخارى، وامتد نفوذهم حتى العراق. والتحموا بالدولة العباسية، ثم أتيحت لهم فرصة ذهبية. إذ استنصر بهم الخليفة العباسي "القائم" ضد ثائر شيعي يدعى "البساسيري" عجزت الخلافة العباسية عن مقاومته، فأسرعوا إلى انتهاز الفرصة التاريخية ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد منتصراً على البساسيري سنة ٤٤٧هـ وكان هذا العام حدا فاصلا في تاريخ السلاجقة إذ اعتبر بداية عصر نفوذ السلاجقة وسيطرتهم على مصير الخلافة العباسية الكبرى.

امتاز السلاجقة الأتراك في معاملاتهم بالتدين، وكانوا مظهراً للإنسان الفطري الذي هذبه الإسلام، وإذا ما استثنينا صوراً قليلة تحتمها الطبيعة البشرية التي لا تخلو من بعض القصور، فإن هؤلاء السادة كانوا نموذجاً طيباً حتى في معاملتهم للخليفة العباسي الذي حفظوا له عرشه . إنهم لم يكونوا كالذين انتصر بهم المعتصم، ولم يكونوا كالبويهيين حينما سيطروا على الخلافة وأذلوا كبرياء الخلفاء أبداً لقد احترموا الخلفاء وأجلوهم ، وكان لهم – كذلك – فضل كبير في رفع راية الإسلام ، وفي مد عمر الخلافة العباسية أكثر من قرنين من الزمان، كما أنهم بدأوا مرحلة جديدة من التوسع الإسلامي في اتجاه آسيا الصغرى، ويقال إن هذا التوسع كان أحد أسباب قيام الحروب الصليبية.

ومن الظواهر المتعلقة بسياسة هؤلاء القوم الاجتماعية والفكرية . إلغاء أشهر ملوكهم "ألب أرسلان" لنظام المخابرات ولجوء أحد ملوكهم "نظام الملك" إلى نظام الإقطاع .. بإعطاء الشخصيات السلجوقية والشخصيات الأخرى الكبرى إقطاعات أو "أتابكيات" لحسابها الخاص. ومن الظواهر كذلك الحملات الجهادية شبه المنتظمة التي كانت خير علاج للفوضى الداخلية كذلك من الظواهر صراع السلاجقة المستمر ضد حركات الإسماعيلية، ونجاحهم في تقليم أظفارهم.

وبعد صفحة تاريخية رائعة من صفحات الحضارة الإسلامية امتدت بين سنوات ٤٣٣ - ٦١٩) قدر للسلاجقة أن يأفل نجمهم وأن تغرب شمسهم بعد أن حكم منهم واحد وثلاثون زعيماً سلجوقياً، وبعد أن قدموا للخلافة الإسلامية الكبرى أجل الخدمات وحموها من كثير من عثرات السقوط، وقدموا للحضارة الإسلامية يداً من أروع ما قدمت الدول الإسلامية من أياد.

بيد أن السلاجقة، وقعوا، وهم يسيرون في الطريق، في أخطاء ظنوها خيراً فانقلبت على دولتهم شراً.

لقد لجأ السلاجقة - كما ذكرنا - إلى نظام الإقطاعات وأسندوا معظمها إلى شخصيات سلجوقية، وقد حسبوا أن هذا من شأنه أن يشغل السلاجقة عن التفكير في الحكم، وأن يرضيهم بالبعد عن السلطة، لكن الإقطاعيين السلاجقة سرعان ما حاول كل منهم أن يكون لنفسه من

إقطاعاته إمارة صغيرة حاولت كل منها الانفصال عن السلطة وهو عكس ما كان يهدف إليه السلاجقة الحكام، وقد أدى هذا إلى تفكك وحدة السلاجقة وإلى إجهاد السلطة السياسية الحاكمة، وإلى توزع الدول بين عديد من الأمراء.

كما أن هذا الخطأ أدى إلى عدول السلاجقة عن طريقة اختيار زعمائهم القديمة التي كانت تعتمد على الكفاءة .. إلى طريقة جعل الزعامة وراثية . نظراً لكثرة تنازع أمراء الإقطاعيات عليها.

ومن المضاعفات كذلك تهاون السلاجقة – في ظل تفككهم – أمام حركات التمرد الباطنية لا سيما الحركة الإسماعيلية بزعامة قائدها الحسن الصباح .. وقد قدر لهذه الحركة أن تستنفذ طاقة كبرى من طاقات السلاجقة التي كان في الإمكان استخدامها في القضاء على حركات التفكك التي أصيبت بها الدولة أو الزعامة السلجوقية للخلافة العباسية.

وتبقى كلمة التاريخ الموحية: فإن السلطة غير الحازمة، والتي تقبل التهاون في وحدة الدول إرضاء لبعض العناصر أو الشخصيات .. هذه السلطة ستدفع ثمن تهاونها يوماً.

إن عقال بعير يمنع من الحاكم – بغير حق – هو انتقاص لسيادة الدولة . هكذا فهم أبو بكر رضي الله عنه الأمور . وبهذا نجح في القضاء على المتمردين.

وهكذا كان يجب أن يفهم السلاجقة وغيرهم من زعماء الدول .الـذين يقبلون نصف الحكم أو شيئاً من الحكم دون وعي منهم بأن سيادة الدولة لا تتجزأ، وبأن أنصاف الحلول أو أرباعها مقدمة طبيعية لزوال الحكم كله.

هكذا علمنا تاريخنا الإسلامي العظيم.

سقوط دولة الفاطميين:

حين تستعين بعدوك التاريخي وتفقد القدرة على الرؤية الصحيحة . فلا ضير في أن تموت . فأنت ـ في البدء ـ إنسان منتحر .. !!

والتسامح قضية كبرى من قضايا حضارتنا، ومبدأ عظيم من مبادئ إسلامنا، لكن هذا التسامح ـ بترك الناس يحيون وفق معتقداتهم ـ شيء ، وتسليمك مقاليد الأمور لهذا الذي ينتمي روحيا إلى أعدائك، ويشعر بتعاطف نحو من تحارب، وتقل حضانته ـ مهما يكن ـ عن أخيك المسلم .تسليمك هذا شيء آخر بعيد عن التسامح .. إنه نوع من الغفلة والحماقة .. أو بتعبير آخر نوع من الانتحار!!

وفي الدولة الفاطمية التي قامت في المغرب العربي سنة ٢٩٨هـ وانتقلت قيادتها إلى مصر سنة ٣٦٢هـ .. كانت ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى سمة من سمات الحكم في الدولة، فمن هؤلاء كان كثير من الوزراء وجباة الضرائب والزكاة، والمستشارين في شؤون السياسة والاقتصاد والعلم، ومنهم الأطباء والثقات لدى الحكام، وإليهم تحال معظم الأعمال الجسام.

ولقد أحدثت هذه الظروف انفصاماً بين الفاطميين والشعب - إلى جانب عوامل أخرى هامة - حتى لقد كان الناس يستجيرون من تسلط اليهود في البلاد فلا يجارون، وقد ظهرت في ذلك أشعار كثيرة معروفة، بل إن الناس قد اضطروا إلى أن يلفتوا نظر العزيز (الحاكم الثاني في مصر) إلى هذه الظاهرة التي كان يبدي تغافلاً عنها، وقد وضعوا له صورة من الورق لرجل يطلب حاجة أثناء مرور موكبه .. وقد مد الرجل يداً بورقة مكتوب فيها: "بالذي أعز اليهود بمنشا، وأعز النصارى بعيسى، وأذل المسلمين بك إلا ما قضيت ظلامتي "وقد لمعت في سماء الدولة الفاطمية أسماء كثيرة من هؤلاء، فقد لمع يعقوب بن كلس (وسنورد تفصيلاً عنه بعد)، ومنصور بن مقشر النصراني الطبيب صاحب الكلمة السامية في قصر العزيز، وعيسى بن نسطورس الكاتب، والمنجم ابن علي عيسى، ويحين بن وشم الكواهي، ومنشا اليهودي الذي كان نائب العزيز في الشام وغيرهم كثير. وعندما وصل الحاكم بأمر الله إلى الحكم .. وهو رجل أجمع المؤرخون على اضطراب عقله حتى أنه كان يأمر بالشيء وينهى عنه - أمر بهدم الكنائس التي بمصر، لكنه سرعان ما عاد فأمر ببنائها، وأطلق من جديد يد اليهود في البلاد، واستمر أمر اليهود والنصارى في عهد الظاهر، وعندما قدر للحاكم الفاطمي السادس في مصر "المستنصر بن علي الظاهر" أن يصل إلى الحكم سنة ٤٢٧هـ كانت الحالة قد بلغت قمتها من التدهور. وفي ظل سياسة اليهود وتحكمهم في مرافق البلاد أصبح قصر هذا الحاكم زاخراً بالدسائس التي يحيكها القواد ورجال البلاط والخصيان والنساء، ويقف وراء كل هؤلاء هذه الطوائف يديرون المعارك لصالحهم، ويرقبون الفائز، ويفسحون في شقة الخلاف.

وقد ذاقت البلاد من الجوع والبؤس والنزاع على السلطة ما أحالها إلى فوضى لم يشهد تاريخ مصر مثلها. وقد صور المقريزي هذه الحالة في قوله : "لم تجد البلاد صلاحاً ولا استقام لها أمر، وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقر عليها وزير تحمد طريقته .. " على آخر كلامه الطويل الذي قال في آخره بأنه: "تلاشت الأمور واضمحل الملك" وقد فكر ابن حمدان زعيم الأتراك في مصر في تغيير الخلافة الفاطمية إلى العباسية ، وكانت حال البلاد والفاطميين تسمح بتحقيق كل ذلك .. لولا سوء سياسة ابن حمدان لأتباعه وانقلابهم عليه وفي هذه السنوات أكل الناس بعضهم بعضاً، وبيع الرغيف بمائة دينار، وأكل الناس لحوم الكلاب والحمير، ولم ينته الأمر إلا بسقوط الدولة الفاطمية السقوط الحقيقي حين ترك حكامها السلطة تماماً وقبعوا في قصورهم ، وحمل أمانة الحكم الوزراء العظام الذين كان أولهم وأعظمهم "بدر الجمالي ".

وقد أصبح بيد هؤلاء الوزراء كل مقاليد الأمور حتى أنهم لم يدعوا للخلافة ولا للخليفة في أغلب الأوقات إلا بالاسم ، وكانوا يتحكمون في اختيار الخلفاء وفي عزلهم ، والمؤرخون المنصفون يعتبرون سقوط الدولة هو تاريخ تولية بدر الجمالي أمور مصر سنة ٤٦٤هـ . ولم يفعل صلاح الدين الأيوبي حين أسقط الخطبة للفاطميين دون أية معارضة أو مقاومة حقيقية سنة ٥٦٧هـ ـ إلا إسقاط عهد الوزراء العظام الذين كان آخرهم شاور أما الفاطميون فقد سقطوا منذ مدة طويلة أي قبل ذلك بقرن.

ومن الغريب أن العزيز الفاطمي بلغ من حبه لوزيره يعقوب بن كلس اليهودي أن ترك له أمر الدعوة إلى المذهب الفاطمي، وكان هذا الأخير يجلس بنفسه يعلم الناس فقه الطائفة الإسماعيلية، وقد ألف نفسه كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز والعزيز الذي قال له: "وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي" ولم يدرك العزيز أن ملكه كان قد بيع فعلاً بهذه السياسة التي جعلت عهد الفاطميين في مصر عهد شدة وتناطح وبؤس. ووقف هؤلاء يستثمرون كل هذا ويتملقون الغرائز وبقيت عبرة التاريخ عبرة للذين يطلبون النصر من الأعداء، والذين يطلبون الحياة من السم، والذين ينسون "الإستراتيجية الإسلامية العالية": "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"!!.

سقوط دولة صلاح الدين:

من أسرة كردية من أذربيجان هاجرت إلى العراق، انبثق فجر قائد هذه الدولة ـ التي لعبت بقيادته ـ دوراً من أروع أدوار تاريخنا.

ولعل "صلاح الدين الأيوبي" أروع بطل قدمته الحضارة الإسلامية على امتداد القرنين السادس والسابع للهجرة، وبه أفلت المسلمون وأفلتت الحضارة الإسلامية من غزو عالمي صليبي كاسح كان يقوده أخبث صليبي عرفته أوروبا الهمجية في عصورها المظلمة "بطرس الناسك".

وقد كان لاشتراك صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه في الحملات العسكرية التي كان يرسلها نور الدين إلى مصر، أثر كبير في تعميق خبرته وإبراز مواهبه، وما إن مات عمه أسد الدين سنة ٥٦٤ هـ حتى أسند

إليه الخليفة الفاطمي في مصر ـ "العاضد" الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر، فظفر صلاح الدين بحب الشعب واحترامه نظرا لحزمه وعدالته.

ولم تأت سنة ٥٦٧هـ أي بعد توليته الوزارة بثلاث سنوات ـ حتى مات "الخليفة العاضد" فطويت صفحة الخلافة الفاطمية في مصر ـ وغيرها، وعادت مصر ـ العاصمة الفاطمية الأولى ـ عاصمة كبرى للعباسيين تحت قيادة الدولة الأيوبية وقائدها صلاح الدين الأيوبي.

كان أمام صلاح الدين تحديات داخلية في مصر، فإن الآثار الفكرية التي خلفتها الدولة الفاطمية كانت تحتاج إلى إعلان ثورة فكرية.

وكان أمام صلاح الدين خلل اقتصادي منذ أيام المجاعة العظمى .. أيام "المستنصر" وما جر على مصر والعالم الإسلامي الحكم الفاطمي من ويلات تسلط الوزراء العظام منذ "بدر الجمالي" (٤٦٤هـ) إلى شاور وضرغام .

وكان بإمكان صلاح الدين، لو أنه قائد مخادع، أن يعلن ثورة اقتصادية واجتماعية، ويلهي الناس عن حقيقة الخطر الصليبي الذي يواجهونه!!

لكن صلاح الدين لم يكن هذا القائد المخادع، بحيث يشغل الناس لحساب الأعداء عن معركتهم الحقيقية بمعارك جانبية.

وكان بإمكان صلاح الدين أن يبحث عن "اتفاقية جلاء" مع الصليبين أو عن "حل سلمي استسلامي" حتى تنتهي فترة تثبيته في الحكم، ثم يعلن للناس أن الحكام السابقين يتحملون المسؤولية، وأنه جاء إلى الحكم بعد فوات الأوان، وبالتالي يخضع العالم الإسلامي لهذا الغزو الخبيث! لكن

صلاح الدين لم يكن هذا القائد المخادع .

وفي مواجهة غزو صليبي عالمي أعلـن صـلاح الـدين ثـورة إسـلامية عالمي، وأصبح هو رمزها ومحورها، وكان هذا هو الطريق الوحيـد ولا يـزال هو الطريق.

لقد جاء توحيد العالم الإسلامي جنباً إلى جنب مع الجهاد المستمر ضد الصليبية العالمية الحاقدة ، ولم يكن صلاح الدين بالأبله الذي يبحث عـن أي حـل بـديل للجهـاد، فوسـط الحـروب التـي تهـز الكيـان المـادي والمعنـوي والفكري للأمة لا يمكن إنجاح أي هـدف بعيـد عـن الهـدف الأول، وكـل الأهداف تأتي من خلال هذا الهدف، لأن الجماهير تعتقـد أنهـا عمليـة تلهيـة وخداع .. وقد دخل صلاح الدين عديدا من المعارك قبل حطـين الشـهيرة .. كموقعة "مرج عيون" جنوب لبنان سنة ٥٧٥ هـ وموقعة "مدينة صـفد" في السنة نفسها. وعلى امتداد كل السنوات كانـت هنـاك معـارك لا تحصى بـين صلاح الدين والصليبين.

وقد شـن صـلاح الـدين عـلى الصـليبيين حروبـاً واسـعة مـن أجـل استخلاص إمارات إسلامية استولى عليها الصليبيون وأسسوا فيها إمـارات صـليبية مضـى عـلى اسـتيلائهم عليهـا قريبـاً مـن تسـعين سـنة كأنطاكيـة وطرسوس والرها وبيت المقدس وطرابلس .. لم يكن صلاح الـدين سـاذجاً ضعيفاً متهاوناً فيدعو إلى حدود ما قبل "معركة" ما ، أو "اتفاقية" مـا، لقـد كان الحق الإسلامي في عقيدته مقدساً لا يقبل التفريط والمساومة، هكذا كان هذا الرجل العظـيم صـلاح الـدين الـذي انتصر في حطـين واسـترد بيـت المقدس.

وبوفاة صلاح الدين بقيت الدولة الأيوبية التي تنسب إليه تؤدي دورها قريباً من ستين سنة. لكن هؤلاء الحكام كانوا أقل من صلاح الدين، فلم يستطيعوا لعب الدور الذي لعبه وكان بعضهم متخاذلاً يؤمن بإمكانية المفاوضات مع العدو الصليبي التاريخي، كالملك الكامل الذي استجلب سخط العالم الإسلامي كله ، حين قام بتسليم القدس للصليبيين، وقد تمكن الصالح أيوب الذي جاء بعده من استردادها.

ومن الغريب أن هذه الدولة التي بدأت بعظيم من أعظم الرجال هو صلاح الدين وانتهت بملك عظيم كذلك هو الملك الصالح، كانت نهايتها على يد امرأة مملوكة من هؤلاء اللائى يظهرن في عصور الضعف، ويساعدن على سقوط الدول.

إنها واحدة من هؤلاء النسوة القويات اللائى يجدن اللعب في خفاء القصور ودستورها، متجردات من كل خصائص الأنوثة الحقيقية، مستغلات مظاهر هذه الأنوثة في القتل والتدمير .. إنها شجرة الدر .. التي قتلت ابن زوجها "توران شاه" لكي تنفرد بالحكم، ثم شربت من نفس الكأس حين قتلها المماليك أخذاً بثأر زوجها منها.

وعجباً .. لقد قضي على الدولة التي قامت على أكتافها واحد من أعظم الرجال على يد مملوكة ـ مهما اختلفنا حولها ـ فإنها كذلك من أبرز نساء العالم.

من عوامل سقوط العباسيين:

من أعرق الصفحات التي قدمناها للحضارة الإنسانية، وللتاريخ البشري صفحة الدولة العباسية.

خمسة قرون وأكثر (١٣٢ هـ ـ ٦٥٦ هـ) مرت على التاريخ البشـري، وهو يحني جبهته لهذه الدولة.

وبالطبع فليس مـن خصـائص المسـيرة البشر ـية أن تظـل عـلى وتـيرة واحدة، وهكذا كان شأن الدولة العباسية في مسيرتها، يتعاورها المد والجـزر، واختلف عليها الحماة بين أتراك وبويهيين وأتراك سلاجقة، لكنهـا بقيـت مـع ذلك رمز الهيبة التاريخية التي تفرض نفسها على كـل القـوى، مسـتمدة هـذه الهيبة من رصيد الخلافة الإسلامية التي مثلت وحدة الوجـود الإسـلامي إلى فترة قريبة من عمر التاريخ.

كان قيام هذه الدولة حركة سياسية قامت على تخطـيط، لعلـه لم يتـوفر للمسلمين في كل تاريخهم دقة وعمقاً وصبراً على النتائج، واسـتغلالاً لكـل القوى وسرية، وتوافر لكل مقومات النجاح.

ثم كان السير التـاريخي لهـذه الدولـة معجـزة عجيبـة، فوسـط بحـار متلاطمة الأمواج، وعالم إسلامي فسيح لا يمكن، بل يتعذر استمرار تماسكه .. وأعداء خارجيين من عناصر متباينة المذاهب والجنس والميول.

وسط هذا كله شقت الدولة طريقهـا .. ولا شـك في أنهـا كانـت بـين الحين والحين تتعرض لحركة تفكك من هنا، وحركة تمرد مـن هنـاك، وبـروز لحركة خروج في ناحية ثالثة .. وغلبة عنصر من العناصر في مكان رابع.

ولكن مهما يكن فهذه هي طبيعة المسيرة البشرية، ولم يقدم لنا التـاريخ على كثرة ما قدم مدينة فاضلة خلت مـن كـل النـوازع البشر ـية وخلـت مـن الصراع والمد والجزر !!

وعبر القرون الخمسة تقلب في الحكم عشرات من الحكام .. بلغوا سبعة وثلاثين خليفة، أولهم أبو العباس السفاح ثم أبو جعفر المنصور .. وقد برز منهم كثيرون كالمأمون والرشيد والمعتصم والواثق والمتوكل والمهدي. وكان آخرهم ـ ومن أشأمهم ـ أبو أحمد المستعصم الذي استسلم للتتار.

وظهرت أسر قوية وعناصر كبيرة سيطرت على الدولة أحياناً كالبرامكة وبني بويه والسلاجقة. وتمتعت دول كثيرة بالاستقلال الفعلي عن الدولة كالطولونيين والإخشيديين في مصر، وبني طاهر في خراسان، وبني سامان في فارس وما وراء النهر، والغزنويين في أفغانستان والبنجاب والهند، وبني بويه ـ الذين لم يستقلوا وحسب ـ بل تحكموا في الخلفاء أنفسهم في شيراز في فارس .ثم السلاجقة.

وهكذا ـ كما ذكرنا ـ تعاورت كل ظروف المسيرة التاريخية هذه الدولة ذات القرون الخمسة!.

وخلال رحلة الدولة العباسية الطويلة في التاريخ ، لم يجد المؤرخون بدا من تقسيم هذه الدولة إلى عصور ثلاثة : العصر الأول (١٣٢هـ ـ ٢٣٢ هـ) وفيه كانت السلطة للخلفاء ما عدا المغرب والأندلس . والعصر الثاني (٢٣٢ ـ ٥٩٠ هـ) وفيه ضاعت السلطة من الخلفاء لتكون في يد الأتراك والبويهيين والعصر الثالث (٥٩٠ ـ ٦٥٦ هـ) وفيه عادت السلطة إلى أيدي الخلفاء في حدود بغداد وما حولها، دون بقية أملاك الخلافة التي سطا عليها الطامعون .

وفي مثل دولة جامعة كبيرة ذات حياة حافلة كالدولة العباسية يصعب الوصول إلى رأي أخير في أسباب انحلالها .

- أكانت حركات الانشقاق عن الدولة سبب هذا الانحلال؟
- لا: إن حركات الانشقاق هذه ظاهرة أو نتيجة من نتائج بروز عوامل الانحلال.

أكان ظهور أو تحكم عناصر غير عربية في الحكم من أسباب هذا الانحلال؟ لا، فهذه العناصر قد وجدت في حضارات كثيرة وأين هي الدولة التي تخلو من خدمات عناصر ليست منها؟ .. ثم إن هؤلاء لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا في ظل مظاهر الانحلال الحقيقية، وأدى معظمهم خدمات للدولة كانت سببا من أسباب بقائها وصمودها.

أكان ظهور حركات التمرد الديني كالقرامطة والحشاشين وغيرهم هو السبب الأقوى في تحلل الدولة؟

ومما لا شك فيه أن لهذه الحركات أثرها الكبير في ضياع "الوحدة العقائدية" وفي ضياع كثير من مثل الإسلام الصافية خلال هذه العصور وفي خلق جو من الفوضى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، لكن مع ذلك، وإن كان هذا سبب قوياً، فليس هو السبب الأقوى في سقوط الدولة العباسية.

✍ **فما هي إذن ـ عوامل تحلل الدولة العباسية ودخولها في طور الاضمحلال؟**

لا شك في أن العوامل السابقة وغيرها، كان لها تأثيرها الكبير في اضمحلال الدولة العباسية وفي دخولها مرحلة الأفول.

بيد أن أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين، إهمالهم لركن هام من أركان الإسلام وهو (الجهاد)، فبعد المعتصم المتولي أمور الدولة سنة (٨٣٣م) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ "الجهاد الدائم" حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية.

لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية .. فحصرتهم مشاكلها .وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو "الجهاد" ضد الصليبيين، لتغير أمر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد ، والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية ويذيب المعدن الرخيص.

لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة في ضرورة رفع راية الجهاد، وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للانشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ليحميها من جو السكون والاستسلام.

لكن العباسيين غزوا في عقر دارهم .. فذلوا، ولم يرفعوا راية الجهاد ضد العدو الخارجي .. فارتفعت رايات العصيان الداخلي.

وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة والوثنيات المختلفة .. لكنهم لم يفعلوا، فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة، وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليست لها بالإسلام أو الجهاد صلة.

وفي سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) كان هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ يؤدب الذين اتجهوا إلى كل الطرق إلا طريق الجهاد .. وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية القوية الخالدة.

وقد هاجم هولاكو بغداد وهدم أسوارها، وأعمل المنجنيق فيها، وحصد بغداد، حتى لم يعد ممكنا الإقامة فيها لشدة روائحها المنفرة، وعندما خرج الخليفة المستعصم إليه مستسلماً بصحبة ثلاثمائة من أصحابه وقضاته دون شرط، أمر هولاكو بقتلهم جميعاً، وطويت صفحة الخلافة العباسية.

ذلك أن أسلوب الأحلام الرومانتيكية الساذجة ليس وسيلة البقاء أو تشييد الحضارات فالذين لا يملكون إرادة الهجوم .. يفقدون القدرة على الدفاع!!

المماليك أبطال عين جالوت يسقطون:

كانوا دائماً أهل طعان ونزال .. كانوا أشقاء للسيف والرمح، هو هويتهم وهو مؤهلهم للحياة والبقاء .. وعلى امتداد تاريخهم كان السيف مقروناً بهم. وكانوا عضد الدولة الإسلامية في كثير من المواقف، وكانوا حماتها من أعدائها.

وفي مقابل ذلك عاشوا وتحملتهم شعوب مصر والشام، وسمحت لهم بالسيطرة عليها وهم بدورهم كانوا جيشها وأسطولها وحماتها أمام كل غزو خارجي، وكانوا يخضعون لتقاليد البلاد ولا يعرفون لهم ولاء إلا للدين الذي عاشوا به وربوا على تعاليمه، وإلا للسلطان الذي يحكم ...

ثم مع تطورهم الداخلي أصبح ولاؤهم للسلطان الذي يحكمهم منهم ولقد شكلوا مجتمعاً ذا هوية خاصة، له أسلوبه الخاص في الحياة، ولـه تربيتـه الخاصة وله فكـره الخـاص لقـد كـان مجـتمعهم أشـبه مـا يكـون بـالمجتمع العسكري أو المجتمع البحري الذي يعيش للبحر أو الجندية، فالجندية عقلـه وهي عاطفته ولا ولاء عنده لسواها.

وعندما مات فجأة آخر سـلاطين الأيـوبيين الملـك الصـالح أيـوب . تكتمت زوجه شجرة الدر الخبر لأن بلاد مصر كانـت في حـرب مـع لـويس التاسع الذي هزم وأبيد جيشه في دمياط والمنصـورة، ثـم اسـتدعت الزوجـة الملكة ابن زوجها " توران شاه " لينقـذ الـبلا، فلـما جـاء تـوران وأنقـذ البلاد من الصليبيين، وحاول أن يسـتأثر بالسـلطة دبـرت المـرأة قتلـه .. ثـم أقامت نفسها بمساعدة المماليك ملكة على مصر، وقد اختار المماليك كبـيرهم عز الدين أيبك ليقوم بمساعدة "المملوكة" التـي صـارت "ملكـة" (شـجرة الـدر) في إدارة شـؤون مصرـ، وتطـور الأمـر فتزوجـت شـجرة الـدر مـن مساعدها عز الدين، وتنازلت له عن السلطة.

وهكذا تم تنازل آخر من ينتسبون إلى دولة الأيـوبيين بنسـب إلى كبـير المماليك، ومع أن شجرة الدر تعتـبر البدايـة التاريخيـة لدولـة المماليـك، لكـن البداية الأكثر عمقاً وأحقية هي التي مثلها هذا التنازل، ثم استأثر عـز الـدين أيبك بالسلطة سبع سنوات أحست فيها المملوكـة القاتلـة بأنهـا سـلبت كـل سلطة، فقامت بقتل زوجها الجديد مثلما قتل من قبـل ابـن زوجهـا القـديم. لكن المماليك سرعان ما قتلوها ثأراً وانتقاماً .. واستقر الأمر لدولة المماليك في مصر والشام.

والمماليك قسمان: برجية نسبة إلى أبراج القلعة التي كانوا يسكنون فيها بالقاهرة .. وبحرية نسبة إلى جزيرة الروضة المطلة على النيل التي كانوا يسكنون فيها كذلك، ومن أشهر المماليك الأول برقوق .. وآخرهم قانصوه الغوري الذي سقط تحت سنابك خيل السلطان سليم سنة ١٥٢٧م ..

ومن أشهر المماليك البحرية عز الدين أيبك وبيبرس والمنصور قلاوون .. وقد انتهى هؤلاء من قبل المماليك البرجية بحوالي قرنين وكان المماليك البرجية ـ أبطال عين جالوت ـ يمثلون امتدادهم التاريخي .

لقد لعب المماليك البرجية بخاصة في تاريخنا دوراً لم تقم به إلا دول قليلة في التاريخ لقد صدوا غارتين حضارتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخنا وتاريخ الإنسانية.

كانت الأولى يمثلها زحف هولاكو الذي ينتمون إليه جنسياً، لقد صدوه بعقيدتهم الإسلامية التي لم يعد لهم ولاء إلا لها (الحمد لله أن نظرية القومية العنصرية لم تكن ظهرت بعد) وقد وقفوا أروع وقفاتهم في صده في عين جالوت الشهيرة رافعين راية واإسلاماه!!

ثم كانت الثانية في معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذين كانت لهم بقايا بعد صلاح الدين، فعلى يد السلطانين المنصور قلاوون الذين تسلم الحكم سنة ٦٧٨ هـ والسلطان الأشرف خليل ـ الذي تولى الحكم سنة ٦٨٩ هـ .. على يد هذين السلطانين ـ فضلاً عن جهود بيبرس ـ تهاوت قلاع الصليبيين الباقية والتي كانوا قد تقدموا في بعضها بعد صلاح الدين كحصن المرقب وعكا وغيرهما، وطويت على يد المماليك آخر صفحات الغزو

الصليبي الذي استمر قرنين من الزمان وكان ذلك سنة ٩٦٠ هـ.

وقد تضافرت ظروف عالمية، كاكتشاف رأس الرجاء الصالح ـ وظروف إسلامية كبروز الأتراك ـ ثم محمد علي، وظروف داخلية كانقسام الأتراك على أنفسهم.

تضافرت كل هذه الظروف على إنهاء الدور الذي قام به المماليك، لكن كان أكبر سبب هوى بالمماليك وزحزحهم من مكانهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها.

نسو رسالتهم في الدفاع الخارجي نسوا السيف، وتبلدوا عند أسلوب معين، ولم يطوروا أنفسهم، ثم تطوروا فانقلبوا من حماية خارجية للأمة إلى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها.

وبهذا فقدوا دورهم في التاريخ وسقطوا بعد أن أدوا للحضارة الإسلامية الكثير وأنقذوها من أكبر خطرين عالميين وهما التتار والصليبيون ..

الفصل الثالث
نظام الحكم والإدارة في الدولة الأموية

الخلفاء الأمويون (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م):

١.	معاوية بن أبي سفيان	٤١-٦٠هـ	(٦٦١-٦٨٠م)
٢.	يزيد بن معاوية	٦٠-٦٤هـ	(٦٨٠-٦٨٤م)
٣.	معاوية بن يزيد بن معاوية	٦٤هـ	(٦٨٤م)
٤.	مروان بن الحكم بن أبي العاص	٦٤-٦٥هـ	(٦٨٤ -٦٨٥م)
٥.	عبد الملك بن مروان	٦٥-٨٦هـ	(٦٨٥ -٧٠٥م)
٦.	الوليد بن عبد الملك بن مروان	٨٦-٩٦هـ	(٧٠٥ -٧١٥م)
٧.	سليمان بن عبد الملك بن مروان	٩٦-٩٩هـ	٧١٥ -٧١٧م)
٨.	عمر بن عبد العزيز بن مروان	٩٩-١٠١هـ	(٧١٧ - ٧٢٠م)
٩.	يزيد بن عبد الملك بن مروان	١٠١-١٠٥هـ	(٧٢٠ - ٧٢٤م)
١٠.	هشام بن عبد الملك بن مروان	١٠٥-١٢٥هـ	(٧٢٤ - ٧٤٣م)
١١.	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥-١٢٦هـ	(٧٤٣ - ٧٤٤م)
١٢.	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦هـ	(٧٤٤م)
١٣.	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٧هـ	(٧٤٤ - ٧٤٥م)
١٤.	مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ -١٣٢هـ	(٧٤٥ -٧٥٠م)

لقد اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي وامتدت حدودها من فرنسا غرباً إلى كاشغر في الصين شرقاً ومن بحر قزوين شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً. ومن أجل فهم أفضل لما كان عليه نظام الحكم والإدارة في تلك الفترة، فإنه يستحسن البحث فيه من جوانبه الثلاثة: التقسيمات الإدارية، والوظائف الإدارية، والمؤسسات الإدارية (الدواوين).

التقسيمات الإدارية:

كانت الأقاليم التي تتكون منها الدولة الأموية موزعة على النحو التالي:

١. **ولاية الشام:** وتتكون من جُند (منطقة) دمشق وجند حِمْص وجند قِنِّسرين وجند فلسطين وجند الأردن. وبما أن الخليفة كان يقيم في العاصمة دمشق، فإنه كان يعين ولاة من قبله على هذه الأجناد (المناطق).

٢. **ولاية العراق:** وأهم مراكزها البصرة والكوفة وواسط. ويتبعها مناطق فارس وكرمان، وخراسان، وسجستان، وأصبهان والأحواز وقزوين وجرجان وطبرستان وأذربيجان والري وقومس ونهاوند. ويتبعها، أيضاً، بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وهي تشتمل على مدن بخارى وسمرقند وطشقند وخوارزم. والمناطق المحيطة بها حتى حدود الصين. وكانت البحرين (وتمتد من الأحساء إلى كاظمة/ الكويت بما فيها البحرين حالياً) وعُمان وما فتح المسلمون من مناطق في حوض نهر السِّند تتبع والي العراق. وعلى أية حال، فإن ولاية العراق كانت هي الأكبر جغرافياً والأكثر سكاناً من أية ولاية أخرى في الدولة.

٣. **ولاية الجزيرة الفُراتية:** وموقعها في شمال شرق سورية فيما بين نهري دجلة والفرات ويتبعها أقاليم أذربيجان، وأرمينية، والموصل، وأجزاء من آسيا الصغرى. وكان والي هذا الإقليم يقيم في مدينة

حَرَّان.(تقع حالياً بمنطقة ديار بكر في الأراضي التركية وهي على بعـد ١٢٧ كيلاً مترياً شمال مدينة الرقة السورية.

٤. **ولاية الحجاز:** وأشهر مدنها مكة والمدينة ، حيث كان يقـيم الـولاة، والطائف. وكان يتبعها إقليم اليمامة أحياناً. وكانت القاع أو حَجْـر اليمامة، وسط مدينة الرياض القديمة، هي مقر إقامة والي اليمامة.

٥. **ولاية اليمن:** وأشهر مراكزها: صنعاء (وهي مركـز الولايـة حيـث يقيم الوالي)، وحضرموت ، والجَنَد.

٦. **ولاية مصر**: وتتكون من مصر العليـا (مـن الصـعيد حتـى النوبـة) ومصر السفلى (الوجـه البحـري) وفيـه الفُسْـطاط (حيـث مقـر الوالي) والإسكندرية والسويس.

٧. **ولاية المغرب:** وتشمل المنطقة الممتدة من بَرقة (في ليبيا) حتى طنجـة (في المغـرب) . وكانـت قاعـدتها مدينـة القـيروان. وكانـت هـذه الولاية، في أول أمرها تابعة إلى والي مصر، ولكنها أصبحت ولايـة مستقلة في عهد يزيد بن معاوية ٦٣هـ/ ٦٨٢م. وتأكد استقلالها في عهد الوليد بن عبد الملك عام ٨٦هـ/ ٦٨٥م.

٨. **ولاية الأندلس:** وتشمل المنطقة الممتدة من جبل طارق حتى برشلونة في إسبانيا. وقد تمتد شمالاً حتى مملكة استراسيا في جنـوب فرنسـا. هذا إلى جانب ما فتح المسلمون من أرض البرتغـال. وكانـت هـذه الولاية تتبـع في أول أمرهـا والي المغـرب . وظلـت كـذلك حتـى جعلها الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز (٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م) ولاية مستقلة. وكان الوالي يقيم في مدينة قرطبة.

الوظائف الإدارية في الدولة الأموية:

اتبع خلفاء بني أمية ذلك النظام الإداري الذي كان سائداً في عهد الخلفاء الراشدين . ولكنهم قاموا بتطويره وفقاً لمتطلبات العصر . وكانت الوظائف الإدارية متعددة ، ومهامها متنوعة ، **وسنتناول بعضاً منها:**

الخلافة عند الأمويين :

كان الخليفة هو قمة الهرم الإداري في الدولة الأموية. وقد تعاقب على منصب الخلافة الأموية أربعة عشر خليفة من أبناء البيت الأموي، بفرعيه: السُّفياني والمرواني. وفيما يلي نقدم نبذة عن كل خليفة وأهم الأحداث التي ظهرت في عهده . أما الجوانب الأخرى من أعمال كل خليفة فيمكن للقارئ أن يتتبعها في ثنايا هذا الكتاب.

كان معاوية بن أبي سفيان ﵁، أول الخلفاء الأمويين. ومن أصحاب رسول الله ﷺ وصاحب شخصية قوية تتصف بالحِلْم (وهي قد تعني سعة الصدر ورحابته والمقدرة على ضبط الأعصاب والسيطرة عليها حين الغضب) والدّهاء (وتعني المقدرة على إيجاد أيسر الحلول لأعضل المشكلات). وهما صفتان استطاع بهما معاوية أن يجرد كثيراً من خصومه من سلاحهم. وتورد بعض المصادر التاريخية أمثلة عديدة على جوانب متعددة كان للحِلْم فيها دور في سياق الأحداث في فترات مختلفة من حياة معاوية. وتتضح أفكار معاوية السياسية والإدارية من خلال أقوال له يرد ذكرها في بعض المصادر، فيروى أنه قال: "لا أَضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أَضع سيفي حيث يكفيني سوطي. فإذا لم

أجد من السيف بداً ركبته". وأنه قال: "لو أن بيني وبين الناس شَعْرة ما انقطعت قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا إذا مَدّوها خَلّيتهـا، وإذا خَلّوها مددتها". وقال كذلك: "لا أَحول بين الناس وأَلْسنتهم ما لَمْ يحولوا بيننا وبين مُلْكنا". ويوجز ابن الأثير أبعاد سياسة معاوية، بقوله: "كان معاوية يُعطي المُقَارب، ويُداري المُباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه".

كان معاوية أول من حَصَر الخلافة في أُسرة واحدة في تاريخ الإسلام. فقد عهد بمنصب الخلافة إلى ولده يزيد من بعده ظناً منه أن مثل هذه الخطوة قد تضمن للأمة الإسلامية وحدتها، وتحفظ لها استقرارها، وتجنبها حدوث أية خلافات على مثل هذا المنصب.

وتولى يزيد بن معاوية الخلافة عقب وفاة والده في سنة٦٠هـ/ ٦٨٠م. وكان والده قد أعده إعداداً جيداً لمثل هذا المنصب. ولكنه لم يهنأ في وظيفته هذه طويلاً. إذ شهد عهده أحداثاً جساماً، مثل: وقعة كربلاء ومقتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) فيها، (٦١هـ/ ٦٨٠م) ؛ ووقعة الحَرَّة في المدينة (٦٣هـ/ ٦٨٣م)؛ وحصار الحرم المكي وحريق الكعبة (٦٤هـ/ ٦٨٤م). وقد استخدم يزيد القوة لمعالجة هذه الأحداث. وبما أن سلاح القوة وحده لا يكفي لمعالجة أية مشكلة، ما لم يكن مصحوباً بالحنكة والدراية والكياسة، فإن عواقب استخدام هذه القوة في عهده. وعلى فترات مختلفة، قد ساهمت في ازدياد شعور النقمة عليه وزادت في غلو المؤرخين في تسويدهم لصفحات سيرته. وجمعت له أعداء كثيرين. ومع ذلك فقد عهد قبل وفاته سنة ٦٤هـ/ ٦٨٤م إلى ولده معاوية الثاني، بمنصب الخلافة من بعده، متناسياً أن

مثل هذا العمل كان السبب الرئيس في كل المشكلات التي حصلت له.

وتفيد الروايات التاريخية أن معاوية بن يزيد قد أعلن تنازله عن منصب الخلافة منذ اليوم الذي كان من المفترض أن يبايع فيه البيعة العامة. إذ خطب الناس في مسجد دمشق، وقال لهم: " ... فإني قد ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب ﷺ حين استخلَف أبو بكر ﷺ فلم أجده، فابتغيت سِتّةً مثل ستة الشورى فلم أَجدهم، فأنتم أَولى بأَمْركم، فاختاروا له من أحببتم".

ولعل إصرار معاوية بن يزيد على تنازله عن منصب الخلافة يعود إلى عدة أسباب، أولها: أنه كان زاهداً في الخلافة، فلا هو طلبها، ولا هو سعى إليها. وثانيها: أنه كان مريضاً ووجد في نفسه عدم القدرة على ممارسة مهام هذا المنصب. وثالثها: أنه أراد أن يجنّب نفسه تلك المشكلات التي حصلت لوالده من قبل، وأخذت عليه معظم وقته وجهده، وسوَّدت صفحته ففضَّل معاوية الثاني. أن ينأى بنفسه عن كل التيارات المعارضة. وليس هذا فحسب، بل إنه رفض أن يعهد إلى أخيه خالد بن يزيد بتولي هذا الأمر من بعده، وقال للذين نصحوه بذلك "لا يكون لي مُرُّها، ولكم حُلوها". وقال أيضاً: "اللهم إني بريء منها، متخلّ عنها".

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن معاوية بن يزيد قد لزم بيته بعد خطبته تلك، فبقيت الأمور الداخلية للدولة على حالها كما كانت في عهد والده يزيد (أي أنه لم يغيّر شيئاً ولم يأمر أو ينه)، وبقي معاوية كذلك حتى توفي مريضاً في منزله بعد أربعين يوماً من اعتزاله الناس، وهو ابن تسع عشرة سنة.

أدى إحجام معاوية بن يزيد عـن تعيـين مـن يخلفـه إلى وقـوع الأسرة الأموية في مأزق حقيقـي. إذ لم يلبـث عبـد الله بـن الـزبير أن دعـا إلى نفسـه بالخلافة في مكة. وسرعان ما جاءته بيعة أهـالي مصـر والعـراق وخراسـان واليمن والبحرين واليمامة. وبايعه أهل حمص وقنّسرـين وفلسـطين وبعـض أهل دمشق، ولم يبق سوى إقليم الأردن وواليه حسَّان بن مالـك بـن بَحـدَل الكلبي (خال يزيد بن معاوية)، موالياً لبني أُمية. ولعل هذه البيعة المتسرِّعة - وبخاصة في إقليم الشام - لابن الزبير قد جـاءت نتيجـة لغيـاب أي مرشـح أموي.

ولتطويق هذه الأزمة كان كبار رجالات بني أمية يعقدون ما يسمّى بـ "مجلس الملأ " (وهو أشبه بمجلس العائلة): يستعرضـون الأحـوال العامـة، ويتناقشون في أمر الخلافة ويروى أن مروان بن الحكم والذي كانـت معرفـة أهل الشام به قليلة في ذلك الوقت، (لأن أكثر إقامتـه كانـت في المدينـة)، قـد أبدى رغبته في البيعة لابن الزبير، لكن عبيـد الله بـن زيـاد منعـه مـن ذلـك. ورشحه من بينهم لأن يتولى منصب الخلافة وذلك بحكـم أنـه كبـير قـريش وسيّدها، وسيّد بني أمية.

وإذا كان ما اتفق عليه بنو أُمية في مجلس الملأ قد أرضاهم، فإنه لن يمـرّ دون اعتراضات. فما أن عقد الأمويون مؤتمراً عاماً في الجابِيَـة ليعرضـوا عـلى أعوانهم من القبائل اليمانية (القحطانية) بيعـة مـروان بالخلافـة ، حتـى بـدأ شيوخ هذه القبائل في إملاء شروطهم، **ومنها:**

أن يعمل مروان على رعاية مصالحهم، وقالوا له: " فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك، وإن تكن الأخرى، فوالله ما قريش عندنا إلا سواء".

١. أن يكون لهم الأمر والنهي وصَدْر المجلس وكلّ ما كان من حَلّ وعَقْد فَعَنْ رأْي منهم ومشورة.
٢. أن يستلم ألفان منهم ألفي درهم لكل منهم عطاءً سنوياً وإذا مات صاحب العطاء فإن ابنه أو ابن عمّه يستلم عطاءه . وهذا ما كان يعرف بشَرَف العطاء.
٣. أن يُعطي من كان في الشام من زعماء قبيلة كندة منطقة البلقاء (في الأردن) إقطاعاً لقاء تأييدهم له.
٤. أن يَخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ويتولّى في الوقت نفسه إمرة حِمْص.
٥. أن يَخْلُفَ عمرو بن سعيد بن العاص، المعروف بالأَشْدَق، خالداً. ويتولى إمرة دمشق.

وافق مروان لهم على كل هذه المطالب؛ لأنه كان في أمسّ الحاجة إلى الدعم والمساندة للوصول إلى هدفه. وبويع له إثر ذلك بالخلافة. وفي هذا يفتخر عمرو بن مخلاة الكلبي أن أفراد القبائل اليمانية هم الذين ساندوا مروان، **فيقول:**

رَدَدْنا لمروانَ الخلافَة بَعدما ... جرى للزُّبيريِّين كلُّ بَريدِ
فإلاَّ يكُن منَّا الخليفةُ نفسُهُ ... فما نالَها إلاّ ونحنُ شهودُ

وعلى الرغم من قبول مروان لذلك الشرط المتعلق بولاية العه، إلا أنـه لم يلبث أن تحرَّر منه بمجرد أن قويت سلطته في بلاد الشام عقب انتصاره على أعوان ابن الزبير في موقعة مَرْج راهِطْ (قرب دمشـق) (٦٤هــ/ ٦٨٤م) وفي موقعة عين شمس (قرب الفُسْطاط) بمصر (٦٤هــ/ ٦٨٤م) فقـام، عقـب ذلك بعزل خالد وعمرو عن ولاية العهد وعهد بها إلى اثنين من أبنائـه: عبـد الملك وعبد العزيز.

وأما عن الموقف الذي اتخذه صـاحبا العلاقـة المبـاشرة بهـذه القضـية، فتشير الروايات التاريخية أن خالد بن يزيد قد ترك السياسـة وشـؤونها واتجـه نحو تطوير اهتماماته العلميـة وبخاصـة في علـم الكيميـاء. وأمـا عمـرو بـن سعيد، وهو الذي كان يوماً مفضلاً عند أكثـر أهـل الشـام فقـد كظـم غيظـه وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لاستعادة ما فقده.

توفي مروان بن الحكم (٦٥هـ/ ٦٨٥م) وتولى ابنه عبد الملك الخلافة من بعده (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م). وحدث أن استغل عمرو بن سعيد فرصة مغادرة عبد الملك متوجهاً نحو العراق فحـاول التمـرد عليـه وأغلـق أبواب دمشق دونه، وأخـذ يطالـب بـما فقـده نتيجـة لخطـوة مـروان في أمـر الخلافة، فوعده عبد الملك أن يستخلفه بعده، عند ذلك أنهى عمرو بن سعيد اعتصامه، وبايع لعبد الملك ولكن عبد الملك لم يمهله طويلاً، إذ أنه ظل يشك في نوايا عمرو، فقتله. (سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢م).

ثم إن عبد الملك، كما تشير بعض الروايات التاريخية، فكَّر في إقصاء أخيه عبد العزيز عن ولاية عهده وتولية ابنه الوليد بدلاً عنه لكن وفاة عبد العزيز (٨٥هـ/ ٧٠٤م) قد أراحت عبد الملك من أية مشكلات محتملة. وعلى إثر ذلك قام عبد الملك بأخذ البيعة لابنه الوليد ليكون ولياً لعهده وعلى أن يخلف الوليد أخوه سليمان. وكان رأي عبد الملك في ذلك واضحاً، فهو يقول: "أما إنّا لو تركنا الوليد وإيّاها لجَعلَها لبنيه".

وتولى الوليد منصب الخلافة عقب وفاة والده. (٨٦هـ/ ٧٠٥م) وورث عنه دولة ثابتة الأركان، مهيبة الجانب، مما ساعده على تحقيق كثير من الإنجازات على مختلف الأصعدة. وأما فيما يتعلق بولاية العهد، فتشير الروايات التاريخية إلى أن الوليد أراد أن يغير فيما قرره والده، فهمَّ بعزل أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد. ولكن ذلك لم يتم له نظراً لوفاته المفاجئة، ولأن سليمان كان يتمتع بمكانة في بني أمية، وأن البيعة كانت قد أُحْكمت له أيام والده.

وفيما يتعلق بسليمان بن عبد الملك، فقد ولي منصب الخلافة عقب وفاة أخيه الوليد في سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م، وقد شهدت فترة خلافته التي استمرت حتى سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م. محاولة كبرى من جانب القوات الإسلامية البرية والبحرية لفتح مدينة القسطنطينية لكنها باءت بالفشل. كما أن سليمان كان يريد ولاية العهد لابنه أيوب. وبايع له بذلك في سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م ولكن أيوب هذا توفي بالطاعون قبل وفاة والده باثنين وأربعين يوماً. فأرادها سليمان، بعد ذلك، لولده داود . لكن الذي منعه من

عقد العهد له من بعده أمران، أولهما: أن داود كان وقت مرض والده مع الجيش خلف أسوار القسطنطينية. وثانيهما: "أن داود كان ابن أَمَة، وكان بنو أُميَّة يكرهون ذلك؛ لأنه شاع بينهم أن مُلكهم يذهب على يد خليفة منهم أُمُّه أَمَة". ولذلك عهد سليمان بالخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان على أن يأتي بعده يزيد بن عبد الملك.

بايع الناس عمر بن عبد العزيز بالخلافة عقب وفاة سليمان بن عبد الملك المفاجئة نتيجة إصابته بمرض الحُمَّى (أو بذات الجنب) (٩٩هـ/ ٧١٧م). وسعى عمر لأن ينشر العدل والمساواة بين المواطنين في جميع أرجاء الدولة مما حدا بمتتبعي سيرته أن يعدّوه خامس الخلفاء الراشدين، وفيما يتعلق بولاية العهد، فبرغم ميله إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت١٠٧هـ/ ٧٢٥م) أو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت١٠٧هـ/ ٧٢٥م) لما عرف عنهما من صلاح وتقوى إلا أنه لم يفعل خشية أن تثير مشكلات وفتن بين الناس. وقد عبَّر عمر عن ذلك بقوله: "لو اخترت للأُمَّة غير يزيد كان أَولى ولكني أخاف إن أخرجتها من بني عبد الملك أن يقع في ذلك فتنة وفرقة ، وأنا أُولّي سليمان ما تَولّى، والمسلمون أَولى بالنظر في أَمرهم".

ولما توفي عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ/ ٧١٩م) بويع يزيد بن عبد الملك بالخلافة من بعده وكان يزيد يرغب أن يكون ابنه الوليد ولياً لعهده على الرغم من أنه كان في الحادية عشرة من عمره. وبينما كان يخطط لهذه الفكرة، بدأت حركة يزيد بن المهلَّب الأزدي في البصرة (١٠٢هـ/ ٧٢٠م)

وكانت هذه الحركة من الخطورة بحيث جعلت الخليفة يزيد يعيّن أخاه هشام بن عبد الملك ولياً لعهده شريطة أن يكون الوليد وليّ عهد هشام . "وأخذ العهد عليه ألاّ يخلعه ولا يغيّر عهده، وألّاّ يَحتال عليه". وكان صاحب الرأي والمشورة في ذلك هو مسلمة بن عبد الملك، الذي خشي أن يقع مكروه للخليفة وليس من ولي عهد له سوى ذلك الصبي، ولكن في الوقت الذي تمت فيه مبايعة هشام بولاية العهد تم القضاء على حركة يزيد بن المهلب في موقعة العَقْر (قرب بابل)(١٠٢هـ/ ٧٢٠م) وعندها ندم يزيد بن عد الملك - حسبما يقال - على تسرعه في إعطاء ولاية العهد إلى أخيه هشام فكان كلما رأى ولده الوليد يقول: "الله بيني وبين من قَدَّم هشاماً عليك" يعني مسلمة بن عبد الملك. وتوفي يزيد في عام (١٠٥هـ/ ٧٢٣م) متأثراً بداء السّل.

وتولّى هشام بن عبد الملك منصب الخلافة (١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م) وبدأ في أول أمره يعامل ولي عهده (الوليد بن يزيد) معاملة حسنة. لكنه طمع بعد ذلك في خلعه على أمل أن تؤول ولاية العهد لابنه معاوية. ولكن معاوية توفي سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م. فأرادها هشام لابنه مسلمة. فبدأ يتنكّر للوليد بن يزيد، وحَرَمَه من العَطاء وحَرَم سائر مواليه. وأخذ في تحقيره وتصغيره في عيون جلسائه حتى ينتزع منهم اعترافاً بعدم أهليته للخلافة. فضاق الوليد ذرعاً بأفعال عمّه، وغادر الرصافة حيث يقيم هشام، واتخذ من واحة الأزرق. (في الأردن حالياً) مكاناً لإقامته، ولكنه كان دائم السؤال عن حال عمه، مترقباً الفرصة المناسبة لاستعادة حقه.

وأمام هذه اليقظة من الوليد والدعم المعنوي الذي كان يحظى بـه (أي الوليد) من قبل عمه مسلمة بن عبد الملك؛ وخشية هشام من أن تتنكر قلوب الأجناد عليه، إذ إن سيرة مسلمة بن هشام لم تكن بأحسن من سـيرة الوليـد. فقد تخلى هشام عن محاولاته في خلع الوليد. وهكذا بـاءت جهـوده بالفشـل. وتوفي هشام (١٢٥هـ/ ٧٤٢م) دون أن يحقق ما كان يطمح إليه، وإن كانت محاولات التشهير تلك قد فتحت على الوليد باباً صعب عليه إغلاقه.

وبويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالخلافة، فـافتتح عهـده باسـتبعاد أبناء عمه الوليد بن عبد الملك، وأبنـاء عمـه هشـام بـن عبـد الملـك واشـتدّ عليهم، وأَضَرَّ بهم وحَرَمَهم من تولّي أي منصب وقرّر عدم الاسـتعانة بهـم. وأمر بالتشديد على أعوانهم السابقين. وزاد على ذلك بأن أخذ البيعـة بولايـة العهد إلى ولديه: الحَكم (وكان ابن أَمَه) وعثمان (ابن حُرَّة) عـلى الـرغم مـن صغر سنّهما. ولذلك فقد شعر بنو عمومته أنهم قـد اسـتُبعدوا تمامـاً فنقمـوا عليه ودبروا مؤامرة ضده، تزعمها سليمان بن هشام ويزيد بن الوليد بن عبـد الملك وانتهت بمقتل الوليد في قصـر البَخْراء(قـرب تـدمر في سـوريا) سـنة ١٢٦هـ/ ٨٤٢م، وسجنوا ابني الوليد ووليَّي عهده الحَكَم وعـثمان عنـدهم بدمشق.

وأما عن تتابع الحوادث عقب مقتل الخليفـة الوليـد فتشـير الروايـات التاريخية أنه قد بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة من قبـل أعوانـه. وعقد العهد بعده لأخيه إبراهيم بـن الوليـد عـلى أن يتبعـه عبـد العزيـز بـن الحجاج بن عبد الملك بن مروان، ولكن عهد يزيد لم يدم طويلاً إذ إنه توفي

إثر مرض (الطاعون) بعد ستة أشهر فقط. فخلفه أخوه إبراهيم (١٢٦هـ/ ٧٤٣م) ولكنه كان ضعيفاً فلم يهنأ في منصبه، ولم يُعترف بخلافته من قبل الكثيرين فكان يُسلّم عليه جُمُعَةً بالخلافة وجُمعة بالإمْرة وجُمعة لا يسلِّمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمْرة.

ولم يمض طويل وقت حتى خرج عليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم(والي إقليم الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان) والذي لم يكن قد بايع لإبراهيم بالخلافة مطالباً إياه بدم الخليفة المقتول الوليد بن يزيد، ومطالباً إياه كذلك بإطلاق سراح الحكم وعثمان ابنَي الوليد. ولما سمع إبراهيم بهذه المطالب أصدر أوامره بقتل ابنَي الوليد، ثم جهز قواته لمواجهة مروان بن محمد، ووضع هذه القوات تحت إمرة سليمان بن هشام بن عبد الملك. ولم يلبث أن اشتبك الطرفان في موقعة عين الجرّ (عَنْجَر، وهي تقع قرب بعلبك في وادي البقاع بلبنان) سنة ١٢٦هـ(٧٤٣م). وأسفر هذا اللقاء عن مقتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان، وأَسْر الخليفة إبراهيم بن الوليد وكبير مناصريه سليمان بن هشام. ولم يلبث إبراهيم أن خَلَع نفسه وبايع مروان بن محمد بالخلافة".

دخل مروان دمشق عقب انتصاره، وبويع له بالخلافة عام ١٢٧هـ/ ٧٤٤م ، ثم انتقل بعد ذلك إلى حَرَّان في إقليم الجزيرة الفراتية حيث اتخذها مركزاً لخلافته بدلاً عن دمشق، وهناك بايع لولديه عبيدالله وعبد الله بولاية العهد، مع أنهما كانا صغيرين في السن.ولكن مروان وولديه لم يهنئوا

فيما وصلوا إليه. إذ لم يمض وقت طويل حتى دخلت القوات العباسية دمشق وطاردوا مروان حتى قتلوه في مصر (١٣٢هـ/ ٧٥٠م).

وهكذا يتبين أن تسعة من خلفاء بني أُمية قد وصلوا إلى منصب الخلافة عن طريق الوراثة. وأن أربعة منهم وصلوا عن طريق القوة. وواحد وصل عن طريق ترشيح ابن عمّه له.

وعلى أية حال، فإن من يدقق النظر في الملامح الأساسية لنظام الخلافة عند الأمويين يجد أن هناك قصوراً في التنظيم رافق مسيرتهم. سوف تتضح آثاره السلبية لاحقاً.

الولاية على البلدان عند الأمويين:

أدى توسع الدولة شرقاً وغرباً لأن يجد الخليفة نفسه في موقف يصعب عليه فيه أن يركز كامل السلطات في يديه من العاصمة دمشق، ولذلك فقد استدعى الأمر أن يلجأ إلى تطبيق مبدأ اللامركزية في الحكم. بمعنى أن الخليفة يفوض الوالي إدارة كافة شؤون الولاية (الإدارية والحربية) ولا يرجع للخليفة إلا في الأمور الهامة جداً فكان من صلاحيات الوالي: النظر في أمور جباية الخراج، وإعلان الجهاد، وتوزيع الأعطيات، وتنفيذ أمور القضاء.

وأما عن طريقة اختيار هؤلاء الولاة، فقد كان خلفاء بني أمية حريصين على أن يسندوا منصب الوالي لمن عرف بالولاء السياسي حَسَن التدبير ولديه الخبرة الكافية في مجال الإدارة. **وبنظرة شمولية إلى منصب الوالي نجد أن الخلفاء الأمويين كانوا يختارون ولاتهم من ثلاث فئات:**

أولها: من أبناء البيت الأموي.

✓ **وثانيها**: من أبناء القبائل العربية.

✓ **وثالثها**: من أبناء الموالي (المسلمين من غير العرب).

✓ **الولاة من أبناء البيت الأموي:**

حرص بنو أُمية على تعيين أبنائهم على الولايات والأجناد، ففي ذلك تمرين لهم وتدريب على ما ينتظرهم من مهمات. وفي ذلك أيضاً ضمان للاستقرار والهدوء المنشودين في ظل تلك الظروف. ويظهر من تتبع أخبار الولاة أن الشخصيات المتشددة من أبناء البيت الأموي كانوا يتولون إقليمي الجزيرة الفراتية والعراق. فعلى سبيل المثال تولى ولاية العراق كل من زياد بن أبي سفيان (٤٥ - ٥٣هـ/ ٦٦٥ - ٦٧٢م) وابنه عبيد الله (٥٥ - ٦٤هـ/ ٦٧٤ - ٦٨٣) وبشر بن مروان (٧٤ - ٧٥هـ/ ٦٩٣ - ٦٩٤م) ومسلمة بن عبد الملك (١٠١-١٠٣هـ/ ٧١٩-٧٢١م). وفي عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م، أصبح مسلمة والياً على أرمينية وأذربيجان). وتولى إقليم الجزيرة كل من محمد بن مروان بن الحكم (٧٤-٩٦هـ/ ٦٩٣-٧١٤م) وابنه مروان (١١٤-١٢٧هـ/ ٧٣٢-٧٤٤م).

وأما الأقل تشدداً من أبناء البيت الأموي فقد كانوا يعينون على ولاية الحجاز أو مصر. وقد تعاقب منهم على ولاية الحجاز كل من مروان ابن الحكم وسعيد بن العاص وابنه عمروٍ وعثمان بن محمد بن أبي سفيان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعمر بن عبد العزيز وابنه عبد العزيز وعبد الواحد بن

سليمان بن عبد الملك ومحمد بن عبد الملك بن مروان . وأما إقليم مصر فقد تولاّه من بني أمية كل من عتبة بن أبي سفيان (٤٣-٤٤هـ/ ٦٦٣-٦٦٤م) وعبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٥هـ/ ٦٨٤-٧٠٤م) وعبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦-٩٠هـ/ ٧٠٥-٧٠٨م).

وأما بلاد الشام، فقد تولاَّها العديد من أبناء البيت الأموي. فعلى سبيل المثال، تولى سليمان بن عبد الملك على فلسطين، وتولى الوليد بن عبد الملك إمارة دمشق. وتولى عبد الله بن عبد الملك على حمص وأما أبو عثمان بن مروان بن الحكم فقد تولى على الأردن وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان. وفي فترة خلافة الوليد بن عبد الملك تولى ابنه عبد العزيز إمارة دمشق، وابنه عمر بن الوليد على الأردن ، وسليمان ابن عبد الملك على فلسطين والعباس بن الوليد على حمص. وكان سعيد بن هشام بن عبد الملك عاملاً لأبيه على حمص. وكان الوليد بن معاوية بن عبد الملك عاملاً على دمشق لمروان بن محمد بن مروان.

✓ **الولاة من أبناء القبائل العربية:**

اعتمد الخلفاء الأمويون في مختلف عهودهم على رجالات من العرب في إدارة شؤون الولايات في الدولة. وكانت الكفاءة والخبرة والولاء، والصدق والأمانة والإخلاص هي الدافع الأول في هذا التعيين. ونظراً لاتساع رقعة الدولة وتعدد أقاليمها فقد تعدد الولاة فكان فيهم القوي المتشدد المؤثر. وكان فيهم الليّن المتهاون. **ومن الأمثلة على هؤلاء الولاة من العرب وولاياتهم:**

عمرو بن العاص السهمي (ولاية مصر) والحجاج بن يوسف الثقفي (العراق) ويوسف بن عمر الثقفي (العراق) ومحمد بن يوسف الثقفي (اليمن) والمهلب بن أبي صفرة الأزدي وأبناؤه (خراسان والعراق) وخالد بن عبد الله القسري (مكة ثم العراق) وإبراهيم بن عربي عبد الرحمن الكناني (اليمامة) ونصر بن سيار الليثي (خراسان) ومنصور بن جمهور الكلبي (السند) وهشام بن إسماعيل المخزومي (مكة) ومسلمة بن مخلد الأنصاري(مصر) وعقبة بن نافع الفهري وحسَّان بن النعمان الغساني (بلاد المغرب) . وغيرهم ممن سيرد ذكرهم في هذا الكتاب .

- ✓ **<u>الولاة من أبناء الموالي</u>:**

تمتع الموالي (المسلمون من غير العرب)، كغيرهم من المواطنين، بحقوقهم المشروعة بقدر ما كانت تسمح به الأوضاع السائدة. وكانت العلاقة فيما بينهم وبين خلفاء بني أمية علاقة طيبة. فقد كان من هؤلاء الموالي قضاة، وقادة عسكريون، وكُتَّاب في الدواوين وحُجَّاب على أبواب الخلفاء والولاة ، وأفراد الحرس الخاص للخلفاء والولاة وللمنشآت الحكومية في بعض حواضر الأقاليم.

وفوق ذلك كلّه فقد وصل بعض الموالي إلى أعلى منصب يمكن أن يصله أحد من المواطنين، ونعني به منصب الوالي . ففي أثناء ولاية مسلمة ابن مخلد الأنصاري على مصر لمعاوية (٥٤هـ/ ٦٧٣م) نجده وقد عزَل العربي القرشي عقبة بن نافع الفهري عن ولاية المغرب (وقاعدتها القيروان) وعيَّن عليها مولاه أبا المهاجر دينار. (ربما ليضمن ولاءه).

عيَّن معاوية فيروز الديلمي والياً على اليمن فمكث ثماني سنين. كما عين معاوية سعيد بن دادويه والياً على اليمن وخلفه الضحاك بن فيروز الديلمي وظل والياً حتى وفاة معاوية. ووصل موسى بن نصير اللخمي وأبناؤه: عبد الله وعبد العزيز وعبد الملك إلى منصب الوالي في بلاد المغرب والأندلس (٧٨-٩٤هـ/ ٦٩٨-٧١٢م) وعيَّن موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد على طنجة. وعيَّن عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، مولى بني مخزوم، والياً على بلاد المغرب (١٠٠هـ/ ٧١٨م).

وتولى يزيد بن أبي مسلم (مولى الحجاج بن يوسف الثقفي) ولاية إفريقية سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م في عهد يزيد بن عبد الملك، وقتله الجند هناك، لشدته عليهم. وولّى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحَبْحَاب، مولى بني سَلول، على ولاية المغرب والأندلس (١١٦هـ/ ٧٣٤م).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من بين الاثنين والعشرين والياً ممن تعاقبوا على ولاية المغرب (٤٥ - ١٣٢هـ/ ٦٦٥ - ٧٥٠م) وعلى ولاية الأندلس (٩٢ - ١٣٢هـ/ ٧١٠ - ٧٥٠م) كان أربعة عشر منهم من الموالي والباقي من العرب.

ولعل ما أوردناه من أمثلة يدحض ما أرتآه بعض الباحثين من أن نظرة الأمويين إلى الموالي كانت نَظرة السَّيد للمَسُود؛ وأن إحدى مظاهر ضغط الأمويين على الموالي تمثلت في إقصائهم عن المناصب؛ وأن الاعتبارات القبلية التي وجدت لها مرتعاً خصباً في ظل الخلافة الأموية قد حالت دون وصول أي من الموالي لأي منصب مهم في الدولة وهذا مما جعلهم يناصرون قوى المعارضة ضد بني أمية.

علاقة الخلفاء الأمويين بولاتهم:

تميزت علاقة الخلفاء الأمويين بولاتهم بالحيطة والحذر. وكانت هناك مسافة بين الطرفين تكفي للمناورة إذا لزم الأمر ذلك. وبالرغم من أن هؤلاء الولاة سواء كانوا من أفراد البيت الأموي أو من غيرهم قد أعطوا صلاحيات واسعة لإدارة شؤون ولاياتهم إلا أنهم كانوا دائماً معرضين للمساءلة والعزل. فمثلاً تشير الروايات أن معاوية بن أبي سفيان أمر بعزل عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس (زوج هند إبنة معاوية) عن ولاية البصـرة عندما تهاون في ولايته فعمّت فيها الفوضى (٤٥هـ/ ٦٦٥م). وزاد ابن عامر على ذلك بأن أعطى الأمان لاثنين من زعماء الخوارج، هما: قريب بن مرة الأزدي وزحاف بن زحر الطائي دون أن يراجع معاوية في ذلك، فما كان من معاوية ألا أن عزل ابن عامر دون أن يحاسبه أو يتعرض له.

وقام الخليفة يزيد بن معاوية بعزل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليه على المدينة (٦٠هـ/ ٦٨٠م) لأنه فشل في أخذ البيعة له من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر (رضي الله عنهم). وولاّها عمرو بن سعيد بن العاص بن أُمية (الملقب بالأَشدق).

أما عبد الملك بن مروان، فقد ذهب في هذه السياسة إلى مدى بعيد، فبالرغم مما كان معروفاً عن حرص الأمويين على أن يكونوا في الناس رأْساً والناس لهم تَبَع ، فإن عبد الملك بدا مستعداً للتضحية بهذا المبدأ طالما أن فيه مصلحة تخدم الكيان الأموي. فتشير الروايات التاريخية أن عبد الملك بعث ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان ليعرضا على أهل العراق أثناء تمرد عبد

الـرحمن بـن محمـد بـن الأشـعث بـن قـيس الكنـدي في الكوفـة (٨٢هـ/ ٧٠١م) عَزْل الحجاج بن يوسـف الثقفـي عـنهم وتعيـين محمـد بـن مروان عليهم إذا كان ذلك يرضيهم . وإذا كـان غـير ذلـك فيـأتمر الأمـيران الأمويَّان بإمرة الحجاج ويسمعان له. فنفّذ محمد وعبـد الله مـا طُلـب مـنهما، وظلاّ تحت إمرة الحجاج حتى أحرز انتصاره على ابن الأشعث في موقعة ديـر الجماجم (٨٣هـ/ ٧٠١م).

وعَزَل عبد الملك بن مروان عمّه يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م ، بعد سنة واحدة من تعيينـه عـلى المدينـة. لأنـه ارتكـب مخالفة إدارية. إذ إنه ترك ولايته وجاء دمشق ليزور الخليفة دون إذنـه، وعـيَّن بدله أبان بن عثمان بن عفان.

وقام الوليد بن عبد الملك أيضاً بعزل أخيه عبد الله عن ولاية مصر لمـا رأى من تشدده على موسى بن نصير عامله على بلاد المغرب، لمجرد أنـه كـان يكاتب الخليفة في دمشق وعين قرَّة بن شَريك العَبْسي بدلاً منه.

وفي موقف آخر، نجد أن الوليد بن عبد الملك يعزل ابن عمّه عمر بـن عبد العزيز واليه على مكة والمدينة (٩٣هـ/ ٧١١م) لمجرد أن الحجاج كتـب إليه أن الهاربين من سلطته في العراق يجدون مأوى لهم في هـاتين المـدينتين "وإن ذلك وَهْن" وستكون له آثار سلبية على الأمويين . وكان للحجـاج مـا أراد.

وإذا كان هذا التشدد قد حدث مع أبناء البيت الأموي فإن مـا حـدث للولاة من الفئات الأخرى كان أقسى وأَمَر. فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي

أخلص ولاة بني أمية وأقدرهم وأقربهم إلى الخليفة عبد الملك وابنه الوليد من بعده نجده قد تعرَّض للّوم من الخليفة ومن ثم للإبعاد عن ولاية الحجاز استجابة لطلب أهلها. فتفيد الروايات التاريخية أن عبد الملك لما ولّى الحجاج على الحجاز (٧٣هـ/ ٦٩٢م) أمره بعدم التعرض لرجاله بما يكرهون، إلا أنه تشدد مع وجوه أهل مكة والمدينة . فتوعَّد حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (في المدينة). وتعرَّض لمحمد بن الحنفية (في مكة) بما يَكره، وضَرَبَ عباس بن سهل بن سعد الساعدي (الأنصاري) في المدينة في أمر ابن الزبير، وهو يومئذ شيخ كبير، وضَرَبَ عبد الرحمن ابن عبد الله الجُمَحي وأخرجه من المدينة، فنزل بين مكة والمدينة، فلم يزل بها حتى مات. ولا عجب بعد ذلك أن يتقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة التيمي إلى عبد الملك بشكوى ضد الحجاج، جاء فيها: "يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرُسِه وتعجرُفِه فولّيته الحَرَمَين، وهُما ما هُما، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي الأخيار يطؤهم بطغام أهل الشام . ويسومهم الخَسف بعد الذي كان من سفك دمائهم ، وما انتهك من حرمهم. " فاستجاب عبد الملك لطلبه، وقال له: "قد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وولّيته العراقَيْن".

وفي العراق: وبرغم كل الخدمات التي قدمها الحجاج هناك لصالح الأمويين نجد أن الخليفة عبد الملك يعرض على أهل العراق أن يعزل عنهم الحجاج ويولّي محمد بن مروان بدلاً عنه إذا هم انسحبوا عن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي. وهي الخطوة التي استغربها الحجاج من الخليفة.

وهذا هو الحجاج نفسه، يقرّعه عبد الملك إثر تعرضه لأَنَس بن مالـك الأنصاري (ت ٩٣هـ/ ٧١١م) وتشدده معه عندما جاءه متشفعاً في ابنه عبد الله بن أنس، بعد انتهاء حركة ابن الأشـعث (٨٣هــ/ ٧٠٢م) فكتـب إليـه عبد الملك:

"هيِه يا ابن يوسف، أردت أن تَعلَم رأي أمير المـؤمنين في أَنـس، فـإن سوَّغك مضيت قدماً، وإن لم يسوِّغك رجعت القَهقَرى ... أنسيت مكاسـب آبائك بالطائف في حفر الآبار، وسدّ السُّكُور، وحمل الصخور على الظهـور؟ أَبَلَغَ من جرأتك على أمير المؤمنين أن تُعنّت بأَنَس بن مالـك ، خـادم رسـول ﷺ ستّ سنين، يُطلعه على سِرِّه، ويفشي إليه الأخبار التـي كانـت تأتيـه عـن ربّه؟ فإذا أتاك كتابي هذا فأمش إليه على قدميك حتى تأخذ كتابه إليَّ بالرضى، والسلام." فنفَّذ الحجاج أوامر عبد الملك وقابل أَنَس بن مالك ، وقال له : " فإنَّ لك العُتبى ، وإني صائر إلى مسرَّتك فاكتب إلى أمـير المـؤمنين بـالرِّضى " فكتب أَنَس بذلك إلى عبد الملك.

ولما عيَّن الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م عبـد الـرحمن ابن الضحاك بن قيس الفِهْري والياً على المدينة (بعد عزل أبي بكر بـن محمـد بن حزم الأنصاري) اشتد عبد الرحمن في معاملته لأهل المدينـة ، ولقـوا منـه عنتاً ، حتى أنه ضرب الوالي السابق ، وتعرَّض لفاطمة بنت الحسين بـن عـلي رضي الله عنه بُغية إكراهها على الزواج منه . فشَكَت أمرهـا إلى الخليفـة . فغضـبَ مـن تصرّف عبد الرحمن وكتب في الوقت نفسه إلى عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النصري ، وهو بالطائف : " سلام عليك ، أما بعد فإني قد ولّيتك المدينة

فإذا جاءك كتابي هذا فـاهبط واعـزل عنهـا ابـن الضـحاك ، وأغرمـه أربعين ألف دينار ، وعذّبه حتى أسمع صوته وأنا على فراشي " . ولمـا عـرف عبد الرحمن بذلك، هرب إلى الشام واستجار بمسلمة بن عبـد الملـك ولكـن يزيد رفض وساطة مسلمة وأمر بردّ عبد الرحمن إلى المدينـة . وهنـاك عُـذّب ولقي شراً

وأَقدم الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠٢هـ/ ٧٢٠م) على عزْل عمر بن هُبَيرة الفزاري (واليه على إقليم الجزيرة الفُراتية) لأنه أَرسل أَنبـاء فتوحاتـه في منطقة أرمينية مع أحد أبناء البيت الأموي وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، فغضبت بنو أُمية لذلك وقالت: " فَزاريّ يُحمِّل البشارة والرسـالة رجلاً منَّا " ؟ . وولّى مروان بن محمد مكانه.

وأما العلاقة فيما بين الخليفة هشام بن عبد الملـك وخالـد بـن عبـد الله القَسْري البَجَلي . فهي عبرة لمن يعتبر . فقد استمرت ولاية خالد على العـراق أكثر من خمسة عشر عاماً (١٠٥ - ١٢٠هـ/ ٧٢٣ - ٧٣٧م) وصل فيهـا إلى قمة مجده وامتلك من الأراضي الزراعيـة والثـروات مـا كـان ينـافس فيهـا الخليفة . ولكنه زهى بنفسه وتفاخر . وقال : " ما زادت أُميـة في شَرَف قَسْرـ هكذا ، وجمع بين إصبعيه" . وقال أيضـاً : " مـا ولايـة العـراق لي بِشَرَـف " فكتب إليه هشام ، وقد وصلته مقولة خالد : " أما بعد: فقد بلغني مقالتـك ، وستعلم يا ابن النصرانية أن الذي رفعك سيضعك ".

نفَّذ هشام ما أراده ، فقد عَزَل خالداً عن ولاية العـراق وعـيَّن عليهـا يوسف بن عمر الثقفي وقام الأخير بسجن خالد وتعذيبه ، ثم أطلق سراحه ورجع خالد إلى دمشق وأخذ يتردد على قصر الخليفة كل يوم ولمـدة شـهرين، فلعل وعسى أن يأذن له الخليفة بمقابلته . ولكن لم يتحقـق لـه ذلـك ، وظـل على حاله من العزلة حتى قُتل (في سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٣م) ، أيام خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ولعل فيما يرويه خالد بن صـفوان التميمـي مـا يجسّـد مـدى النهايـة المأساوية في العلاقة بين هشام وخالـد القَسْـري . قـال خالـد بـن صـفوان : "دخلت على هشام بن عبـد الملـك بعـد أن سـخط عـلى خالـد بـن عبـد الله القسري وسلَّط عليه يوسف بن عمر عامله على العراق . فلـما دخلْـت عليـه استدناني حتى كنت أقرب الناس إليه فتنفس الصعداء ثم قال : يا خالد، رُبَّ خالد قعَد مقعدك هذا أشهى إليَّ حديثاً منك ! فعلمت أنه يريد خالد ابن عبد الله القَسْري ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أَفَلا تعيده ؟ قال : هيهـات. إن خالـداً أَدَلَّ فأَملَّ وأَرجَفَ فأَعجَف ، ولم يَدَع لمراجع مَرْجعـاً ؛ عـلى أنـه مـا سـألني حاجة قط ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، فلو أدنيته فتفضَّلت عليه ! قال هيهـات . وأنشد:

إذا انصَرَفَتْ نفسي عن الشّيء لم تَكُنْ ... عليـــهِ بوجْـــهٍ آخـــر الـــدَّهرِ تُقْبِـــلُ

ويتبيّن مما أوردناه من أمثلة عدم صحة مـا ادعـاه أحـد البـاحثين: "أن قادة الجيوش وعمال الولايات كانوا يتصرفون ويصرِّفون شؤون الحكـم دون رقيب أو محاسب".

القضاء في العصر الأموي:

اهتم خلفاء بنو أُمية وولاتهم بالقضاء ، وكانوا يولّونه أحسن الناس علماً وسيرةً وخلقاً، من الصحابة والتابعين وعلماء الأُمة.وكانت مكانة القاضي عالية جداً بدليل أن عمر بن عبد العزيز قد جعل القاضي أحد الأركان الرئيسة في الحكم والإدارة.

وكان عمل القاضي، في أول أمره، يتمثل في " الفصل بين الناس في الخصومات حَسْماً للتداعي، وقَطْعاً للتنازع ". ثم تطور ليشمل أمور الحياة المختلفة كالزواج والطلاق والمواريث والأوقاف وشؤون اليتامى والأرامل والمعاملات في الأسواق. وهذا يتطلب منه أن يكون صاحب ثقافة دينية عميقة وأن يكون لديه إطلاع واسع على الشؤون الاجتماعية والأحوال المالية والاقتصادية في الإقليم، ومعرفة بالعادات والتقاليد السائدة بين السكان. وكان يحق للقاضي أن يعيّن له نُوَّاباً في المدن التابعة للإقليم الذي هو معيَّن فيه.

ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد وضع الخلفاء الأمويون شروطاً يفترض أن تتوفر فيمن يولونه القضاء، فقد سُمع عمر بن عبد العزيز، يقول: "ينبغي أن يجتمع للقاضي خمس خصال : يكون عالماً بما مضت عليه السُّنَّة، حليماً ، ذا أَناة، عفيفاً، مشاوراً، فإذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضياً، وإن نقص منهن شيء كان وَصْماً فيه".

وكتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على مصر، أن " تَخيَّر لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب، لا تأخذه في الله لومة لائم ".

وأما مروان بن محمد بن مروان فقد كتب إلى أحد ولاته يبيّن لـه أهميـة القضـاء والقـاضي وخطـورة الأحكـام، ويطلـب منـه أن يكـون حـذراً في الاختيار:

"فَلْيكن من تولّيـه القضـاء في عسـكرك مـن ذوي الخـير في القناعـة، والعفاف، والنزاهة، والفَهم،والوقار،والعصـمة،والورع، والبصــر بوجـوه القضايا ومواقعها، قد حنَّكته السِّن ، وأَيَّدته التجربة وأحكمته الأمور ، ممـن لا يتصنّع للولاية ويستعدُّ للنُّهْزَة ، ويجتريء على المحاباة في الحكم ، والمداهنة في القضاء ، عَدْلَ الأمانة ، عفيفَ الطُّعمة، حَسَنَ الإنصـاف ، فَهِـمَ القلـب ، وَرِعَ الضمير ، مُتَخَشِّعَ السَّمْت ، بادي الوقار ، محتسباً للخير".

ولعل من أشهر من تولّى منصب القضاء في العصر الأُموي: فَضَالة ابن عبيد الليثي الأنصاري، وابنه عاصم، وسُلَيم بن عِتْر (عَنَز) التجيبـي وعبـد الرحمن بن حَجيرَة الخُولاني وأبو إدريس عائذ بن عبـد الله الخُـولاني، ومحمـد بن عمرو بن حزم الأنصاري ومحمد بن صفوان الجُمَحي ومصعب بـن عبـد الرحمن بن عوف الزُّهري وبلال بن أبي بردة الأَشـعري، وشريـح بـن هـانئ الحارثي وإياس بن معاوية المُزَني.

ويلاحظ أن القضاء لم يكن مقصوراً على العرب. بل كان هنـاك قضـاة من الموالي، أيضاً، مثل: سعيد بن جُبَير وعبد الرحمن بن أبي لـيلى وابنـه محمـد وشريح بن الحارث الكِنْدي.

ولقد ظهرت في هذا العهـد حاجـة إلى وجـود سـجلاّت تُـدوَّن فيهـا الأحكام التي يصدرها القضاة وذلك حرصـاً مـنهم عـلى عـدم حـدوث أي تلاعب في الأحكام التي يصـدرونها فقـد حـدث أن قضىـ سُـلَيم بـن عِـتْر التجيبي ، قاضي مصر طيلة فترة خلافة معاوية ، بين متخاصمين عـلى الإرث ، ثم تناكروا في الحكم، ورجعوا إليه فقضى بينهم ثانية ، وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند فكان بذلك أوَّل القضاة بمِصر سَجَّل سِجلاًّ بقضائه.

الفصل الرابع
الدولة الأموية في الأندلس

"شامية الروح- أموية الاتجاه - مروانية السياسة"

مقدمة:

الدولة الأموية في الأندلس إمارة إسلامية أسسها عبد الرحمن بن معاوية الأموي عام ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م في الأندلس وأجزاء من شمال أفريقيا وكانت عاصمتها قرطبة، وتحولت إلى خلافة بإعلان عبد الرحمن الناصر لدين الله نفسه في ذي الحجة ٣١٦ هـ/ يناير ٩٢٩م خليفة قرطبة بدلاً من لقبه السابق أمير قرطبة، وهو اللقب الذي حمله الأمراء الأمويون منذ أن استقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس. تأسست هذه الدولة نتيجة سقوط الدولة الأموية في المشرق على يد بني العبَّاس، الذين أخذوا بعدَ قيام دولتهم بمُلاحقة بني أمية وقتلهم، ولذلك فقد فرَّ الكثير منهم بعيداً محاولين النجاة بأنفسهم. وقد كان من بين هؤلاء عبد الرحمن الداخل، الذي فرَّ إلى الأندلس، وأعلنَ استقلاله بها وقد تمكَّن الأمويون من البقاء بهذه الطريقة، فأسسوا دولتهم الجديدة في الأندلس، وظلُّوا يحكمونوها زهاء ثلاثة قرون. عُرف عبدُ الرحمٰن بن مُعاوية باسم «عبدُ الرحمٰن الدَّاخل»، كونه «دخل» (أي هاجر) إلى الأندلُس، ومُنذُ أن تسلَّم الحُكم حتَّى دخل المُسلمون في الأندلُس في عهدٍ جديدٍ قائمٍ على أُسسٍ سياسيَّة بعيدةٍ عن العُنصُريَّة والقبليَّة من واقع تحجيم نُفوذ زُعماء القبائل وإحلال سُلطة الدولة مُمثلة بالأمير، محل سُلطة القبائل، وبدأت الأندلُس تسير في طريق اكتساب الحضارة.

أضحى الأندلُس بلدًا إسلاميًا مُستقلًا عن الخِلافة العبَّاسيَّة في المشرق بعد أن كـان خاضـعًا لِمركـز الخِلافـة في العهـد الأُمـوي، ولم تُحـاول الدَّولـة العبَّاسيَّة جديًا إعادته إلى حظيرتها. ويبدو أنَّ انفصاله النهائي عنهـا لم يُشـكِّل خطرًا حقيقيًا مُباشرًا على كيانهـا، بالإضـافة إلى أنَّـهُ اسـتمرَّ في حمـل الرسـالة الإسلاميَّة، ولا يدعو ذلك بالضرورة للمُواجهـة المُبـاشرة، غـير أنَّـهُ جـرت مُحاولات عابرة قام بها العبَّاسيّون لِإعادته إلى حظيرة الخِلافة، لكنَّهـا لم تُحقـق شيئًا. تميزت الدولة الأمويـة في الأنـدلس بنشـاط تجـاري وثقـافي وعمـراني ملحوظ، حتى أصبحت قرطبة أكثر مـدن العـالم اتسـاعًا بحلـول عـام ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥م، كـما شـهدت تشـييد الكثـير مـن روائـع العـمارة الإسـلامية في الأندلس ومنها الجامع الكبير في قرطبة. كـما شـهدت فـترة حكـم الأمـويين نهضة في التعليم العام، جعلـت عامـة الشـعب يجيـدون القـراءة والكتابـة في الوقت الذي كان فيه عليـة القـوم في أوروبـا لا يسـتطيعون ذلـك. وبسـبب الاستمرار في الاتجاه الذي أرساه عبد الرحمن الداخل، خطت الدولة الأموية في الأنـدلس خطـوات واسـعة في التقـدم والرقـي والازدهـار الحضـاري، ونافسـت قُرطُبـة بغـداد عاصـمة الدولـة العبَّاسـيَّة والقُسـطنطينيَّة عاصـمة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. وساهم العُلماء الأندلُسيّون على اخـتلاف خلفيَّـاتهم العرقيَّة والدينيَّة بتقدُّم مُختلف أنواع العُلوم في العالمين الإسلامي والمسـيحي، ومن هؤلاء على سبيل المِثال: جابر بن أفلح في علـم المُثلثـات، وإبـراهيم بـن يحيى الزرقالي في علم الفلك، وأبو القاسم الزهراوي في الجراحة، وابن زُهـر في الصيدلة، وغيرهم.

تحوَّلت الدولة الأموية في الأندلس من نظام الإمارة إلى نظـام الخلافـة على يد عبدُ الرحمٰن النَّاصر لدين الله كما أُسلف، فخرج بِعمله هذا عن الأصل النظري للمذهب السُنّي للخِلافة، القائل بأنَّ الخِلافة كمُؤسسة دينيَّة ودُنيويَّة لا يُمكن أن تتجزَّأ حسب المفاهيم السَّائدة في ذلك الوقت، إلَّا أنه وضع هذا العمل في موضع الاجتهاد. وأجاز الفُقهاء والعُلماء السُّـنَّة بِتعـدُّد الخِلافـة في حال وُجود مصلحة عامَّة للمُسلمين، واعترفوا بِشرعيَّة وُجود إمامين يتولَّيان حُكم المُسلمين في وقتٍ واحد، شرط أن تكون المسافة بيـنهما كبـيرة حتَّـى لا يحصل التصادم بينهما. ومن الأسباب الواقعيَّة التي دفعت عبد الرحمٰن النَّاصر إلى إعـلان الخِلافـة، كـان ضُـعف الدولـة العبَّاسـيَّة وانحـدار سُـمعتها إلى الحضيض، بالإضافة لإعلان الإمام عُبيد الله المهـدي الفـاطمي قيـام خِلافـة الفاطميين في إفريقية، ورُبما كانت هذه الحادثة أكثر إلحاحًا مـن تراجُـع نُفـوذ الخِلافة العبَّاسيَّة في المشرق للإقدام على هذه الخُطوة من جانب عبـد الـرحمٰن النَّاصر، لا سيَّما وأنَّ الفاطميين كانوا قد أعلنوا الخِلافـة عـلى أسـاسٍ شـيعيّ إسماعيليّ، وهـو مـا مثَّـل تهديـدًا عسـكريًا ودينيًـا للأُمـويين بصـفةٍ خاصَّـة والأندلُس بصفةٍ عامَّة.

وقد استمرت الدولـة الأمويـة في الأنـدلس رسـميًا حتـى عـام ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافـة فـيما بيـنهم، ممـا أدى بعـد سنوات من الاقتتال، إلى تفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة.

تأسيس الدولة:

نجح المسلمون في مدّ دولتهم إلى الأندلس، عندما عبر طارق بن زياد أحد قادة موسى بن نصير والي الأمويين على إفريقية عام ٩٢ هـ بجيش قوامه سبعة آلاف مقاتل، واستطاع هذا الجيش بعد أن أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف أخرى أن يهزم ملك القوط الغربيين لذريق في معركة وادي لكة والسيطرة في غضون عامين على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، تحولت جيوش المسلمين شرقاً وتوغلت في بلاد الغال حتى وصلت إلى حدود مدينة ليون الحالية.

استمرت محاولات المسلمين في التوسع في بلاد الغال في عهد الولاة السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمن الغافقي، إلا أن تلك المحاولات حققت بعض النجاحات ثم توقفت التوسعات بعد هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء. بعد ذلك سادت فترة من عدم الاستقرار شهدت تعاقب الولاة والصراعات بين العرب المضرية والعرب اليمانية من جهة وبين العرب والبربر من جهة أخرى.

استغل عبد الرحمن بن معاوية الأحداث الداخلية في الأندلس، بدأ في مراسلة أتباع وموالي الأمويين في الأندلس عن طريق مولاه بدر. نجحت المراسلات بين عبد الرحمن بن معاوية وموالي الأمويين في الأندلس في التمهيد لدخول عبد الرحمن إلى الأندلس، كما نجحوا في استمالة بربر الأندلس واليمانيين إلى جانب عبد الرحمن، الذي عبر إلى ثغر المنكب في ربيع الآخر ١٣٨ هـ. وبعد شهور من تمكن جيش عبد الرحمن من هزيمة آخر

ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري في موقعة المصارة في ذي الحجة ١٣٨ هـ، ليدخل بذلك عبدالرحمن بن معاوية قرطبة، لتتأسس بذلك إمارته المستقلة في الأندلس.

قضى عبد الرحمن الداخل سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته، والقضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، كما عمل عبد الرحمن الداخل على تأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء، ليترك الأندلس لخلفائه من بعده ولاية مستقرة. بعد وفاة عبد الرحمن الداخل نجح ابنه هشام الرضا وحفيده الحكم الربضي في الحفاظ على وحدة أراضي الدولة، ونجحا في التصدي لمحاولات الممالك المسيحية في الشمال للتوسع جنوبًا. ورغم ذلك النجاح الخارجي على الصعيد العسكري، إلا أن الدولة كادت أن تسقط إثر ثورة بعض أهل قرطبة على الحكم بن هشام، إلا أنه نجح في القضاء على تلك الثورة الداخلية. نتج عن حالة الاستقرار السياسي، أن ازدهرت حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن في الأندلس في عهد عبدالرحمن بن الحكم لتبلغ الأندلس في عهده مرحلة متقدمة من المدنية، وأصبحت مركزًا حضاريًا كبيرًا في غرب العالم الإسلامي. تطورت الدولة أيضًا عسكريًا، فنجحت في التصدي لمحاولات النورمان لغزو موانيء الأندلس بحرًا عام ٢٣٠ هـ.

كان شغل العباسيون الشاغل هو القضاء على الأمويين، الذين لم يكن أمامهم سوى الفرار من بطش العباسيين بعد سقوط دولتهم. وكان ممن استطاع الفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي فرّ إلى الأندلس، واستغل كراهية البربر ليوسف بن عبد الرحمن الفهري والي

الأمويين على الأندلس الذي ميّز بينهم وبين العرب، والذي ما أن سقطت خلافة الأمويين، حتى أعلن استقلاله بالأندلس، إضافة إلى الخلافات بين القبائل اليمانية والمضرية، فاستعان بالبربر والقبائل اليمانية على يوسف بن عبد الرحمن، وانتصر عليه في موقعة المصارة، ليؤسس بذلك إمارة أموية في قرطبة عام ١٣٨هـ/ ٧٥٦م. تعرض حكم عبد الرحمن بن معاوية للعديد من الثورات التي استطاع إخمادها الواحدة تلو الأخرى، والتي كان أخطرها ثورة العلاء بن مغيث الحضرمي بتحريض من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي كان يطمع في استعادة الأندلس، وكان ذلك سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م في مدينة باجة أو باجة الزيت، وكادت أن تقضي عليه تلك الثورة عندما تحصن في قرمونة لمدة شهرين، تضغط عليه هجمات العلاء المتكررة والعنيفة، ولكنه ظل محتفظا بأعصابه الفولاذية وحدة الرؤية. فقرر أخيراً ساعة الحسم فإذا بالمدينة ينفتح بابها فجأة على سبعمائة رجل على رأسهم عبد الرحمن يندفعون بسرعة رهيبة ويمزقون الثوار كل ممزق ويقتلون العلاء الذي فر قريباً من اشبيلية ومعه العديد من أصحابه عمل عبد الرحمن الداخل بعد ذلك على توطيد أركان حكمه بتأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء.

كبوة الدولة:

تلي تلك المرحلة مرحلة من الاضطراب في عهد محمد بن عبد الرحمن وولديه المنذر وعبد الله نتجت عن ذلك تعرض الإمارة إلى عدد من الثورات الداخلية من المولدين والمستعربين والبربر وبعض القبائل العربية، والتي

نجحت في تأسيس إماراتهم شبه المستقلة التي كانت لا تخضع لسلطة الدولة إلا بالاسم بنو قسي وبنو تجيب ومحمد بن عبد الملك الطويل وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الشمال، وأخطرهم عمر بن حفصون الذي تمرد على الدولة في الجنوب. إضافة إلى الهجمات الخارجية من النورمان والممالك المسيحية في الشمال في محاولة استعادة الأراضي التي دخلت تحت الحكم الإسلامي وفي ظل حالة التمرد الداخلية والهجمات الخارجية ضعفت سلطة الدولة على أراضيها حتى انحسرت سلطة الأمير عبد الله بن محمد فقط على قرطبة وأحوازها.

عصر القوة:

بعد وفاة عبد الرحمن الداخل تعاقب خلفاؤه على الإمارة، واستطاعوا الحفاظ على الدولة بتوحيد أراضي الأندلس الإسلامية ومحاربة الممالك المسيحية في الشمال، حتى وصلت إلى أوجها في عهد عبد الرحمن الأوسط، الذي شهد عهده ازدهار حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن وبلغت الأندلس مرحلة متقدمة من المدنية، فأصبحت الدولة الأموية في بلاد الأندلس مركزًا حضاريًا كبيرًا في غرب العالم الإسلامي. بل وتطورت عسكريًا، فاستطاعت صدّ الغزوات البحرية للنورمان على الموانيء الإسلامية في المحيط الأطلسي.

تلى هذه المرحلة مرحلة اضطراب نتيجة تعرض الإمارة إلى ثورات داخلية من المولدين والنصارى والبربر وبعض القبائل العربية وهجمات خارجية من النورمان والممالك النصرانية في الشمال في محاولة استعادة

الأراضي التي دخلت تحت حكم الإسلامي في عهد الأمراء محمد بن عبد الرحمن وابنيه المنذر وعبد الله، وكان أخطرها ثورة ابن حفصون. لكن مع تولى عبد الرحمن الناصر لدين الله استعادت البلاد وحدتها السياسية وقوتها العسكرية بعد أن خاض حروباً طويلة استطاع من خلالها استعادة السيطرة على البلاد. وفي عام ٣١٦ هـ/ ٩٢٨م، أعلن الناصر نفسه خليفة للمسلمين في الأندلس، لتقوية مركزه الديني ليساعده ذلك على مواجهة الدولة الفاطمية في شمال إفريقية. ولمواجهة هذا الخطر حصّن الناصر الموانئ الجنوبية للأندلس، وضم موانئ المغرب المواجهة للأندلس في مليلة وسبتة وطنجة، إضافة إلى دعم القبائل البربرية المعادية للفاطميين في المغرب ماديًا وعسكريًا. كما استطاع التصدي لأطماع الممالك المسيحية في الشمال كمملكة قشتالة وليون ونافار.

عرفت البلاد أوجها الثقافي في عهد ابنه الحكم الذي استطاع أن يواصل سياسات أبيه، واستمر عصر ازدهار الدولة، إلا أنه خالف سياسة أبيه في الاعتماد على الحجّاب. بعد وفاته تولى ابنه هشام وهو دون العاشرة، فوضع تحت وصاية أمه صبح البشكنجية، فأصبح الأمر في يد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي والمنصور بن أبي عامر رجل الدولة القوي الذي استطاع الانفراد بالحكم في ظل خلافة هشام بن الحكم، وحافظ على وحدة الأندلس تحت قبضته.

نهاية الدولة:

بعد وفاة المنصور بن أبي عامر، خلفه ابنه عبد الملك في الحجابة وحافظ على الوحدة، غير أن في فترة سيطرة العامريين، ساد الأندلس تطور اجتماعي جديد بسيطرة الصقالبة والبربر على المناصب القيادية في الجيش واختفاء القيادة العربية من الجيوش. وبوفاته عبد الملك عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م، خلفه أخاه عبد الرحمن شانجول، والذي لم يكن بكفاءة أبيه وأخيه، ورغم ذلك فقد أقدم على فعل كان فيه بداية النهاية بإعلان نفسه وليًا لعهد الخليفة هشام المؤيد بالله، فتسبب ذلك مع سيطرة البربر والصقالبة على الجيش في ثورة أهل قرطبة بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار أحد الأمراء الأمويين، الذي استطاع خلع المؤيد بالله، لتدخل البلاد مرحلة من الاضطراب. مرت الأندلس بعد ذلك بفترة من عدم الاستقرار، مدفوعة برغبات البربر والصقالبة والعرب في السيطرة على الأمر،حتى أن علي بن حمود أحد ولاة الأمويين، أعلن نفسه خليفة عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، فدخلت الأندلس مرحلة من الحرب الأهلية، انتهت بإعلان مشايخ قرطبة سقوط الخلافة، وانقسامها إلى عدة ممالك عام ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١[ ]

نظام الحكم:

كان نظام الحكم والإدارة في الأندلس في عهد الدولة الأموية متطورًا بالمقارنة بنظائره في الشرق الإسلامي أو الغرب المسيحي. كان الخليفة متربعًا على قمة هرم السلطة، ويعاونه "الحاجب" وهو منصب يعادل رئيس الوزراء، إضافة إلى مجموعة من الأشخاص الذين يتولون شئون إدارة البلاد

المالية والقضائية والأمنية سواء الداخلية المتمثلة في صاحب الشـرطة أو الخارجية متمثلة في قائد الجيش.

أما إداريًا، فقد حافظ المسلمون على تقسيمات الرومان والقوط الإدارية، فقسموا الأندلس إلى كور ومدن، كان لها استقلالها الإداري عن العاصمة قرطبة، أي نظام الحكم الأندلسي كان نظام حكم لا مركزي يتمتع فيه ولاة الكور وقواد المدن بقسط كبير من النفوذ المحلي وحرية التصرف.

المظاهر الاجتماعية:

- الدين:

اتصف أهل الأندلس بالتدين والمحافظة على الشعائر الدينية إلا قلة، بدافع الاختلاط بين أتباع ديانات مختلفة. وقد تمتع المسيحيون واليهود، بمعاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد، حتى أن قضاياهم كان لهم حق الفصل بها بموافقة من السلطة الإسلامية العليا. فكان يسمح بتطبيق شرائعهم على يد قضاتهم الذين كانوا يعرفون بقضاة النصارى أو قضاة العجم، وتحت مسؤولية رئيس طائفتهم الذي كان يحمل لقب "القومس"، أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين، فكانت تعرض على القضاء الإسلامي، فكثرت كنائسهم في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى. ومن أشهر هذه كنائسهم أيام الخلافة، الكنيسة العظمى بقرطبة، ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط.

ولم تهدم الكنائس في الأندلس، إلا في حالات خاصة كأن تكون الكنيسة معقلاً للثورة على السلطة، كهدم بعض الكنائس خلال ثورة ابن حفصون. كما كانت الأناجيل أيضًا شائعة يطالعها المسيحي وغير المسيحي، وقد أفاد منها ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، حيث ذكر أنه كان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم.

كما ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم، فقد جرت العادة على تعيين السلطة لمن يتولى رئاستهم والذي كان يعرف بـ "الناجد" أو "الحاخام"، كما كان يتولى قضائهم بينهم شيخ اليهود فيما يخص أمورهم الخاصة وتشريعهم، ويكون هذا الشيخ نفسه هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية، وقد تمتع اليهود، في ظل هذه الحرية، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكان المسلمين.

أما عن المسلمين، فقد انتشر بينهم في البداية من مذاهب السنة مذهب الأوزاعي، إلى أن دخل المذهب المالكي إلى الأندلس في عهد هشام بن عبد الرحمن وسرعان ما أصبح المذهب السائد في عهد ابنه الحكم. كما وجد المذهب الشافعي سبيلاً إلى الأندلس في عهد محمد بن عبد الرحمن، وسعى فقهاء كبقي بن مخلد لنشره، إلا أنه لم يلق قبولاً في الأندلس. إلا أن مذهب آخر وجد سبيله إلى الأندلس في عهد محمد بن عبد الرحمن، ولقى استحسان الكثير من الأندلسيين، ألا وهو المذهب الظاهري واشتهر من أئمته في

الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي وابن حزم والحميدى. ومن الفرق الإسلامية الأخرى، كانت هناك محاولات في عهد عبد الرحمن الناصر لنشر المذهب الشيعي، إلا أن الأمويين قاوموا تلك المحاولات خوفاً من تغلغل نفوذ أعدائهم الفاطميين شيعيي المذهب إلى الأندلس، لذا فقد بائت تلك المحاولات بالفشل.

كما كانت هناك أيضًا محاولات لنشر مذهب المعتزلة في القرن الثاني الهجري، إلا أنه أيضًا لم يلق قبولاً، لميل أهل الأندلس في تلك الفترة للمذاهب التي تعتمد على النصوص كالمالكية، لا القياس العقلي كالمعتزلة.

- <u>الثقافة:</u>

نقلت الأندلس الثقافة الشرقية للغرب عندما اهتم عبد الرحمن الأوسط بنقل ثقافة الشرق إلى قرطبة، فأرسل وزيره القاضي عباس بن ناصح الجزيري إلى بغداد، ليجلب له الكتب القديمة. كما سار على دربه ابنه الحكم الذي وصل عدد الكتب في مكتبته إلى ٤٠٠,٠٠٠ كتاب.

ازدهر ألوان مختلفة من الأدب في عصر الخلافة الأموية ومنها فن الخطابة عند الأندلسين بهدف إثارة الحماسة وبث روح الجهاد ونشر الدين، نظرًا لأن عصر الخلافة كان عصر قتال مستمر سواء في مواجهة الثورات الداخلية أو الممالك المسيحية التي كانت تسعى لاسترداد الأراضي التي فتحها المسلمون. اتسمت الخطابة بسهولة العبارة والبعد عن السجع والإيجاز والبلاغة ووضوح المعاني، ولمع من الخطباء القاضي المنذر بن سعيد

البلوطي. كما نشط فن الرسائل التي تنوعت بين رسائل ديوانية تختص بمكاتبات الملوك والأمراء، ورسائل أدبية احتوت على مناظرات ومناقشات وقصص خيالية، أشهرها"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد، وإن كانوا قد تأثروا في رسائلهم بالمشارقة أمثال عبد الحميد الكاتب والجاحظ

وكما كان أثر الشرق واضحًا في الخطابة والرسائل، تأثر شعر الأندلس في عصر الخلافة بشعراء الشرق، فظهر أثر شعراء الزهد كأبي العتاهية على أشعار ابن أبي زمنين وابن عبد ربه وأبي بكر الزبيدي وغيرهم، وشعراء الغزل والمديح والفخر والحماسة كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وابن المعتز، والذين ظهر أثرهم جليًا في شعر يحيى الغزال وابن دراج القسطلي وابن هانئ. كما كان لانتقال أبو علي القالي من العراق للأندلس دورًا في ذيوع علوم اللغة وأشعار الشرق في الأندلس. غير أن الشعر الأندلسي في زمن الخلافة، ظل بلا إبداع محايًا لشعر الشرق وغير مصقول.

أما التأليف الأدبي، فقد تأخر ظهوره، إلا أنه عُرف منه كتب العقد الفريد لابن عبد ربه ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد وطوق الحمامة لابن حزم. أما علوم اللغة، فقد شهدت انتعاشه على يد أبي علي القالي الذي وفد من العراق وألقى دروسه في جامع قرطبة، والتي ضمها كتابه "الأمالي"، كما ألف كتاب "البارع" وكتاب "النوادر"، وكان من معاصريه ابن القوطية القرطبي الذي درس النحو.

لم تسبق الأندلس الشرق في ألوان الأدب إلا في الموشحات، والتي أصبحت بحلول القرن التاسع الميلادي أشهر أشكال الأدب في الأندلس، كما أنها تعتبر فن أندلسي خالص،ومن أشهر وشاحو عصر الخلافة عبادة بن ماء السماء.

- **العمارة:**

اهتم الأمويون بالعمارة في الأندلس فبنوا القصبات والحصون والأسوار والأبواب، وهو الشئ الذي كان يمثل إحدى الضروريات لما مرت به الدولة الأموية في الأندلس من ثورات داخلية وغزوات خارجية، كما اهتموا ببناء المساجد والقصور والحمامات والقباب والقناطر المائية التي زينوها بالزخارف والنقوش، مما جعل من الفن الأندلسي فنًا مستقلاً له خصائصه الخاصة التي تميزه. ورغم مرور نحو ألف عام منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، إلا أن ما زالت هناك العديد من الآثار الخالدة التي تشهد على عظمة فن العمارة الأندلسي في عصر الدولة الأموية في الأندلس. ويمكن تصنيف فن العمارة في عهد الدولة الأموية في الأندلس إلى عمارة دينية وعمارة مدنية:

- ✓ **العمارة الدينية:**

يعد الجامع الكبير في قرطبة دُرّة العمارة الدينية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فما زال خالدًا ليشهد على عظمة الفن الأندلسي في تلك الفترة. أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م محل كنيسة قوطية ليكون أعظم مساجد الأندلس. وقد أنفق عبد الرحمن الداخل ٨٠ ألف دينار على بنائه، واشترى أرضًا من النصارى بمائة ألف دينار ليضمها إلى الجامع، إلا أنه

مات قبل أن يكتمل بنائه، الذي اكتمل في عهد ابنه هشام. تمت توسعة الجامع عدة مرات في عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد بـن عبـد الـرحمن وحفيده عبد الله بن محمد والحكم المستنصر وأخيرًا محمد بن أبي عامر، حتـى بلغ عدد سواريه ١٤١٧[١] سـارية وثرايـاه ٢٨٠ ثُريّـة وأبوابـه ٢١ بـاب،وبلغ طولـه ١٨٠ م وعرضـه ١٣٥ م بارتفـاع ١٢ م. اسـتوحي بنـاء الجـامع مـن تصميم الجامع الأموي في دمشق،وكان يربطـه بقصرـ الخلافـة ممـرًا مسـقوفًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة بعيدًا عن أعين العامة. وقد أضيف الجـامع إلى مواقع التراث العالمي عام ١٩٨٤

ومن آثار العمارة الدينية أيضًا، مسجد إشبيلية الذي أمـر عبـد الـرحمن الأوسط ببنائه سنة ٢١٤ هـ/ ٨٣٠م، وفد تعرض المسـجد لـبعض الأضرار نتيجة غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤م، كـما تـأثر بزلـزال سـنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩م، إلا أنه وبعد سقوط المدينة في يد الإسبان سـنة ١٢٤٦م، تم تحويله إلى كنيسـة، وفي سـنة ١٦٧١م تـم هدمـه وبنـاء كنيسـة جديـدة في مكانه، ولم يبق منه إلا أجزاء مـن صـحن المسـجد ومئذنتـه، وبـاب المسـجد الرئيسي الذي يبلغ طوله ١٠ أمتار وعرضه ٥ أمتار، وهو الآن بباب الغفـران (بالإسبانية: Puerta del Perdón). ومن الآثار المعمارية الباقية أيضًا مسجد الباب المردوم بطليطلة الذي بناه قاضي طليطلة أحمد بن حديـدي سـنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩م، وقد تحول المسجد أيضًا إلى كنيسة باسم (بالإسبانية: Cristo de la Luz) بعد أن استولى ألفونسـو السـادس ملـك قشـتالة عـلى المدينـة عـام ١٠٨٥م.[١] والمسجد الجامع في مدينة الزهراء الذي بناه عبـد الـرحمن النـاصر سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤١م،والذي لا تزال أطلاله باقية إلى الآن.

العمارة المدنية:

وكما اهتم الأمويون بالعمارة الدينية، اهتموا أيضًا بالعمارة المدنية، فقد اعتنوا ببناء القصور كقصور الخلافة والرصافة والدمشق في قرطبة، وشيّدوا مدن للاستجمام كمدينة الزهراء التي أسسها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦م والزاهرة التي بناها محمد بن أبي عامر عام ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨م وقد ظلت الزهراء مقرًا لحكم الأمويين لأربعين عامًا في عهدي عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، إلى أن نقل ابن أبي عامر مقر الحكم إلى مدينته الزاهرة في عهد هشام المؤيد بالله. ضمت الزهراء قاعات احتفال ومساجد ودور حكومية وحدائق ودار لسك العملة وورش للعمال، وثكنات ومساكن للجند وحمامات، كما تم إمدادها بالمياه عبر قنوات، كما شيدوا الكثير من القصاب في العديد من المدن الأندلسية كقصبة ألمرية وبطليوس وجورماز التي بناها عبد الرحمن الداخل.

- الموسيقى:

نشط فن الموسيقى في الأندلس بوصول زرياب إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط وحظوته باهتمام الأمير، فهو يعد أبو الموسيقى الأندلسية، والذي وظّف فنه ليتوائم مع الأشعار والموشحات والأزجال الأندلسية. شجع عبد الرحمن الأوسط هذا الفن، وأسس واحدة من أولى المدارس الموسيقية في قرطبة، لتعليم المغنين والمغنيات فن الغناء،وأسماها "دار المدنيات". كما كان لإدخال زرياب وترًا خامسًا على العود، دوره في نشأة الغيتار الإسباني.

لعبت موسيقى الأندلس دورًا في نقل الالآت الموسيقية الشرقية للغرب، كالكمان الذي تطور من الربابة، ويظهر ذلك من المصطلحات الموسيقية ذات أصول عربية التي اكتسبتها الموسيقى الغربية، ككلمات "adufe" من الدف، "alboka" من البوق، "anafil" من النفير، "atabal" من الطبل، "atambal" من الطنبل.

العلوم:

كانت قرطبة مركز الأندلس الثقافي. لعبت قرطبة دورًا كمركز فكري في الأندلس، حيث كانت تترجم النصوص اليونانية القديمة إلى اللغات العربية واللاتينية والعبرية، إلا أنها لم تصل إلى نفس المستوى الذي وصلت إليه الترجمات في الشرق الإسلامي. فشهدت ازدهار في مجالات العلوم، فلمع من علماء الأندلس أسماء كثيرة في مختلف مجالات العلوم ففي الفلسفة لمع ابن مسرة وفي الطب الزهراوي الذي عدّه البعض "أبو الجراحة الحديثة" لما كان لكتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" من أثر على تطور علم الجراحة في أوروبا العصور الوسطى، وابن جلجل الذي برع في الصيدلة، وقد نقل ألبيرتوس ماغنوس بعض أعماله إلى الغرب. وفي الكيمياء المجريطي وعباس بن فرناس الذي استنبط صناعة الزجاج من الأحجار عن طريق معالجتها كيميائيًا،كما عرف أيضًا بأسبقيته في محاولة الطيران. وفي الرياضيات المجريطي وابن السمينة القرطبي وابن الصفار وأبي بكر بن عيسى. كما اهتم الأندلسيون بالتأريخ، فلمع منهم مؤرخون كعبد الملك بن حبيب السلمي الذي كان له كتاب في التاريخ كتاريخ الطبري وابن الفرضي صاحب كتاب

"تاريخ علماء الأندلس" وابن القوطية وابن حيان القرطبي كاتب المنصور بن أبي عامر وصاحب كتاب المقتبس.

الاقتصاد:

كان اقتصاد الخلافة متنوع ومنتعش، حيث اعتمد في الأساس على التجارة، وقد كانت طرق تجارة الأندلس تمتد مع بقية بلدان البحر المتوسط، كما كان للدينار القرطبي قوته الاقتصادية في كل الأندلس وبعض بلدان أوروبا منذ أمر عبد الرحمن الداخل بسكّه، فكانت المبادلات التجارية تتم بالدينار العربي ودينار بيزنطة ودينار غالة الذي سكّه شارلمان. وقد تنوعت مصادر دخل الخلافة فشملت فكانت الضرائب المفروضة على البضائع التي تمر على موانئ الأندلس وخراج الأراضي والجزية المفروضة على الذميين وغنائم الحروب والضرائب الاعتيادية. وتنوعت مجالات الصناعة خلال عصر الخلافة من صناعة المنسوجات والسجاد والسكر والأواني الزجاجية والورقوالتماثيل والتحف المعدنيةوالسفن والمعادن حتى ذاع صيت طليطلة كمركز رئيس لصناعة الأسنّة والرماح والسيوف وغيرها من الأسلحة في عهد عبد الرحمن الأوسط. كما نشطت أيضًا الزراعة، وأدرّت عائدات مربحة على الخلافة. كانت أيضًا الجزية المفروضة على سكان الخلافة من اليهود والمسيحيين من مصادر دخل الخلافة. وقد أدخل العرب محاصيل جديدة، مثل النخيل والرمان والنارنج والقطن والأرز واللوز والتين والدراق والموز والزعفران والكتان وقصب السكر والمشمش[1] والأرز والبطيخ والباذنجان والقمح، كما حسّنوا أنظمة الري باستخدام القنوات المائية والنواعير وإقامة الجسور والقناطر.

المجتمع:

كان المجتمع الأندلسي خليطًا من أجناس مختلفة؛ فهناك العرب والبربر الذين شاركوا في الفتح الإِسلامي أو نزحوا من الشمال الإِفريقي، وهناك سكان الأندلس الأصليون من الأسبان الذين اعتنقوا الإِسلام، وكذلك أصناف أخرى كالصقالبة واليهود. **وقد كانت أقسام المجتمع الأندلسي كالآتي:**

١. **العرب:** انقسموا إلى عدنانيين وقيسيين وقحطانيين يمنيين، وكانوا يمثلون النخبة الارستقراطية بالمدن بيدهم سدة الحكم، فتقلدوا مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرطة والحسبة وبيت المال وضرب السكة أما عامتهم فكانت حرفتهم الزراعة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما، وبيع العطر والشمع والفاكهة والخضر والخبز.

٢. **البربر:** وقد نشط عامة البربر في الحواضر في عديد من الحرف اليدوية والبناء والتجارة.

٣. **الصقالبة أو الموالي:** هم الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود من أسرى حروب الجرمان مع الصقالبة، وباعوهم في الأندلس. وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة، حيث كانوا يستخدمون كخدم وجنود، وصار لهم تأثير كبير، خصوصًا وأنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار، وقادة الجيوش، وكان لهم قول

مسموع في نساء القصر ولدى أهل السلطة. واستخدموا أحيانًا في قمع الثوارت، كما اشتغلوا في الصنائع اليدوية والتجارة.

٤. **المستعربون** (Los Mozarabes): هم المسيحيون الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن المفتوحة، وخلال الحكم الأموي كله اعتمد عليهم الأمويون في إدارة شئون البلاد الاقتصادية وتنظيم الدولة. أما عوامهم فقد امتهنوا الزراعة وتربية الماشية والصيد. وقد تأثروا بالعرب حتى أنهم تكلموا لغة منطوقة مزجت بين اللغة العربية واللاتينية القديمة، والتي ظلت تستخدم كلغة منطوقة حتى القرن الرابع عشر.

٥. **المولدون**: هم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام وأبناء العرب والبربر من أمهات إسبانيات، ومع مرور الوقت استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفًا على الأستقراطية العربية، كما عملوا بالتجارة.

٦. **اليهود**: تولوا مناصب إدارية، فكانوا يدبرون أمور الاقتصاد وتنظيم الدولة، وقد امتهنوا تجارة العبيد والحرير والتوابل.

في ظل هذا التنوع العرقي والديني تحت سلطة إسلامية متسامحة، امتزجت العناصر المختلفة للسكان وتزاوجوا فيما بينهم، فظهر عنصر كالمولدين. غير أن هذا التمازج أيضًا كان سببًا في نشوء بعض الثورات ذات النزعة العرقية.[٦٣]

فترة الإمارة:

الترتيب	الأمير	فترة الحكم
١	عبد الرحمن الداخل	١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ (٧٥٦م - ٧٨٨م)
٢	هشام الرضي	١٧٢ هـ - ١٨٠ هـ (٧٨٨م - ٧٩٦م)
٣	الحكم المرتضى	١٨٠ هـ - ٢٠٦ هـ (٧٩٦م - ٨٢٢م)
٤	عبد الرحمن الثاني	٢٠٦ هـ - ٢٣٧ هـ (٨٢٢م - ٨٥٢م)
٥	محمد بن عبد الرحمن	٢٣٧ هـ - ٢٧٢ هـ (٨٥٢م - ٨٨٦م)
٦	المنذر بن محمد	٢٧٢ هـ - ٢٧٥ هـ (٨٨٦م - ٨٨٩م)
٧	عبد الله بن محمد	٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ (٨٨٩م - ٩١٢م)

فترة الخلفاء:

الترتيب	الأمير	فترة الحكم
٨	عبد الرحمن الناصر	٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ (٩١٢م - ٩٦١م)
٩	الحكم المستنصر بالله	٣٥٠ هـ - ٣٦٦ هـ (٩٦١م - ٩٧٦م)
١٠	هشام المؤيد بالله	٣٦٦ هـ - جمادى الآخر ٣٩٩ هـ (٩٧٦م - فبراير ١٠٠٩م)
١١	محمد المهدي بالله	جمادى الآخر ٣٩٩ هـ - شوال ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩م - يونيو ١٠٠٩م)
١٢	سليمان المستعين بالله	شوال ٣٩٩ هـ - ذو القعدة ٤٠٠ هـ (يونيو ١٠٠٩م - يونيو ١٠١٠م)

١١-٢	محمد المهدي بالله	ذو القعدة ٤٠٠ هـ - ذو الحجة ٤٠٠ هـ (يونيو ١٠١٠م - يوليو ١٠١٠م)
٢-١٠	هشام المؤيد بالله	ذو الحجة ٤٠٠ هـ - شوال ٤٠٣ هـ (يوليو ١٠١٠م - أبريل ١٠١٣م)
٢-١٢	سليمان المستعين بالله	شوال ٤٠٣ هـ - محرم ٤٠٧ هـ (أبريل ١٠١٣م - يوليو ١٠١٦م)
١٣	عبد الرحمن المرتضى	ذو الحجة ٤٠٨ هـ - ذو الحجة ٤٠٨ هـ (أبريل ١٠١٨م - مايو ١٠١٨م)
١٤	عبد الرحمن المستظهر بالله	رمضان ٤١٤ هـ - ذو القعدة ٤١٤ هـ (ديسمبر ١٠٢٣م - يناير ١٠٢٤م)
١٥	محمد المستكفي	ذو القعدة ٤١٤ هـ - ربيع الأول ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٤م - مايو ١٠٢٥م)
١٦	هشام المعتد بالله	محرم ٤١٨ هـ - ٤٢٢ هـ (أبريل ١٠٢٧م - ١٠٣١م)

- **أول أمير أموي على الأندلس "عبد الرحمن الداخل":**

لم تكن تمض سوى ست سنوات على سقوط الدولة الأموية في المشرق حتى رفرفت رايتها من جديد في شبه الجزيرة الإيبيرية التي أضحت كما يرى المستعرب الإسباني بيدرو تشالمتا «منطقة أموية، محافظة على التقاليد الأموية لسنوات طويلة امتدت إلى عصر الطوائف على عكس مناطق أخرى في العالم الإسلامي ...والأسباب سياسية، فكانت أعضاء أسرة عبد الرحمن

الداخل قتلوا على يد العباسيين، وكان من الطبيعي أن يرغب في إعادة الدولة الأموية، أو دولة مروانية جديدة، من هنا كان إتباع التقاليد الأموية في الأندلس.

استطاع عبد الرحمن الداخل صقر قريش أن يؤسس في قرطبة إمارة أموية مستقلة .وقد حفز نجاحه في ذلك كثيراً من الأمويين على أن يهاجروا إلى الأندلس، فكان يعهد إليهم بأرقى المناصب، وكان سروره لا يقدر «حين وفد عليه في ذلك الحين أهل بيته من بني أمية ومن بينهم عبد الملك بن عمر بن مروان، وكان يجله ويجعله في مقام الوالد، كما دخل عليه جزي بن عبد العزيز بن مروان، وكان رجلاً خيراً فاضلاً قد سلك مسلك أخيه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، ودخل عليه في زمان سابق حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك، وكان قريباً إلى قلب عبد الرحمن».

ترسّخت أقدام الأمويين في الأندلس، فعمل قائدها على إرساء نظام الحكم رغم الظروف العصيبة والخطيرة، وسهر على وحدة البلاد وسلامتها بقوة وذكاء وبعد نظر، وأن يدر عنها خطر نصارى الشمال والفرنج. وكان أول الخوارج عليه القاسم بن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغساني. وكان القاسم قد فر من طليطلة فسار إلى الجزيرة الخضراء والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة واستولى بمعونة حليفه على شذونة، ثم سار في قواتهما إلى إشبيليا واحتلاّها، فبادر عبد الرحمن في قواته إلى إشبيليا ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده، ودخل عبد الرحمن إشبيليا ظافراً سنة ١٤٣ هـ.

أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة وبعث عبد الرحمن في أثره تماماً والي طليطلة، فطارده حتى أسره ومزق قوته.

ظلت إشبيلية لسنوات من حياة عبد الرحمن معقلاً للعصاة ودعاة الفتنة وأهل الخلاف، وقد بدأ ذلك منذ رزق بن النعمان، وثورة عبد الغفار بن حميد اليحصبي، وثورة حيوة بن ملامس الحضرمي. إضافة إلى ثورات أخرى وقعت في جهات متعددة قادها ثوار عرب وبرابرة. كثورة والي الجزيرة الخضراء الرماحس بن عبد العزيز الكناني سنة ١٦٤ هـ وثورة الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة بسرقسطة .فقد ثار في سنة ١٦٥ هـ وخلع طاعة عبد الرحمان وشايعه سليمان بن يقظان الأعرابي. كما ثار من البربر سفيان بن عبد الواحد المكناسي (الفاطمي نسبة إلى أمه فاطمة) في منطقة (شنتبرية (*Santaver*)وكانت أخطر الثورات التي هددت عبد الرحمن الداخل وأطولها إذ استمرت من سنة ١٥١ هـ إلى ١٦٠ هـ، وقد امتدت ما بين (ماردة/ (*Merida*و(قورية (*Coria* / غرباً إلى ثغور (وادي الحجارة / (*Guadalajara*و(كونكة (*Guenca* / شرقاً أي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة. وقد سير عبد الرحمن الداخل جيوشاً كثيرة لمحاربته إلى أن قضى عليه وقتله سنة ١٦٠ هـ/ ٧٦٦م. ولعل هذه الثورة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي، إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بنحو عشرين سنة. ولسنا نعلم شيئاً مفصلاً عن تعاليم هذا الثائر إلا أن ابن عذاري يسميه (الداعي الفاطمي) وربما دل هذا على أنه كان يدعو

لغيره بالخلافة بينما عبد الرحمن لا يزال يتابع نضاله ضد أعدائه الـذين تكالبوا عليه وضد أصدقائه الذين غدروا به. كان زمام الأمور في أوربا قـد صار قسـمة بـين الـروم والفرنجـة الـذين آلـت إلـيهم زعامـة أمـم الغـرب والنصارى في أقطارهم كافة، وكان من حظ عبد الـرحمن أن يواجـه الفـرنج ويكسر شوكتهم وعدوانهم، وخصوصاً بعـد تحـالف بعـض زعـماء العـرب معهم. فقد ذهبوا إلى شارلمان، وعرضوا عليه أن يتحـالف معهـم ضـد أمـير الأندلس، فلـم يتـوان لحظـة في الموافقـة عـلى اقـتراحهم، لأنـه كـان يتطلـع لفتوحات جديـدة بعـد أن فـرغ مـن السكسـون، فوجـدها فرصـة مواتيـة لتحصين حدود مملكته مـن جهـة الجنـوب، والـتمكن مـن مراقبـة تحركـات المسلمين العسكرية، والتدخل عن كثب في شؤون المسـلمين بحكـم الجـوار، وبحجة رعاية المصالح المشتركة في الولايـات الشـمالية، فكانـت المواجهـات الشهيرة بينه وبين عبد الرحمن كان الانتصار حليف هـذا الأخـير في النهايـة، وانتهت مطامع الفرنج في بلاد الأندلس.

وهكذا خرج عبد الرحمن الداخل منتصراً في جميع المعارك التي خاضها ضد أعدائه، وأثار إعجابهم بنجاحه. فقد قضى ثلاثة وثلاثين عاماً «في كفـاح مستمر. وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة، أن يطمـح فتـى شريـد، يعمل القتل الذريع في أسرته وعصبته، وحيد ليس له أنصار ولا صحب، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند، وأن يخضع ذلك القطر في حـروب لا يخمد أوارها، وسيول من الدماء لا تنقطع، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة»

وقد لخص ذلك في أبيات شعرية من نظمه يقول فيها:

شتان من قام ذا امتعاض ... منتضى الشفرتين نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ... مسامياً لجة ومحلا
دبر ملكاً وشاد عزاً ... ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ... مصر المصر حين أخلا
ثم دعا أهله إليه ... حيث انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع ... شريد سيف يخاف قتلاث
فنال أمناً ونال شبعا ... ونال مالاً ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا ... أعظم من منعم ومولى؟

إنها فعلاً قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها. أسس الخلافة القرطبية وزاحم المنصور العباسي على الخلافة، وعاصر ملك الفرنج شارلمان وحاربه وسمي بصقر قريش لقوة بأسه وشجاعته. «أقام للملك هيبته وأخذ للسلطان عدته حتى بات يخشى جانبه ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس فتشجع وقطع الدعوة للخليفة المنصور العباسي وآله من فوق منابر الأندلس».

حكم نحو ثلاثة وثلاثين عاماً (توفي سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٧ م)، وله حظوة خاصة لدى الإسبان كتاباً وشعراء ومسؤولين، بل ومواطنين عاديين

وقد صدرت بشأنه في إسبانيا عدة كتب ودراسات، وعقدت حوله الندوات واللقاءات في مناسبات شتى. هذه الشخصية التي استحوذت على قلوب الإسبان قد توج الإعجاب الجماعي بها بإنتاج فيلم سينمائي مطول حول حياة هذا الأمير يحمل اسم (الأندلس طريق الشمس) وقد تم تصويره بمنطقة (أرفود) بجنوب المغرب، والذي تم عرضه بإسبانيا سنة ١٩٨٩ م.

ويذكر الحميدي في "جذوة المقتبس" أن أول من أدخل مذهب الإمام مالك إلى الأندلس هو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون المتوفى سنة ٢٠٤ هـ (على خلاف في وفاته) ثم تلميذه الفقيه الطنجي الأصل يحيى بن يحيى الليثي (توفي ٢٣٤ هـ) الذي لقبه مالك «بعاقل الأندلس» «وإليه انتهت الرياسة بالفقه بالأندلس، وبه انتشر مذهب مالك هناك، وتفقه به جماعة لا يحصون، وروى عنه غير واحد، منهم إبناه عبيد الله وإسحاق، وأبو عبد الله محمد بن وضاح، وزياد بن محمد ابن زياد شبطون. »

ويرى ابن خلدون أن سبب تجاوب أهل الأندلس والمغرب مع مذهب وفقه مالك هو تشابه طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد مع طبيعة أهل المغرب والأندلس «فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس... وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته، وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس. ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب، ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه، ولم يكن

لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذاهب إمامهم ويعلق الدكتور أحمد مختار العبادي على ذلك قائلاً: «فعقلية أهل الأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث في التفكير. حتى قيل إنهم لا يعرفون سوى كتاب الله و"موطأ" مالك، بل إن بعضهم ذهب في هذا المضمار إلى أقصى حدود التقييد وهم أصحاب المذهب الظاهري وزعيمهم الفقيه أبو محمد بن حزم.. فعقلية أهل الأندلس كان يلائمها هذا النوع من التفكير والإنسان دائماً يفضل ما يلائم مزاجه العقلي. ويرى المقدسي أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوماً بين يدي الأمير هشام فقال لهم: من أين كان أبو حنيفة؟ فقالوا من الكوفة. فقال: ومالك؟ قالوا من المدينة، قال: عالم دار الهجرة يكفينا. فأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال: لا أحب أن يكون في عملي مذهبان».

- الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦ هـ) وثورة المولدين والربض:

آلت إليه الولاية بعد وفاة أبيه هشام. وكان صارماً حازماً، شجاعاً، مستنيراً، وافر العزم، واسع الحيلة، نافذ الرأي والحزم، يباشر الأمور بنفسه. «وكان مع نجدته وعزة نفسه متواضعاً للحق، منقاداً للإنصاف من نفسه فضلاً عن ولده وسائر خاصته، يتخير لأحكامه أروع من يقدر عليها وأقضاهم للحق». فهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأول من أنشأ بها بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معاني الكلمة، ورتب نظمه ورسومه، وأقام له بطانة ملوكية فخمة، فاستكثر من الموالي والحشم، وأنشأ الحرس الخاص

والجواسيس ونظم الشرطة، وفي عهده أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شؤون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس (*Comes*).

وعلى الجملة فقد كان أميراً عظيم السلطة والهيبة يسطع بلاطه، كما تسطع خلاله، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته. وقد شبهه بعضهم (ابن خلدون وابن الأثير والمقري) بأبي جعفر المنصور في قوة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء واتسم عهده بكثرة الفتن والحروب، أولها مواجهة ثورة أعمامه: سليمان وعبد الله اللذين حاولا انتزاع الملك منه، فانتصر عليهما. ثم الثورات الخطيرة التي قام بها المولدون في طليطلة وقرطبة وماردة وسرقسطة، والتي كادت أن تطيح بإمارته بسبب ميولهم الانفصالية عن السلطة المركزية بقرطبة، والتي كانت سبباً في تأخره عن الرد على استفزازات الممالك المسيحية في الشمال وخصوصاً بعد استيلائهم على مدينة برشلونة، وهجوماتهم على منطقتي اشتورياس وطرطوشة. «وقد نمت هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة بسرعة كبيرة حتى صارت تؤلف الكثرة الغالبة من سكان الأندلس. فكان منهم التجار والمزارعون وأهل الحرف المختلفة والطلبة والفقهاء وغيرهم، وبمضي الوقت شعر هؤلاء المولدون بنقص في حقوقهم العامة رغم كونهم أهالي البلاد الأصليين، وإنهم يتحملون عبء المغارم (الضرائب) دون أن يكون لهم نصيب في ثروات البلاد ومناصبها الرئيسية التي كانت حكراً على الطبقة الاستقراطية العربية الحاكمة»

وبرزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس، مثل: بني قسي، وبنو حفصون. ويصفهم المستعرب الإسباني (سيمونت (*Simonet* بأنهم كانوا بعد اندماجهم في المجتمع الإسلامي أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم. وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة، واتخذوا منها ألقاباً، فهناك ابن بشكوال *(Ibn Pascual)*صاحب كتاب "الصلة"، وبنو قومس (*Banu Comes*) وبنو مرتين (*Banu Martin*) وبنو غرسية .(*Banu Garcia*) وآخرون كثيرون. وبعضهم عرب اسمه اللاتيني، فأصبح (*Felix*) يدعى سعيداً و (*Victor*) يدعى الظاهر، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي. فاسم *Moises* أصبح موسى و (*Jesuis*)عيسى وهكذا.

✍ **ولعل أخطر ثورات هؤلاء هي:**

ثورة طليطلة حاضرة القوط القديمة:

فقد استخف مولدو هذه المدنية بالأمير الحكم، ومالوا إلى الانفصال عنه في ثورتهم التي قاموا بها سنة ١٨١ هـ. فكان لهم بالمرصاد، حيث أنزل بهم بواسطة وليه عمروش بن يوسف المذبحة الشهيرة)بالحفرة) التي راح ضحيتها المئات. وكانت ضربة قاسية لطليطلة جردتها من زعمائها وأعيانها ووجهائها، وكانت حسب بعض المؤرخين سنة ١٩١ هـ/ ٨٠٧ م.

ثورة الربض بقرطبة. (والربض كلمة عامة تعني الضاحية أو الحيا) :

وكانت تقع على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير في مقابلة قرطبة حيث فصلها جسرها الشهير. وكان يزدحم في سكناه بأخلاط من الطبقة الكادحة، من أهل الحرف المختلفة، ومن طلاب العلم. وقد استطاع هؤلاء

أن يتوحدوا ضد الأمير الحكم، فأعلنوا ثورتهم عليه «والتي كادت أن تحمل الحكم وعرشه وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة، وقد أدرك الحكم خطورتها، ولم تأخذه في إخمادها هوادة ولا رأفة، وأصدر عقب ذلك كتاباً إلى الكور (الولايات) يشرح فيه الواقعة وظروفها».

وأمر الحكم بعد ذلك بهدم الربض وحرث أرضه وزراعتها، كما أمر من بقي من الربضيين بترك البلاد في الحال. واضطر عدد كبير منهم إلى عبور المضيق نحو المغرب والآخرون اختاروا التوجه إلى الإسكندرية ومنها إلى جزيرة (قريطش). أما الذين وصلوا المغرب فقد استقروا بداية في قبائل الريف بالشمال. ثم استدعاهم المولى إدريس الثاني للإقامة في مدينة فاس عاصمة الدولة الإدريسية الفتية «فاستجابوا لطلبه وانتقلوا إلى فاس ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا من أهل الحرف والصناعات والزراعة، فأعطوا المدينة طابعاً أندلسياً جميلاً سواء في صناعتها أو أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواشها». ومنذ تلك اللحظة أصبح اسم الحكم مقروناً باسم هذا المكان فسمي (بالحكم الربضي).

ورغم ما تميز به عصره من اضطرابات وفتن، فقد ازدهرت فيه الآداب والعلوم، وبرز عدد جم من الكتب والأدباء والشعراء، لعل أبرزهم هو القاسم عباس بن فرناس الذي برع في الفلسفة والكيمياء والفلك والموسيقى والشعر والأدب، وكان أول من استخلص صناعة الزجاج من الحجارة

بالأندلس وأول من حاول أن يخترع أداة للطيران بها. وقد طفت شهرته أكثر في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني بحيث كان أول من أخذ عنه علم العروض بالأندلس. ثم الشاعر الشهير يحيى بن الحكم المعروف بالغزال)حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها) كما يسميه ابن حيان، فهو زيادة على شهرته كشاعر جزل مطبوع، فقد عرف بأصالة الرأي، وحسن التدبير واللباقة والدهاء .فقد بذ الشعراء، وانتقد الفقهاء، وشغل المؤرخين والمفكرين والرواة والروائيين. وفي سيرته دروس وعبر.

وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة في عهد عبد الرحمن الثاني (وقد عايش خمسة أمراء بني أمية). والشاعر الفيلسوف واللغوي عباس بن ناصح الثقفي الجزيري الذي ولاه الحكم قضاء الجزيرة الخضراء مسقط رأسه، وحظي بمنزلة خاصة لديه هو وولده الشاعر عبد الوهاب بن عباس. ومن النساء الشاعرة حسانة التميمية التي وفدت على الحكم من ألبيرة (غرناطة) واستحسن شعرها، فجهزها بجهاز حسن. يرى الدكتور أحمد هيكل أنها فيما يعلم أولى الشواعر الأندلسيات وأسبقهن إلى قرض الشعر. وشعرها كما يبدو، مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون، وهو على جانب كبير من النضج الفني. وفيه بعض تلك البسمات الأندلسية المميزة، فهو شعر يتسم بالتجويد الفني وبالتركيز العاطفي. ويتسم بالأصالة والصدق وقد اهتمت الباحثة الإسبانية (كلاراخانيس) بواقعية الشاعرات العربية الأندلسيات، حيث ذهبت إلى

القـول بـأن الـتمعن في الشـعر النسـائي الأندلسي- أمـر يبعـث عـلى الإعجاب والاندهاش، ويثير دهشة الغرب سـواء لـدى القـراء أو البـاحثين نظراً لما تتضمنه هذه الأشعار من حرية التعبير التي لا يمكن أن تقارن سـوى بحرية التعبير الموجـودة في الوقـت الـراهن. وأن المكانـة التـي بلغتهـا المـرأة العربية في المجتمع الأندلسي لم تدركه زميلتها المسيحية في ذلك الوقت.

وأجـرت مقارنـة بـين الشـاعرات العربيـات بالأنـدلس وشـاعرات إسبانيات عشن في عهود مواليـة للعهـد الأندلسي-، إلا أن قصـب السـبق في معالجة الموضـوعات بواقعيـة وذكـاء مـع دقـة الملاحظـة وعمـق المضـمون وخصوبة المعنى وجمال المبنى، كل ذلك كان من نصيب الشاعرات العربيـات في الأندلس.

وقد توفي الحكم وهو في الثانية والخمسـين مـن عمـره في ٢٦ مـن ذي الحجة سنة ٢٠٦ هـ/ ٢٢ مايو سنة ٨٢٢ هـ ليتولى بعده ولده عبد الرحمن.

الفصل الخامس

الخليفة الأول (معاوية بن أبي سفيان)

اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام أبو عبد الرحمن، القرشي الأمويُ المكي ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته : إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند : قومه فقط، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لما تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه: قالت : لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه.

نسبه:

الاسم الكامل معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي . ولد عام ٦٠٢ م وتوفى في ٦ مايو ٦٨٠ م،

أبوه:

أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن

عدنان. وابنته هي أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان. وأبو سفيان من سادات قريش وواحد من ذوي الرأي والحكمة في مكة.

أمه:

هند بنت عتبة بنت ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ـ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي أخت الصحابي الجليل أبو حذيفة بن عتبة، وتجتمع مع أبو سفيان في عبد مناف بن قصي.

إسلام معاوية رضي الله عنه وشئ من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم يوم الفتح هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية ـ أي عمرة القضاء سنة ٧ هـ ـ ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك،فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له: لم آل نفسي جهد، ولقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه،وشهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً وأعطاه مائة من الأبل وأربعين أوقية من الذهب وقد ذكر العلماء لمعاوية رضي الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

اشترك معاوية رضي الله عنه في غزوة حنين قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٦] ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى: قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠] ومعاوية رضي الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما.

أخرج البخاري من طريق أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبي ﷺ أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال :لا

قال المهلب معلقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر. وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل، وكتابة معاوية للوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتاح له لون من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم ﷺ ، والأخذ المباشر منه.

أعماله في خلافة أبو بكر:

تولى قيادة جيش إمداد لأخيه يزيد بن أبي سفيان في خلافة أبو بكر، وأمره أبو بكر بأن يلحق به فكان غازياً تحت إمرة أخيه، وقاتل المرتدين في معركة اليمامة، ومن بعد ذلك أرسلهُ الخليفة أبو بكر مع أخيهِ يزيد لفتح الشام وكان معه يوم فتح صيدا وعرقة وجبل وبيروت وهم من سواحل الشام.

البداية السياسية:

بدأ نجم معاوية رضي الله عنه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه فقد ولاه فتح قيسارية سنة خمس عشرة للهجرة، وجاء في كتاب توليته له.

أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير، كانت هذه المهمة الجسيمة اختبار كبير من عمر لمعاوية في ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبي سفيان ـ أحد ولاة الشام لعمر رضي الله عنه وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد،فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف وبعث بالفتح والأخماس على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وقد أثبت معاوية بعد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق

مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديد، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد، ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا تجعلهم يفكرون في المقاومة فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك بعد القدس.

جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية في أمرين هما: سن نظام الصوائف والشواتي، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام.

أقوال الصحابة في الخليفة معاوية بن أبي سفيان:

وهنا نأتي لولاية معاوية رضي الله عنه ونذكر بعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم في معاوية رضي الله عنه:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال عمر بن الخطاب عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر : يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك: قال يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا ولهم

عيون وجواسيس أفأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر : إن هذا لكيد رجل لبيب، أوخدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال : ويحك : ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك.

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية فوالله لئن فقد تموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل. فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

عبد الله بن عباس رضي الله عنه: قال رضي الله عنه : ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية، وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة قال : إنه فقيه وذكر بن عباس معاوية فقال : لله درَّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضَّناً منه بأحسابنا وحسبه وحين عزى معاوية بدالله بن عباس في الحسن بن علي بقوله : لا يخزيك الله ولا يسوؤك في الحسن فقال : له ابن عباس : أما ما أبقى الله لي أمير المؤمنين، فلن يسؤني الله ولن يخزيني-

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال رضي الله عنه : ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعني: معاوية.

أبو هريرة رضي الله عنه: كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية أاللهم لا تدركني إمارة الصبيان.

عبدالله بن المبارك- رحمه الله : قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم يعني الصحابة وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سمع الله لمن حمده. فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل أَيُّها أفضل؟ هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز رحمه الله.

قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال : ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضربه أسواطاً أحمد بن حنبل- رحمه الله:سئل الإمام أحمد : ما تقول رحمك الله فيمن قال : لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصباً؟

قال أبو عبدالله: هذا قول سوءٍ رديء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس الربيع بن نافع الحلبي رحمه الله.

قال: معاوية ستر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ماوراء -.قال ابن أبي العز الحنفي: وأول ملوك المسلمين معاوية وهو خير ملوك المسلمين. القاضي بن العربي المالكي: رحمه الله.

تحدث ابن العربيِّ عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها : قيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوِّ وسياسة الخلق، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم:

فعمر ولاه، وجمع له الشَّامات كلّها، وأقرَّه عثمان، بل إنَّما ولاه أبو بكر الصَّديق، لأنَّه ولي أخاه يزيد أواستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استكتبه ,.ثمَّ صالحه وأقرَّ له بالخلافة الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن تيمية – رحمه الله : واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية عقليته الفذه وقدرته على الاستيعاب.

امتاز معاوية رضي الله عنه بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل مايمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها.

وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمر رضي الله عنه الشام، فكانت ولا يته على الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنه خليفةهذه الفترة الطويلة التي تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدينة اكسبتة خبرة في سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التي تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع، يقول الشيخ الخضري : أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته في الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام ومن المعلوم أن

السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلي، ولمعاوية في ذلك نصيب وافر -رضي الله عنه- وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة [1] وهذه طريقه مع الملوك والسوقة الشورى في عهد معاوية رضي الله عنه.

لم يكن معاوية بن أبي سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها، وما كان يصد في المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوي الرأي من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم.

وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بني أمية، كان من كبار مستشاري معاوية رضي الله عنه عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التي كانت تأتيه، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها ويحقق ما يمكن تحقيقه منها والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين، أطلقت يدهم في العمل، هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين علي على منابر الدولة الأموية؟الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا علي بن محمد، عن لوط بن يحي، قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضي الله عنه، فلما ولي هو ـ عمر بن عبد العزيز ـ أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعي:وليت فلم تشتم علياً ولم تخفبرياً ولم تتبع مقالة مجرم تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم فصدَّقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم فهذا الأثر واهٍ، فعلي بن محمد

هو المدائني فيه ضعف وشيخه لوط بن يحي، واهٍ بمرة، قال عنه يحي بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطني: أخباري ضعيف ووصفه في الميزان: أخبار تالف لا يوثق به، وعامة روايته ع الضعفاء والهلكى والمجاهيل، وقد اتهم الشيعة معاوية رضي الله عنه بحمل الناس على سب علي ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التي لا مجال لمناقشتها، ولم يثبت قط في رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري، واليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، فحاكيه لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيؤوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي.

جهاده رضي الله عنه من شهرته كمجاهد موفق في البر والبحر منذ عهدأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وكان له فتوحاته الكبرى في الساحل الشمالي للشام، كما أن له الفضل ـ بعد الله ـ في تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم في البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة في تاريخ

المسلمين، فالجهاد في سبيل الله أصل في حياة المسلمين في عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هي الدافع للقيادة الإسلامية الرئيسي- نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ (منكم من يريد الدنيا) وغيرها ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين في فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التي كان يتبناها الخليفةوالقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيهاالعام، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة في ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد في سبيل الله، وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً وهي التي كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهي إلى تقدم، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاثة الكبرى التي توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة لقد أعطى المجاهدون المسلمون في العهد الأموي صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله في جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامة الجند، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين الذين فهموا عبادة الجهاد، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسي، وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفي جميع مراحل الجهاد يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامي للفتوحات في العهد الأموي، وينفي الغبش الذي يثيره المنحرفون عن بني أمية على أنصع

منجزاتهم وأحراها بالفخروالإعزاز، ومما شك فيه إسلامية الفتـوح في العهد الأموي، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب ـ عبر امتداده هذا ـ الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعـزّز في الوقـت نفسـه منجـزات الموجـة الأولى في حركة الفتح التي قادها وخطـط لهـا الخلفـاء الراشـدون، فالموجـة الثانية لحركة الفتوح هي التي بدأت في عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعـد لكي تبلغ أقصى اتساعها في عهد الوليد.

لا شـك في أن معظـم إنجـازات الأمـويين الباقيـة عـلى الـزمن تلـك الفتوحات التي تمت في عهدهم، والتي شملت مناطق عديدة في قارات العالم القديم ـ آسيا وأوروبا وأفريقيا ـ ففي آسيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر وهي المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، وإقليم السـند، بالإضـافة إلى تثبيت الفتح في المناطق التي كانت قد فتحت في عهد الخلفـاء الراشـدين، وبصفة خاصة في فـارس، فقـد كانـت خراسـان وسجسـتان وجرجـان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان كثيرة الانتقاض والارتداد، فـأبلى الأمويـون بلاءً حسنًا في تثبيت دعائم الإسلام في هذه البلاد حتـى أصـبحت مـن أهـم ركائز العالم الإسلامي.

وفي أفريقيا فتح الأمويون شمال القارة بأكملها من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي، وفي أوروبا فتحـوا شـبه جزيـرة أيبريـا ـ الأنـدلس ـ وأجزاء من جنـوب فرنسـا، كـما اسـتولوا عـلى العديـد مـن الجـزر في شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط، ثم واصلوا ضغوطهم على القسطنطينية

عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرة وحاولوا الاستيلاء عليه، وإن كانت محاولتهم لم تنجح في إسقاطها إلا أنهم نجحوا في جعل الدولة البيزنطية تعيش في حالة دفاع عن النفس ولم تكن هذه الفتوحات مجرد فتوحات عسكرية لاستغلال الشعوب على نسق الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث، وإنما كان هذا فتحًا دينيًا، ولغويًا وثقافيًا.

فقد كان الغزو أيام معاوية رضي الله عنه يشمل مناطق واسعة تمتد من المحيط الأطلسي في غربي إفريقية إلى البحر الأبيض المتوسط كله، وتساير ذرا جبال طوروس، وبلاد القفقاس وبلاد ما وراء النهر، وطخارستان، والأفغان، لتصل إلى بلاد السند فسواحل المحيط الهندي على بلاد الهند، **وهي مع هذا الامتداد العظيم تشمل جبهتين رئيستين هما:**

١. الجبهة الغربية: التي تضم مناطق الروم.

٢. الجبهة الشرقية: التي تضم مجموعات وثنية في شمال وشرقي الدولة الإسلامية.

الجبهة الغربية: وتشمل مناطق الروم والمناطق التي يسيطرون عليها سواء أكانت في البر مثل: أفريقية ومنطقة الأناضول أم في البحر الذي كان آنذاك البحر المتوسط الذي يسيطر عليه الروم، ويعرف وقتذاك ببحر الروم، ثم جاء المسلمون ينازلونهم فيه.

وقد لاحظنا أن الدولتين الكبيرتين اللتين كانتا في صراع دائم عند ظهور الإسلام قد وقفتا في وجه الدعوة الجديدة إلا أن دولة الفُرْسِ قد انتهت وزالت من الأرض أمام جهاد المسلمين وضرباتهم المتتالية، على حين

بقيت الروم لمناعة أرضها واتساع الأجزاء التي احتلتها، وقوتها البحرية الكبيرة على حين لم يكن للمسلمين في بداية الأمر قوة بحرية؛ لذا فقد وجه معاوية رضي الله عنه قوة كبيرة في البر ومثلها في البحر، بعضها إلى قلب بلاد الروم وعاصمتهم، في محاولة منه للضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدًا لإسقاطها.

✓ **ومن هنا كانت الجبهة الغربية ثلاث جهات:**

١. **بلاد الروم: وهي التي تعرف اليوم باسم بلاد الأناضول أو تركيا:**

وقد وصل المسلمون إلى تلك الجهات وتوقفوا عند أقدام جبال طوروس الممتدة من البحر الأبيض المتوسط عند (مرسين) نحو الشمال الشرقي حتى تصل إلى مناطق قريبة من البحر الأسود في هضبة أرميني، وقد أقيمت هناك ثغور وقلاع لكلا الجانبين ومن أشهرها: مرسين، والمصيصة، ومرعش، وملاطية، والحدث، وزبطرة، وخرشة، وعين زربة، وكانت الغارات على الروم لا تنقطع أبدًا، وقد يحدث تقدم في بلاد الروم من قِبَل المسلمين إثر كثير من الغزوات لكن لا يلبث المجاهدون أن يعودوا إلى ثغورهم وقلاعهم، وقد رتب معاوية رضي الله عنه في هذه الجهات الصوائف التي كانت تقوم بالجهاد في فصل الصيف، والشواتي التي تقوم بالجهاد في فصل الشتاء، حتى تكون حروب دائمة تستنزف قوة العدو، وتجعله في النهاية يخضع لحكم المسلمين، وفي أثناء قتال مجموعة تكون المجموعة الثانية قد عادت إلى أماكن مرابطتها تجد الراحة، وتتمتع بالنشاط مع أهليها حتى يحين موعد جهادها..

وقد اشتهر من بين القادة في هذه المنطقة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبسر بن أرطأة الذي تقدم على رأس شاتية عام ٤٧ هـ حتى اقترب من القسطنطينية، ومالك بن هبيرة، وأبو عبد الرحمن القيني، وعبد الله بن قيس الفزاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وسفيان بن عوف الأزدي الذي توفي في أرض الروم، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، وجنادة بن أبي أمية الأزدي ومعن بن يزيد السلمي، ومحمد بن مالك، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد الله بن كرز البجلي، وعمرو بن مرة الجهني وكان هدف الغزوات جميعها القسطنطينية وبعضهم كان يقترب منها، وبعضهم يصل إلى عمورية في جنوب موقع أنقرة اليوم.

الحصار الأول للقسطنطينية:

في عام ٥٠هـ جهَّز معاوية رضي الله عنه حملة كبيرة من البر والبحر لتغزو القسطنطينية، وأعطى قيادة جيش البر لسفيان بن عوف الأزدي، وجعل ابنه يزيد في قيادة الحملة إلا أن يزيد لم يخرج مع الحملة، أما الأسطول فقد قاده بسر بن أرطأة وحوصرت عاصمة الروم، وجرت اشتباكات بين الطرفين خسر فيها المسلمون خسائر كبيرة، فعمل معاوية على إرسال نجدة كبيرة كانت بقيادة ابنه يزيد ومعه أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم، وبوصول النجدة ارتفعت معنويات المجاهدين فاشتد الحصار وأصاب المسلمون من الروم، وإن لم يستطيعوا فتح القسطنطينية،

وقد استشهد في هذا القتال أبو أيوب الأنصاري خالد بن يزيد رضي الله عنه، وعبد العزيز بن زرارة الكلابي، وقد كانا على رأس الذين يثيرون حماسة المقاتلين.

ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام، دون أن تنال هذه الحملة من القسطنطينية لمناعتها، وأغلب الظن أن معاوية رضي الله عنه كان يعلم صعوبة الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة التي يزيد من صعوبة الوصول إليها -فوق مناعتها الطبيعية- قسوة المناخ حولها شديد البرودة بالنسبة للعرب، ثم شدة التيارات المائية القادمة من الشمال من البحر الأسود، والتي كانت تعوق حركة سير السفن وتردها على أعقابها.

فالمسلمون يعرفون كل ذلك، ولكنهم لم يتهيبو، ولم تمنعهم الصعوبات من المحاولة بل أقدموا واقتحموا وأثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم رغم مناعتها وقوة تحصينها فهي ليست بعيدة المنال وأنهم على استعداد للصبر والمصابرة، وبذل الأرواح في سبيل إنهاك أعداء الإسلام، ومع أن الحملة لم تنجح عسكريًا إلا أنها تعتبر ناجحة من الوجهة السياسية حيث جعلت شغل الأباطرة الشاغل هو الدفاع عن عاصمتهم.

الحصار الثاني للقسطنطينية:

لم يُثْنِ فشل الحملة السابقة في الاستيلاء على القسطنطينية معاوية رضي الله عنه عن المضي قدمًا في محاولاته الاستيلاء عليها، وقد استولى بعد عودة الجيش على عدة جزر منها رودس وأرواد، وقد كان لجزيرة أرواد أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامي في

حصاره الثاني للمدينة أو حرب السنين السبع من سنة ٥٣هـ ـ ٦٠هـ، قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية رضي الله عنه أعدَّ أسطولاً ضخمًا وأرسله لحصار القسطنطينية، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٣:٦٠هـ، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية.

ورغم جَلَدِ المسلمين وتحملهم مشقة الحصار إلا أن المدينة صمدت أمامهم لا بفضل مناعتها الطبيعية فحسب بل إن الإمبراطور قسطنطين الرابع كان قد تنبه منذ الحصار الأول للخطر المحدق بالمدينة، فقضى الفترة فيما بين الحصارين في إصلاح أسوارها وتقوية دفاعاتها فضلاً عن حشدها بالمؤن والعتاد لتقاوم الحصار إذا ما فكر المسلمون في معاودة المحاولة، وفوق هذا فقد ساعد المدينة على الصمود ذلك السلاح الرهيب الذي اخترعه الإغريق في ذلك الوقت، والذي تسميه المصادر النار الإغريقية.

فعلى الرغم من صبر الجنود المسلمين وبسالتهم وتحملهم المشاق إلا أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، فقد دعت الظروف الداخلية في كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار؛ فدخلوا في مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي والأسطول إلى الشام.

الحصار الثالث والأخير للقسطنطينية في العصر الأموي:

بعد عودة الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية في آخر حياة معاوية رضي الله عنه سنة ٦٠هـ لم يلبث معاوية رضي الله عنه أن توفي، فدخلت الدولة الأموية في دوامة من الفتن وواجهت العديد من الثورات، وقد استمر

هذا الوضع إلى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان الذي إليه يرجع الفضل في إعادة الوحدة إلى الأمة الإسلامية حيث ترك لابنه وخليفته الوليد ٨٦ ـ ٩٦هـ دولة قوية مهابة، فشهد عهده حركة فتوحات كبرى على عدة جبهات، وكان الاستيلاء على القسطنطينية من الأهداف الرئيسية للوليد، وفي الحقيقة هو هدف رئيسي للسياسة الأموية عامة؛ فقد تابع الوليد بن عبد الملك هذه السياسة واستمر في الضغط على الإمبراطورية البيزنطية، فواصل الاستيلاء على أهم المعاقل والحصون على الطرق التي ستسلكها الجيوش الإسلامية البرية في زحفها القادم على القسطنطينية: من ذلك أنه أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك وابنه العباس بن الوليد فاستوليا على حصن مهم هو حصن طوانة الذي يعتبر مفتاح الطريق بين الشام ومضيق البسفور، ورغم استماتة البيزنطيين في الدفاع عنه إلا أن القوات الإسلامية قد استولت عليه، ولم تكد تمر سنة من سنوات خلافة الوليد دون أن يستولي جيشه على معقل أو حصن أو مدينة من مدن الحدود مع البيزنطيين.

وبينما يمضي الخليفة الوليد بن عبد الملك في استعداداته للزحف على عاصمة البيزنطيين إذ وافته المنية سنة ٩٦هـ فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦:٩٩هـ ليواصل جهوده في هذا الميدان؛ فأرسل سليمان الحملات لفتح القسطنطينية، واتخذ من دابق في شمال الشام مركز قيادة أقام فيه ليكون على مقربة من مسرح العمليات الحربية، وليشد وجوده هناك من أزر الجند ويرفع من روحهم المعنوية، وأعطى الله عهدًا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى أرض الروم القسطنطينية، وكان هذا الجيش بقيادة مسلمة بن عبد الملك، وعلى الأسطول أمير البحر سليمان، وعلى الرغم من ضخامة

الجيش حوالي ثمانين ألفًا، والأسطول أكثر من ألف وثمانمائة سفينة، **وإحكام الحصار على المدينة إلا أن الحملة لم تنجح في الاستيلاء عليها لعدة أمور منها:**

- خدعة (إليون الإيسوري) لمسلمة بن عبد الملك؛ فقد تظاهر هذا الرجل بعرض خدماته وتسهيل الطريق لوصول المسلمين إلى القسطنطينية، ولكن إليون كان يبيت في نفسه أمرًا خطيرًا وهو استغلال المسلمين في الوصول إلى عرش بيزنطة، ثم ردهم عن القسطنطينية عندما يتمكن من ذلك، وحقق إليون هدفه ووصل إلى عرش بيزنطة وكان أول شئ فعله هو التصدي للمسلمين وردهم عن العاصمة، وكان قد مكر بالمسلمين ليضعف مركزهم، ويضعهم في موقف حرج حيث أشار عليهم بحرق ما معهم من طعام فقال لمسلمة: "إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم؛ فأُمِرَ به فأُحْرِقَ فقوي أمر الروم، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون
- التقلبات الفجائية في المنطقة حيث غيرت الرياح التي كانت قد ساعدت المسلمين في إغلاق المدخل الشمالي للبسفور اتجاهها فجأة وانحدرت إلى الجنوب بقوة فأدت إلى تدمير عدد كبير من سفن الأسطول الإسلامي..

- استخدام البيزنطيين للنار الإغريقية في إحراق ما تبقى من سفن المسلمين..
- دخول فصل الشتاء، وهو قارص البرودة ويعتبر من العوامل الطبيعية المهمة التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها، وإطالة مدة مقاومتها.

وأثناء حصار القسطنطينية توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ، وتولى الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١هـ فأدرك الصعوبات التي تواجه المسلمين الذين استمر حصارهم للمدينة عامًا، كاملاً ٩٨ ـ ٩٩هـ، فرأى من موقع مسئوليته عن سلامة المسلمين أن ينهي هذه العملية فكتب إلى مسلمة بن عبد الملك وأمره بالرجوع بالجيش فرجع.

ولكن على الرغم من فشل الحملة فإن ذلك لا يقلل من جهود الأمويين في إعلاء شأن الإسلام، والتصدي بكل حزم وعزم لأعدائه، غير مبالين بالصعوبات مهما كانت شاقة، فقد صبروا وصابروا ولم يقصروا، ويكفي أنهم أذلوا دولة كبرى عتيدة، وجعلوا قصارى جهدها أن تدافع عن عاصمتها، وجعلوا الاستيلاء على هذه العاصمة أملاً ظل حيًا في نفوس المسلمين أكثر من سبعة قرون ونصف، حتى تحقق في النهاية على يد شعب مسلم آخر قادم من أقصى الشرق، وهم الأتراك العثمانيون، حيث فتح السلطان العثماني محمد الفاتح المدينة واستولى عليها سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، وأنهى الدولة البيزنطية من الوجود.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله أغار الترك على أذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين ونالوا منهم، فوجه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتل الترك، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وجاء على الخليفة وهو بخناصرة بخمسين أسيرًا منهم.

وغزا الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي بأهل حمص بلاد الروم على رأس صائفة.

وقد غزا السمح بن مالك الخولاني فرنسا فاخترق جبال البرانس، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، ثم أغار على أكتيانيا وحاصر طلوشة (طولوز) فخرج له دوق أكتيانيا بجيش كبير، ونشبت معركة عظيمة بين الطرفين استُشْهِد فيها السمحُ بن مالك الخولاني عام ١٠٢هـ وتولى إمرة جند المسلمين عبد الرحمن الغافقي فانسحب بفلول الجيش إلى ناربونة (قاعدة سبتمانيا).

ولم تطل مدة خلافته إذ توفي ولم يتجاوز الأربعين من العمر، ولربما لو طالت لكثرت الفتوحات، ولانتشر الإسلام على نطاق واسع إذ لم تكن هناك أحداث داخلية تشغل الناس عن الجهاد، ولم يكن هناك عوز يجعلهم بحاجة إلى التفكير في تأمين حاجات أهليهم، والعمل لسد الضرورات في الحياة.

وفي عهد يزيد بن عبد الملك غزا العباس بن الوليد بلاد الروم عام ١٠٣هـ على رأس صائفة كما غزاها سعيد بن عبد الملك، وفي عام ١٠٥هـ غزا مسلمة بن سعيد الترك.

أما في عهد هشام بن عبد الملك فلم يكن هناك فتوحات واسعة كالتي حدثت أيام الوليد بن عبد الملك، وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون إثرها إلى ثغورهم، أو تفتح رقعة صغيرة من الأرض أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم على طلب الصلح ثانية ودفع الجزية.

ففي بلاد الروم استمرت الغزوات في أرض الروم طيلة أيام هشام بن عبد الملك فكانت تندفع الصوائف والشواتي مجاهدة في البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغيرات في الحدود وإنما توغُّل في أرض الروم، ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس.

وفي عام ١٠٨ هـ فتح مسلمة بن عبد الملك مدينة قيصرية ثم رجع عنها إلى الثغور، ووصل سعيد بن هشام عام ١١١هـ إلى مدينة قيصرية أثناء توغله في أرض الروم، وهزم عبد الله البطال قسطنطين وجيشه وأسره، ووصل سليمان بن هشام مدينة قيصرية ثانية، ورابط معاوية بن هشام عام ١١٣هـ في ناحية مرعش وكان قد فتح حصن خرشنة قبل عام.

٢. بحر الروم:

منذ أن تسلم معاوية رضي الله عنه إمرة بلاد الشام وهو يطمح بمنازلة الروم بحريًا، وما أن سمح له الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بذلك حتى انطلق في ذلك ليحمي المدن الساحلية ويصد عنها غارات الروم وأساطيلهم؛ فقد فتح قبرص عام ٢٨هـ، وأعادها عام ٣٣هـ، وانتصر على

الروم في معركة ذات الصواري، وغزا صقلية غزوة استطلاعية كما غزا رودس، وقد نظم التعاون بين الجيوش البرية والأساطيل تنظيمًا دقيقًا، واشتُهِرَ من قادة البحر بُسْر بن أرطأة، ومالك بن هبيرة السكوني، والمنذر بن زهير، وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وفضالة بن عبيد الأنصاري ويزيد بن شجرة الرهاوي وعقبة بن نافع، وجنادة بن أبي أمية الأزدي وغيرهم..

ومن الملاحظ أن بعضهم كان يتسلم إمرة الجيوش البرية في بعض الأحيان فلم يكن هناك اختصاص، وإنما الروح المعنوية العالية تدفع المؤمن لأن يجاهد بأية منطقة كانت، كما يجب أن نعرف أن غزو البحر لم يكن محصورًا بأهل الشام من أبناء الساحل ولا بأهل مصر فقط، بل أصبح جميع المسلمين مجاهدين في البر والبحر على حدٍّ سواء، سواء كانوا من أهل البادية الذين لم يروا البحر طيلة حياتهم أم من أبناء السواحل الذين اعتادوا على العمل فيه، وكلهم يجيد القتال، ويحسن التصرف، ويضحي بكل شئ ففي عام ٤٨ هـ قاد مالك بن هبيرة السكوني أهل مصر في البحر، وقاد أهل المدينة في البحر المنذر بن زهير وكان على الجميع خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، كما أنه من المعروف أن أكثر هؤلاء القادة كانوا من جزيرة العرب في الأصل، ومن أهل الداخل والبوادي.

واتخذ معاوية رضي الله عنه خطة في نقل أعداد من العرب المسلمين إلى الجزر في البحر الأبيض المتوسط لحمايتها ونشر الإسلام في ربوعها، ففي عام ٤٨ هـ نزل المسلمون بصقلية، واستطاع فضالة بن عبيد الأنصاري فتح جزيرة (جربا) عام ٤٩ هـ وقد سار إليها على رأس شاتية في ذلك العام.

وفي عام ٥٠هـ تم حصار القسطنطينية، وفي عام ٥٣هـ فتح جنادة بن أمية الأزدي جزيرة رودس، ونقل معاوية رضي الله عنه جماعة إليها لحمايتها.

وفي عام ٥٥هـ تم فتح جزيرة كريت وبعد عامين فُتِحَتْ جزر بحر إيجة القريبة من القسطنطينية مقدمة لحصارها من جديد.

وفي عهد عبد الملك بن مروان غزا عطاء بن رافع جزيرة صقلية عام ٨٤هـ..

وفي عام ٨٩هـ دخل المسلمون جزيرة صقلية وميورقة على عهد الوليد بن عبد الملك..

أما في عهد هشام بن عبد الملك فقد حدثت غارات بحرية للجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر قادة البحر في عهده عبد الله بن عقبة بن نافع، وعبد الله بن أبي مريم، وميمون بن مهران، وغزا أمير أفريقية جزيرة صقلية عام ١٢١ه، وكان قائد الغزو حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الذي استطاع فتح مدينة سرقوسة، وكذا غزا أمير أفريقية عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا عام ١١٧هـ بإمرة قثم بن عوانة الذي تمكن من الاستيلاء على قلعة الجزيرة إلا أن المقاتلين قد غرقوا في البحر عند عودتهم.

حالة الأمة الإسلامية عند استلام معاوية الأمر:

تولى معاوية أمر الأمة، وهي أقسام ثلاثة:

القسم الأول: شيعة بني أمية من أهل الشام والجزيرة ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية الذين كانوا ينادون بأخذ الثأر من قتلة خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

القسم الثاني: شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن ذريته أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر.

القسم الثالث: الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين، وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علي لأن كلا قد ألحد على زعمهم في الدين ومع ما بينهم من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والإقدام، ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب من الأمن عليها، أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة، صانع رؤوس العرب وقروم ومضر بالأعضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه نزل عنها الأقدام.

كان الذي يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلو في الدين غلواً عظيماً وفهموا كثيراً منه على غير وجهه فاتلهم معاوية ولاحق الخارجين على سلطة الدولة وعلى تعاليم الإسلام.

سياسته الداخلية:

إنشاء الدواوين المركزية:

- **ديوان الرسائل**: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده.

- **ديوان الخاتم:** أنشأ معاوية ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة .
- **ديوان البريد:** حيث أدخل نظام البريد إلى الدولة الإسلامية في دمشق
- **نظام الكتبة:** حيث عين كاتب لديوان الرسائل، وكاتب لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان، الشرطة وخامس لديوان القضاء.

توطين الأمن في خلافته:

- الحاجب: حيث كان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه .
- الحرس: وهو أيضا أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفا من الخوارج الذين يريدون قتله .
- الشرطة:وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام .
- حسن اختيار الرجال والأعوان .
- استخدام المال في تأكيد الولاء.
- إتباع سياسة الشدة واللين.
- جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الداخلية والخارجية في عهد معاوية قوية جدًا، وما يدل على قوتها.
- اطلاعه على المراسلات التي بين الحسين وأهل العراق .

- قصة الأسير المسلم عند البيزنطين، الذي لطم على وجهه بين يدي ملك الروم وقول الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية، ووصل الخبر عند معاوية .
- الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي.

ضرب الأمثال بحلم وسياسة معاوية:

يعتبر معاوية رمزا للدهاء والسياسة وكانت العرب تضرب به المثل في ذلك ولعل أشهرها مصطلح شعرة معاوية، وهو كناية عن حسن السياسة أو الدبلوماسية في المصطلحات الحديثة ولذلك كان يقول: (لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

من أقواله:

إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا مدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

ما من شيء ألذ عندي من غيظ أتجرعه. وأغلظ له رجل فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ قال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

قيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك قال: أشدهم لي تحبيبًا إلى الناس.
إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي وجهل أكبر من حلمي وعورة لا أواريها بستري وإساءة أكثر من إحساني .

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: يا ابن أخي إنك قد لهجت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فتعير الشريفة؛ والهجاء فتعير كريمًا وتستثير لئيمًا؛ والمدح فإنه طعمة الوقاح ولكن افخر بمفاخر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك.

من شعره:

أتاني أمر فيه للناسِ غمة — وفيه بكاء للعيونِ طويل

وفيه فناء شامل وخزاية — وفيه اجتداع للأنوفِ أصيل

مصاب أميرِ المؤمنين وهدَة — تكاد لها صم الجبالِ تزول

فلله عينا من رأى مثل هالك — أصيب بلا ذنب، وذاكَ جليل

تداعتْ عليه بالمدينة ِ عصبة — فريقانِ منها: قاتل وخذولُ

دعاهم، فصموا عنه عندَ جوابِهِ — وذاكُمْ عَلى ما في النفوسِ دَليلُ

نَدِمْتُ عَلَى ما كانَ من تَبَعِي الهَوَى — وقَصْـرِيَ فيه : حَسْـرَةٌ وعويلُ

سأنْعَى أبا عمْروٍ بِكلّ مثقّفٍ — وبيضٍ لها في الدّراعينَ صَليلُ

تَرَكْتُكَ للقومِ الذينَ هُمُ هُمُ — شجاكَ، فماذا بعدَ ذاكَ أقولُ!

فَلَسْتُ مُقيماً ما حَيِيتُ ببلدةٍ — أجُرُّ بها ذَيْلِي، وأنت قتيلُ

فلا نومَ حتّى تُشْجَرَ الخيلُ بالقنا — ويُشفَى من القومِ الغواة ِ غَليلُ

وَنطحنهُمْ طَحْنَ الرّحَى بِثفالها وذاكَ بها أَسْدَوا إليكَ قليلُ

فَأمّــا التــي فيهــا مــودّةُ بيننَـا فلـيس إليهـا مـا حَييـتَ سـبيلُ

سَــأُلْقِحُها حَرْبــاً عَوانــاً مُلِحّــة وإنّي بهــا مــنْ عامنــا لكفيــلُ

أوائل:

كان معاوية أول من أوصى بالملك لولده من الخلفاء .

وفاته:

توفي في دمشق عن ٧٨ سنة بعدما عهد بالأمر إلى ابنه يزيد بـن معاويـة ودفن في دمشق وكانت وفاته في رجب سنة ٦٠ هـ كـان خلالهـا واليـاً ل ٢٠ عام وخليفة ل ٢٠ عام أخرى.

الفصل السادس

العصر الذهبي (خلافة الوليد بن عبد الملك)

نبذة عن حياته:

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي بويع بعهد من أبيه، وكان مترفاً نهمته في البناء، أنشأ جامع بني أمية ووسع أيضاً مسجد رسول الله صلى الله وسلم وزخرفه ورزق في دولته سعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك، وغزا الروم مرات في دولة أبيه، وحج وقيل كان يختم في كل ثلاث، وختم في رمضان سبعة عشرة ختمة، وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحداً يفعل ذلك. وكان فيه عسف وجبروت. وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزّمنى والضعفاء وضبط الأمور.

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران حتى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ ذلك المشروع وهو توسعة المسجد النبوي، وقد كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري مائها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته.

المولد والنشأة:

وُلد الوليد بن عبد الملك في خلافة معاوية بن سفيان حوالي سنة (٥٠هـ = ٦٧٠م) في المدينة المنورة، حيث كان يقيم أبوه "عبد الملك بن مروان بن الحكم"، وكان أكبر أبنائه، وحين هاجر مروان بن الحكم إلى الشام كان الوليد معه ضمن أسرته، والمعروف أنه ترك المدينة في ربيع الآخر سنة (٦٤هـ = ديسمبر ٦٨٣م) بعد أن أعلن عبد الله بن الزبير الدعوة إلى نفسه بالخلافة.

وكان عبد الملك بن مروان قبل أن يلي الخلافة ينهل من علم أهل المدينة وفقهائها، ويتأدب بأدبهم وأكثر من مجالسة العلماء، وروى عنه جماعة من التابعين، مثل: خالد بن معدان، وعروة بن الزبير، والزهري، ورجاء بن حيوة، وقد اشتهر بالفقه حتى قيل: كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان، والأخبار تكاد تتواتر على فقهه وغزارة علمه ورجاحة عقله.

تولِّيه الخلافة:

كان عبد العزيز بن مروان وليًّا للعهد في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان، فلمّا تُوفي عبد العزيز سنة (٨٥هـ = ٧٠٤م) عين عبد الملك ابنه الوليد في ولاية العهد وبايعه الناس، فتولى الخلافة عقب وفاة أبيه في (١٥ من شوال ٨٦هـ = ٩ من أكتوبر ٧٠٥م).

تولى الوليد الخلافة وهو في شرخ الشباب مزودًا بثقافة واسعة وخبرة إدارية ونضوج عقل، وتسلّم مقاليد الأمور، ودولته يسودها السلام بعد أن قضى أبوه معظم خلافته في القضاء على الفتن والحروب الداخلية التي كادت تمزق أوصال الدولة، وبدأ في الإصلاح والتعمير، وإحياء حركة الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب؛ فتم على يديه في المدة التي قضاها في الخلافة وهي لا تعدو عشر سنوات ما قد تعجز الدول عن تحقيقه في قرون عديدة.

حركة الفتوحات الإسلامية:

شهد عصر الوليد بن عبد الملك أعظم حركة للفتوحات الإسلامية في الدولة الأموية؛ فبسط المسلمون أيديهم على أكبر بقعة من العالم القديم المعروف آنذاك، واتسعت دولتهم على نحو لم تشهده من قبل، وبرز في عهده عدد من القادة الأكفاء الذين اتسموا بالقدرة العسكرية والمهارة الحربية وعُرفوا بالشجاعة والتضحية، فقاموا بعبء هذه الفتوحات وأعادوا للأذهان ذكرى الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين.

ففي الجناح الشرقي للدولة حمل الحجاج الثقفي أهل العراق على الاشتراك في جيش "قتيبة بن مسلم الباهلي" لفتح بلاد ما وراء النهر، واستغرقت جهوده في الفتح عشر سنوات (٨٦-٩٦هـ = ٧٠٥-٧١٤م)، فتح خلالها بخارى وسمرقند ووصل إلى إقليم كاشغر الذي يلامس حدود الصين.

وأرسل الحجاج ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح إقليم السند في شبه القارة الهندية سنة (٨٩هـ = ٧٠٧م)، وكان دون العشرين من عمره، لكنه كان قائدًا عظيمًا، نجح في مهمته، وبسط سلطان الدولة في هذه البقاع، وفتح مدينة الديبل، وهي تبعد نحو ٤٥ ميلا شرقي جنوب كراتشي- في باكستان، وامتدت فتوحاته إلى ملتان في جنوب إقليم البنجاب.

وأما في الجناح الغربي فقد نجح موسى بن نصير وطارق بن زياد في عبور البحر المتوسط إلى شبه جزيرة أيبريا (إسبانيا) سنة (٩٢هـ = ٧١١م)، وتمكنا من فتح تلك البلاد التي أطلق عيها المسلمون اسم الأندلس، ولم يقف طموح موسى بن نصير عند هذا الحد بل عزم على فتح بلاد غالة (فرنسا الحالية) على أن يتجه شرقًا حتى يصل إلى القسطنطينية التي عجز المسلمون عن فتحها، ثم يستمر في فتوحاته حتى يصل إلى دمشق حاضرة الخلافة، لكن الخليفة الوليد حذره من مغبة القيام بهذا العمل، والتوغل في دروب مجهولة، وأمره بالعودة إلى دمشق.

ودأب الوليد على محاربة الدولة البيزنطية؛ لتأمين حدود دولته معها، وكان أخوه مسلمة بن عبد الملك بطل هذه الحروب، واشترك معه أبناء الخليفة الوليد في منازلة البيزنطيين وفتح حصونهم، وظلت الحملات تتوالى على بلاد الروم منذ سنة (٨٨هـ = ٧٠٦م)، ولا يكاد يخلو عام من حملة على الروم، واستعد الوليد لإرسال حملة برية وبحرية لغزو القسطنطينية، لكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ هذا المشروع، فنهض به أخوه سليمان بن عبد الملك الذي ولي الخلافة من بعده.

استكمال التعريب:

كانت عملية التعريب عملية طويلة بدأها عبد الملك وسار الوليد على نهجها؛ فأمر واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بتدوين الدواوين في مصر باللغة العربية بعد أن كانت تُكتب بالقبطية، فكان هذا تتمة لما بدأه عبد الملك بن مروان في سياسة التعريب التي لم تتم نهائياً إلا بعد تعريب دواوين خراسان سنة (١٢٤هـ = ٧٤١م)، وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالي، وأصبحت لغة الثقافة، بالإضافة إلى كونها لغة الدين.

كان من نتيجة استقرار الدولة أن زادت ماليتها وتكدست خزائنها بالأموال، وأنفق الوليد جزءًا منها على البناء والتشييد، وخصص جزءًا آخر لتقديم الخدمات للناس دون أجر، فأمر بتشييد المستشفيات لذوي الأمراض المزمنة، وأعطى رواتب لذوي العاهات من العميان والمجذومين وغيرهما، ومنح كل مُقعد خادمًا، وكل ضرير قائدًا.

بناء المسجد الأموي:

قال ابن كثير في حوادث عام ٩٦هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً. ثم إن النصارى حولوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة واستمر النصارى على دينهم هذا

بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى ـ جاء الإسلام ـ وعندما صارت الخلافة إلى الوليد عزم على تحويلها إلى مسجد، بعد أن تفاوض مع النصارى وقام بترضيتهم مقابل عروض مغرية. ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤساء الناس وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجن في الله عز وجل والله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي، ثم صعد المنارة ثم إلى أعلى مكان من الكنيسة وضرب بها في أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية.. ثم شرع في بنائه.

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثير من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخوه، وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك، وقد أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار وفي رواية: في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. قلت فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف وألف دينار وستمائة ألف دينار، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار، ومائتي ألف دينار، وقد نقل إلى الوليد بأن الناس يقولون أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغني عنكم إنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فاحضر

أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع وبسطت الأنطاع تحت القبة ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً وفضة خالصة حتى صارت كوماً حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر وهذا شيء كثير، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفي رواية: ستة عشرة سنة مستقبلة ولو لم يدخل للناس شيء بالكلية ـ ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع فاحمدوا الله تعالى. وانصرفوا شاكرين داعين. وقد كان الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجل منه، بحيث أنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهة منه، أو إلى أي بقعة أو مكان منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه، ولا يمل ناظره، بل كلما أدمن النظر، بانت له أعجوبة ليست كالأخرى.

وفاته:

نجح الوليد في مدة خلافته التي لم تتجاوز عشر سنوات أن يقيم دولة عظيمة، وأن ينعم الناس في ظلها بالرخاء، وأن تنشط حركة العمران، وتزدهر الثقافة وحلقات العلم في المساجد الكبرى، حتى صارت دولته أقوى دولة في العالم آنذاك، ولم تطل به الحياة فتوفي في (منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ = ٢٥ من فبراير ٧١٥م).

الفصل السابع

الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز

نبذة عن الخليفة:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، أمير المؤمنين أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية.

كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاهاً منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حقٍّ.

والده عبد العزيز بن مروان بن الحكم كان من خيار أمراء بني أمية، شجاعاً كريماً بقي أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح. فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب وقيل اسمها ليلى.

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه الشريف أبو عمرو القرشي العدوي، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه. وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة. وكان طويلاً جسيماً وكان من نبلاء الرجال، ديِّنا، خيِّراً، صالحاً، وكان بليغاً، فصيحاً، شاعراً، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمه، مات سنة سبعين.

واختلف المؤرخون في سنة ولادته، والراجح – كما نقل الدكتور الصلابي – أنه ولد عام ٦١هـ، وهو قول أكثر المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفي وعمره أربعون سنة. حيث توفي عام ١٠١هـ.

وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر وهذا القول ضعيف؛ لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز، ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبنو مروان في المدينة. وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد.

وكان عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – يلقب بالأشج، وكان يقال له أشج بني مروان؛ وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى اصطبل أبيه – عندما كان والياً على مصر – ليرى الخيل فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد. ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر، هذا أشج بني مروان الذي يملك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً.

وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه، كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً.

سياسة عمر بن عبدالعزيز الداخلية:

تعتبر سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية من أهم الجوانب في خلافته، فقد كان عمر بن عبد العزيز إدارياً ممتازاً، ولا عجب في ذلك فقد عركته تجربة الإدارة منذ أن كان واليًا على خناصرة والمدينة، ثم تكاملت عناصر التجربة بعد أن أصبح من أقرب الناس إلى سليمان بن عبد الملك، يرقب الحوادث عن قرب ويتمرس على شئون الدولة وتسيير دفة الحكم فيها، وما أن تولى مقاليد الخلافة حتى ذهب يبذل كل جهده، ويُفني ما تبقى من عمره في إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن والرخاء في ربوعها، وتحقيق العدالة والكفاية في كل أرجائها، وقد اتخذ لذلك منهجًا كان من أبرز معالمه الحرص على مال المسلمين، والمحافظة على الوقت والجهد، وسرعة التصرف في الأمور، وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين، وإزالة آثار كل عمل لايساير روح الإسلام، وتحقيق التوازن بين الناس، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى لإقناعهم وردهم إلى حظيرة الجماعة، كما كان الطابع لهذا المنهج هو العدل والإنصاف والرحمة والإحسان.

كان عمر بن عبد العزيز يعرف قيمة المال والوقت، وهما من الأشياء التي يبددها المسلمون الآن فيما لا يفيد، ويعانون من جراء ذلك ما لا يخفى على أحد من التأخر والتخلف، ولكن عمر الفقيه كان يعرف أن صيانة المال واحترام الوقت من أهم ما يحرص عليه الإسلام، لترقي الأمة الإسلامية، فانظر ماذا قال عمر حين جاءه كتاب من أبي بكر بن حزم، والي المدينة يطلب ورقًا يكتب فيه أمور الولاية، فقد كان رده عليه: "أَدِقَّ قلمك وقارِب بين أسطرك، فإني أكره أن أُخرج للمسلمين ما لا ينتفعون به.."

كما كتب إليه أيضًا: "أما بعد فإنك كتبت إلى سليمان كتبًا لم ينظر فيها حتى قبض ـ رحمه الله ـ وقد بليت بجوابك، كتبت إلى سليمان تذكر أنه يقطع لعمال المدينة من بيت مال المسلمين ثمن شمع كانوا يستضيئون به حين يخرجون إلى صلاة العشاء، وصلاة الفجر، وتذكر أنه قد نفد الذي كان يستضاء به، وتسأل أن يقطع لك من ثمنه بمثل ما كان للعمال، وقد عهدتك وأنت تخرج من بيتك في الليلة المظلمة الماطرة الوحلة بغير سراج، ولَعَمْرِي لأنت يومئذٍ خيرٌ منك اليوم، والسلام.."

فانظر إلى مدى بلغ حرصه على المال والوقت والجهد، وقد تبدو هذه الأمثلة بسيطة لبعض الناس، ولكنها عظيمة الدلالة على فهم الحكم المسلم لقيمة المال والوقت، وهما من مقومات الحياة.

ومن حرص عمر على الوقت أنه كان لا يعرف تأخير عمل اليوم إلى الغد، فيومه كله عمل، وعندما لاحظ عليه بعض أهله مظاهر الإرهاق من كثرة العمل تقدم إليه قائلاً: "يا أمير المؤمنين لو ركبت ـ في نزهة ـ فَتَرَوَّحْتَ!

أجابهم: فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم؟ قال: تجزيه من الغد، أجاب عمر: فَدَحَني عمل اليوم، فكيف إذا اجتمع عليَّ عملُ يومين.."

كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمور، وكان يضيق بالعامل الذي لا يحسن التصرف أو ما نسميه اليوم بالبيروقراطي، الذي يحب أن يراجع رؤساءه في كل كبيرة وصغيرة، فقد كتب إلى عامله على المدينة: "أن قَسِّمْ في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار؛ فكتب إليه: إن عليًا قد وُلِدَ له في عدة قبائل من قريش، ففي أي ولده؟ فكتب إليه: لو كتبت إليك في شاة تذبحها لكتبت إليَّ، أسوداء أم بيضاء؟ إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة - رضوان الله عليهم - عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم.."وكان عمر بن عبد العزيز غير راضٍ عن الأسلوب الذي يدير به بعض عمال بني أمية أمور الدولة، أو لا يتفق أسلوبهم الإداري مع نهج عمر، مثل يزيد بن المهلب وآله، الذين كان عمر يقول عنهم: هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم، ولكن هؤلاء كانوا رجال سليمان بن عبد الملك فأبقى عليهم، فلما آلتِ الخلافة إلى عمر قرر أن يقصي كل عامل لا يرتاح إليه؛ فعزل يزيد بن المهلب وأمثاله، وانتقى أفضل وأصلح الرجال وولاهم الأعمال، ويبدو جليًا من استعراض أسماء الولاة والقضاة، وسائر الموظفين الذين اختارهم عمر بن عبد العزيز، حرصه على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلمًا وإيمانًا وقبولاً لدى جماهير المسلمين.

ولم يكن عمر يكتفي بحسن الاختيار بعد الابتلاء بل كان يتابع عماله ويرسم لهم المنهج الذي ينبغي عليهم أن يطبقوه ليقيموا العدل بين الناس؛ فقد كتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب: "سلام عليك، أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان، فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خرابًا على عامر، ولا عامرًا على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله ولا تعجل دوني بقطع ولا صَلْب، حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد أن يحج من الذرية؛ فعجِّل له مائة يحج به، والسلام.."

هكذا عمل عمر على إزالة كل أثر من الآثار التي تراكمت من قبل ولم يكن راضيًا عنها، أو كان يرى أنها تنافي روح الإسلام، ولما كان هو نفسه أميرًا من أمراء بني أمية فقد آلت إليه أموال وهدايا كان يرى أنه لم يكن يستحقها، فبدأ بنفسه ورد ما أخذه إلى بيت المال، ثم ثنى بأقربائه واستقصى أموالهم فما رأى أنه أُخِذَ به بدون وجه حق، أخذه ورده إلى بيت المال، ولم يقبل في ذلك مناقشة أو شفاعة من أحد، فقد رفض شفاعة عمته فاطمة عندما وَسَّطُوها عنده لتشفع لهم.

ومن الآثار السيئة التي وجدها عمر وحرص على إزالتها بكل عزم وتصميم ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثًا، فقد كان بعض عمال بني أمية لما أعوزهم المال بسبب الحروب والثورات، أبقوا الجزية على من كانوا يدخلون في الإسلام من أبناء البلاد المفتوحة وزعموا أن إسلام هؤلاء لم يكن صادقًا، وأن إعفاءهم من الجزية قد أضرَّ ببيت المال، وابتدعوا بدعة اختبار من أسلموا بالختان ولكن عمر حذرهم من ذلك، فقد كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي ـ والي خراسان :"انظر من صلَّى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية؛ فسارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورًا من الجزية، فامتحنهم بالختان، فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب عمر إليه: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديًا ولم يبعثه خاتنً، وعزل الجراح عن خراسان وولى عبد الرحمن بن نعيم القشيري، ثم ولى على الخراج عقبة بن زرعة الطائي، وكتب إليه: "إن للسلطان أركانًا لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب المال ركن، والركن الرابع أنا، وليس ثغر من الثغور المسلمين أهم إلي، ولا أعظم عندي من ثغر خراسان؛ فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم، فإن يك كفافًا لأعطياتهم فسبيل ذلك، وإذًا فاكتب إليَّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم..

فالمال مهم، ولكن العدل أهم عند الخليفة عمر لأن المال وجبايته عنده وسيلة، وليست غاية. وقد يكون من الصعب استقصاء إصلاحات عمر بن عبد العزيز المالية والإدارية، ولكن يكفي أن نقول على وجه الإجمال: إن

سياسته المالية قضت على الفقر، وحققت التوازن بين النـاس، حتـى لم يعد هناك فقير يحتاج إلى الصدقة، فيروي الذهبي عن عبد الـرحمن بـن يزيـد عن عمر بن أسيد قال: "والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجـل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بمالـه كله، قد أغنى عمر الناس.."

ولما كان عمر يعتبر نفسه مسئولاً عن الأمة كلها، فليس هناك أحد أولى به من أحد، وفي ضوء هذا التصور نظر إلى الخوارج، الـذين ناصـبوا الدولـة الأموية العداء منذ قيامها، ولم يكد صراعهـم معهـا ينقطـع، وأدرك عمـر أن هؤلاء الناس قد يكونون طلاب آخرة، ولكنهم قـد أخطـأوا الطريـق إليهـا؛ فجاهدوا في غير ميدانها؛ وبددوا طاقاتهم وطاقات الدولة في حروب داخلية، لا طائل من ورائها بل كانت لها آثارها السيئة عليهم وعلى الدولة، فرأى مـن واجبه أن يبصـرهم بخطأ موقفم فدعاهم إلى محاورته، فاستجابوا، وأرسل له زعيمهم شوذب الخارجي اثنين من أتباعه، ليحاوراه، وبدأ عمر الحـوار قـال لهم: "إني قد علمت أنكـم لم تخرجـوا مخـرجكم هـذا لـدنيا ولكـنكم أردتـم الآخرة وأخطأتم طريقها، وإني سائلكم عن أمور فبالله لتصدقنني عنها، وبدأ يسألهم وهم يجيبون، وظهرت حجته عليهم في جميع القضايا التي أثاروها إلا مسألة واحدة، وجد عمر نفسه عاجزًا عن تبريره، وهي ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك فطلب منهم أن ينظروه ليفكر في الأمر، ورضي الـرجلان بـذلك، وقال له أحدهما: ما سمعت كاليوم حُجَّةً أبين وأقرب مأخذًا من حجتك، أما

أنا فأشهد أنك على الحق، وأنا بريء ممن بريء منك، وأقام عند عمر ورفض العودة إلى الخوارج، أما الآخر فسأله عمر: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسنَ ما قلتَ وأبينَ ما وصفتَ، ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حُجَّتُهم.

ولكن بقيت هذه المسألة معلقة دون حلٍّ؛ لأن عمر لم يكن قادرًا على تنحية يزيد من ولاية العهد، خوفًا من الفتنة في بني أمية، كما أن الأيام لم تمهله حتى نرى ما كان سوف يضع فقد مات رحمه الله بعد ذلك بقليل، لكن ما يهمنا الآن هو الأسلوب الجديد الذي واجه به عمر الخوارج، والذي كان من أثره فيهم أنهم لم يثوروا عليه، وهذا يبين أن هؤلاء القوم كانوا على غير هدى من الله يحتاجون إلى علاج، ولعلهم بعد ما لحق بهم من ضربات كانوا على استعداد للاندماج في الأمة لو وجدوا بعد عمر من يواصل أسلوبه معهم ولكن أني للخلافة مثل عمر...

سياسة عمر بن عبدالعزيز الخارجية:

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته في السياسة الداخلية، ليعيد ما اعوج من الأمور إلى نصابه، ويحاول إصلاح ما رآه انحرافاً عن الجادة سواء في الناحية الإدارية أو المالية أو غيرها، كذلك كانت له وقفة مماثلة في السياسة الخارجية فقد رأى أن مساحة الدولة قد اتسعت، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت، ولعل كثيرًا من المشاكل والأخطاء التي وقع فيها بعض الولاة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير في مساحة الدولة، فكل إقليم كان يضيف إلى

مشاكل الدولة عبئًا جديدًا، فرأى أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات، أو الحد منها على الأقل، لأن التوقف عند حدود ما فتح من بلاد وأقاليم، والعمل على حَلِّ مشاكلها، وعرض الإسلام عليها بأسلوب حكيم دقيق، وقدوة حسنة، سوف يكون أجدى من المضي في الفتوحات، بل ربما لا تكون هناك حاجة بعد ذلك إلى فتح جديد، لأن الناس سيقبلون على الإسلام من تلقاء أنفسهم، لأنهم سيجدون فيه كل ما يرضيهم، روحيًا وماديًا، وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد تحقق ما تصوره في ذلك وزادت حركة الإقبال على الإسلام في البلاد المفتوحة في عهده زيادة كبيرة وأخذ عمر في إرسال الدعاة من خِيرَة العلماء ليدعوا الناس إلى الإسلام، بدلاً من إرسال الجيوش للفتح، كما بدأ يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء المعاصرين يدعوهم إلى الإسلام فأرسل إلى أمراء ما وراء النهر، وإلى ملوك السند، يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم على بلادهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلما وصلتهم رسائله وكانت قد بلغتهم سيرته وعدله، فقبلوا وأسلموا، وتسموا بأسماء عربية.

كما أرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام، بعد أن خشي على المسلمين؛ فأمر بإعادة الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية دون جدوى منذ عهد سليمان بن عبد الملك.

ولقد تمتع الخليفة عمر بن عبد العزيز بسمعة طيبة، تجاوزت حدود الدولة الإسلامية فتروي المصادر التاريخية أنه حينما وصل الوفد الذين أرسلهم عمر إلى إمبراطور الروم لدعوته إلى الإسلام جاءت الأخبار إلى

الإمبراطور من عيونه بوفاة عمر، فأرسل يستدعي رئيس الوفـد، فلـما مَثُلَ بين يديه سأله الإمبراطور: "أتدري لم بعثت إليـك؟ قـال: لا. فقـال: إن صاحب مسلحتي كتب إليَّ أن الرجل الصالح عمـر بـن عبـد العزيـز مـات، قال: فبكيت واشتد بكائي، وارتفع صوتي، فقـال لي: مـا يبكيـك؟ ألنفسِـك تبكي أم له أم لأهل دينك؟ فقال: لكلٍّ أبكي قـال: فابـكِ لنفسـك، ولأهـل دينك، أما عمر فلا تبكِ عليه، فـإن الله لم يكـن ليجمـع عليـه خـوف الـدنيا وخوف الآخرة، ثم ما قال: ما عجبت لهذا الراهب الذي تعبَّدَ في صـومعته وترك الدنيا، ولكن عجبت لمن أتته الدنيا منقادة، حتى صـارت في يـده ثـم تخلى عنها". ثم يضيف الإمبراطور: "ولقد بلغني من بِرِّه وفضله وصدقه مـا لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى، لظننت أنـه يحيـي المـوتى، ولقـد كانـت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنـه أشـد حين خلوته بطاعة مولاه.."

وفاة عمر بن عبد العزيز:

لم تطل حياة عمر بن عبد العزيـز طـويلاً فقـد اختطفتـه يـد المَنُـون ولم يتجاوز الأربعين من عمره، ويبدو أن انهماكه في أمور المسلمين ومتابعة السهر والعمل في شئون الدولة، وعدم اهتمامه بأمر طعامـه وشرابـه، قـد أثَّـر عـلى صحته فلم يعد جسمه يقوى على المقاومة والاحتمال. وأمـا مـا يرويـه بعـض المؤرخين من أن بعض بني أمية دَسَّ له السم فهـذا أمـر لم يقـمْ عليـه دليـل، ويبدو أن هذا لم يكن سوى شائعة من تلك الشائعات التي رَوَّجَ لها أعداء بني أمية، فقد اتهموا معاوية رضي الله عنه بأنه دس السم للحسن بن علي

وللأشتر النخعي، ولعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأن سليمان بن عبد الملك صنع هذا أيضًا مع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

على أية حال توفي عمر بن عبد العزيز في شهر رجب سنة ١٠١هـ، وكانت وفاته بدير سمعان من أعمال حمص، وتولى الخلافة بعده ابن عمه يزيد بن عبد الملك.

الفصل الثامن
الخليفة يزيد بن عبد الملك

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين. وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية.. وُلِدَ بدمشق سنة ٧٢هـ على أرجح الأقوال..

أولاً: حياته قبل الخلافة:

كان قبل خلافته محبوبًا في قريش، بجميل مأخذه بنفسه، وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يَشُكُّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه، وقد تلقى تربيته على علماء أهل الدين والفضل فكان منهم الضحاك بن مزاحم، وعامر بن شراحيل، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر والزهري وهؤلاء العلماء اختارهم عبد الملك لتربية أولاده، وقد تأدب يزيد على يد إسماعيل بن أبي المهاجر والزهري، وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويغشى مجالسهم، ويحضر حلقاتهم ويتأدب بآدابهم، ويصغي لكلامهم، ويقبل توجيهاتهم، ويأخذ العلم عنهم، وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم: مكحول الزهري في الشام، والمقبري وابن العتاب من علماء المدينة، وعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم، وبخاصة حفظ الحديث وروايته مما جعل بعضهم يعده من المحدثين، وعن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نوسع له؛ فقال: دعوه يتعلم التواضع، وقد كان رأي عمر بن عبد العزيز فيه حسنًا.

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب سنة إحدى ومائة، بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز. وسار في بادية حكمة بسيرة عمر بن عبد العزيز، إلا أنه لم يستطع المواصلة، قال عنه الذهبي: وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني، وقال عنه ابن كثير: فما كان به بأس، يقول الدكتور عبد الله الشريف.."

لكن الواضح أن درايته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانه، وقيادة الدولة أو تحقيق العظيم من المنجزات، والفريد من السياسات التي تلفت إليها الأنظار، فكان يزيد حاكمًا عاديًا ليس سياسيًا مقتدرًا كمعاوية، أو إداريًا ناجحًا كعبد الملك، أو مصلحًا كعمر، كما لم يكن مسيئًا كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول إن توليته الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة، وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين.

وكان بإمكان يزيد أن يسير على نهج تجربة عمر بن عبد العزيز، ويعطي العلماء دورهم القيادي المنوط بهم كما كانوا في عهده، إلا أن العلماء تراجعوا إلى حَدٍّ كبير، وحُرِمت الأمة من تجربة ناجحة تنفست بها الصعداء، وأطلت من خلالها على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، **ولعل هذا التراجع**

الذي حدث لمشاركة العلماء في عهد يزيد يرجع إلى عدة عوامل أهمها:

١. شخصية يزيد بن عبد الملك: حيث لم يكن بمكانة عمر وحماسته وحرصه على أن يسوس الناس بمنهج الله بلا محاباة ومساومة، كما لم يكن على منهج عمر في نظرته للخلافة على أنها تكليف لا تشريف، وأنها عمل لإسعاد غيره على حساب نفسه وأهله، ويدل على ذلك أن يزيد لم يُطِقْ أن يسير على نهج عمر أكثر من أربعين يومًا، ثم عدل عنه إلى نهج الملوك.

٢. العامل الثاني مترتب على الأول ومرتبط به، إذ لما رأى العلماء عزم يزيد ترك العمل بسيرة عمر، ولم يجدوا عنده ما وجدوه عند عمر، تركوه وانصرفوا إلى مسؤولياتهم العلمية، فحين قال قائل لرجاء بن حيوة لما اعتزل يزيد: إنك كنت تأتي السلطان فتركتهم! قال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا"، وأما ما ورد من أن يزيد تخلَّى عن السير على نهج عمر لأنه شهد له أربعون شيخًا بأن ليس على الملوك حساب ولا عذاب فهذا ادِّعاء أوهَى من أن يُرَدَّ عليه؛ فهو يتضمن في طياته الرد على مختلقه، فمن هم الشيوخ الذين شهدوا بذلك الزور؟!!

ثم إنه يتعلق بأمر من ضروريات الإيمان وبديهياته، فأي مسلم ـ مهما بلغ به الجهل مبلغه ـ يعلم أنه يُسأل عن أعماله، ويجازَى عليها، والحديث الصحيح:" كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"..مشهور عند عامة

المسلمين ـ فضلاً عن خاصتهم ـ في هذه العصور المتأخرة، فكيف بعصر صدر الإسلام؟!! ولكن حقيقة الأمر فيما ذكره ابن كثير قال: "فلما ولي يزيد عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسَّنُوا له الظلم."

تشويه صورته بالجواري في كتب التاريخ:

صورت كتب التاريخ يزيد بن عبد الملك بصورة الخليفة اللاهي عن مصالح دولته لاهثًا خلف جارية، ولما ماتت إحداهما رفض أن يدفنها وظل مقيمًا بجوارها حتى جَيَّفت ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد، وفي أسانيد هذه الروايات غير واحد من المجهولين، وقصة يزيد مع جاريته في الأصل بسيطة كما يبدو، فهما جاريتان جميلتان ظريفتان مغنيتان اشتراهما يزيد بعد استخلافه، فملكتا عليه قلبه، خصوصًا حُبابة التي كَلُفَ بحبها، واشتد طربه لغنائها، فحظيت عنده، فلما ماتت حزن لموته، وجزع عليه، ولم يطل العمر به بعدها حيث مات بعدها بأيام معدودة بالطاعون ـ أو كان مرض السُّل ـ وقد أغمض كثير من المؤرخين القول بموته مطعونًا أو مسلولاً، وجعلوه كمدًا وأسفًا على فَقْد حُبابة، مع أنه من غير المستبعد موته بسبب الطاعون أو السل، بل هو الأولى، فكثيرًا ما انتشر وباء الطاعون وغيره من الأوبئة في حواضر الشام كدمشق، فكان ذلك من الأسباب التي دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء القصور في بوادي الشام.

إن قصة يزيد مع جاريته جاءت في المرويات التي تناولتها مهولة مشوهة، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب والتناقض والزيادة، بل والاختلاق فمنها ما يشير إلى تلك القصة باتزان، ومنها ما شابهه بما لا يقبل ولا يعقل، ومنها ما ظهرت فيه الإساءة والطعن بتحريف أو زيادة أو اختلاق؛ فجاءت تلك المرويات تحمل العجب والمنكر، وذلك إما لهوى في نفس راويه، وإما لغرض يقصده ناقلها، أو نقلها مسندة فحمَّل المسئولية من رواها.

انتصار يزيد بن عبد الملك لفاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب:

في ربيع الأول عام ١٠٤ هـ عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين، فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكيء على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق، واستجار بمسلمة بن عبد الملك؛ فدخل على أخيه فقال: إن لي حاجة، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو والله حاجتي؛ فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة؛ فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف؛ فسأل الناس بالمدينة – وكان قد باشر ولاية المدينة ثلاث سنين وأشهرًا –

وكان الزهري قد أشار على الضحاك برأي سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أُشْكِلَ عليه أمرٌ؛ فلم يقبل ولم يفعل؛ فأبغضه الناس وذمَّه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره.

سياسة يزيد بن عبد الملك الإدارية والمالية:

تولى يزيد بن عبد الملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه واتخذ نهجًا آخر تابع فيه كثيرًا من سياسات أسلافه من بني أمية الإدارية والمالية، وخالف عمر بن عبد العزيز في بعض تجديداته وإصلاحاته خاصة في المجال المالي.

وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته يتبين أن الاختلاف بين شخصيتي يزيد وسلفه عمر هو الذي كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين؛ فقد غلب على عمر بن عبد العزيز الوازع الديني فاتسمت سياسته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة و الكفاءة الإدارية والحضور الدائم، والانصراف إلى العمل، وتحمل المسئولية.

والحق أن يزيد بن عبد الملك لم يدع الأمور تجري بلا ضابط، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث يعالجها ويوجهها ويخطط لها، لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشئون دولته كما كان يفعل سلفه عمر، ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة مصونة في الداخل والخارج، وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر، قال ابن تغري بردي: غير أنه لما ولي الخلافة يزيد بعد عمر بن

عبد العزيز غيَّر غالب ما كان قرره عمر، وقال: ثم عزل جماعة من العمال.. فلم يقل: غير كل ما قرره عمر، أو عزل جميع عماله، ويبدو جليًا أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق إستراتيجية مرسومة، كما يظهر أنه لم يُحِط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التي تمت في عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التي تعيشها من جَرَّاء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها في جسم الأمة ونشر الدين الإسلامي بينه، وهذا ما لمسه عمر بن عبد العزيز وسعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك فعاد إلى سياسة من سبق عمر من خلفاء بني أمية وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط حركة الفتوح وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلي وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة في أمة الإسلام وتطبيق الإحكام الإسلامية عليهم، وللحق فإن سياسة يزيد وحده لم تكن وراء الوهن الذي أصاب دولة بني أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة في تلك المرحلة من إصلاح، وما تعيشه من متغيرات، استمر في سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير ما صنعه عمر، فاستمر الوهن في عهده، وجرت بعض سياساته بالدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جليًا في زمنه بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة وكيانها مهابًا، فظل ينخر في جسم الدولة متواريًا، حتى ظهر ذلك متأخرًا فيما بعد..

الثورات الداخلية في عهد يزيد بن عبد الملك:

١. ثورة يزيد بن المهلب:

عندما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة خرج عليه يزيد بن المهلب، وخلع بيعته واستولى على البصرة؛ فجهز يزيد بن عبد الملك لقتاله جيشًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، فجمع يزيد بن المهلب جموعًا كبيرة، والتقى الطرفان بالعقر من أرض بابل، ودارت بينهما معركة رهيبة دامت ثمانية أيام قُتِلَ فيها يزيد بن المهلب، وعدد من إخوته، وخلق كبير من جيشه، وتفرق سائر جيشه وأهل بيته فلُوحِقوا وقُتِلُوا بكل مكان وكان ذلك سنة ١٠٢هـ.

٢. حركات الخوارج:

حركة شوذب: ما إن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجي، وتم القضاء عليه وعلى أصحابه على يد مسلمة بن عبد الملك أثناء سيره للقضاء على حركة بن المهلب، فإنه لما دخل الكوفة شكا إليه أهلها شوذب وخوفهم منه؛ فجهز جيشًا من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشي، ووجهه إليهم فدارت سنة ١٠١ هـ الوقعة وتم القضاء على شوذب وكل أصحابه.

حركة مسعود العبدي في البحرين واليمامة: وقد تم القضاء عليها على يد سفيان بن عمرو العقيلي أمير اليمامة، وكان القضاء عليها في أواخر عهد يزيد على قول البعض، وهناك من يرى أن الحركة في عهد يزيد كانت على يد أخِ مسعود العبدي.

حركة مصعب الوالبي: خرج مصعب الوالبي بالكوفة، وتم القضاء عليه في عهد يزيد بن عبد الملك بواسطة عامله ابن هبيرة.حركة عقفان :خرج عقفان الحروري على يزيد بن عبد الملك بناحية دمشق وكان عدد أصحابه ثمانين رجلاً من الخوارج وعندما أراد يزيد القضاء عليه عسكريًا، أُشِيرَ عليه أن يبعث إلى كل رجل من أصحاب عقفان رجلاً من قومه يرده عن رأي الخوارج، على أن يؤمنهم الخليفة، فقد قالوا للخليفة: إن قُتِلَ هؤلاء بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، فوافقهم الخليفة على رأيهم، وسار إليهم أهلوهم وقالوا لهم: إنا نخاف أن نؤخذ بك، وأَمَّنوهم فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان، فبقى وحده فأرسل إليه يزيد أخاه فاستعفه وأمَّنه، فردَّه وقد ترك رأي الخوارج، بل إنه خدم الدولة فتولى زمن هشام أمر العصاة، ثم استعمل على الصدقة حتى توفي هشام.

٣. حركة شريم اليهودي:

وهو يهودي سوري أعلن أنه المسيح المنتظر والمنقذ لليهود، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين، فغادر يهود بابل وأسبانيا موطنهم ليشتركوا في هذه المغامرة، إلا أن القائم بها أُسِرَ، وعرضه الخليفة يزيد بن عبد الملك على الناس على أنه مهرج دجال، ثم أمر به فقُتِل.

الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز، والذي لجأ لذلك في شيء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى التي شهدها عهده، **وكانت حركة الفتوح على الجبهات كالتالي:**

ا. الفتوحات في بلاد ما وراء النهر:

أوقف عمر بن عبد العزيز حركة الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، وكان الباعث على هذه السياسة هو نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بدلاً من الجهاد الحربي، ومع ما لهذه السياسة من إيجابيات كإسلام بعض ملوك وأهالي هذه المناطق، إلا أنها أطمعت آخرين في المسلمين، وحفزتهم على التمرد وشق عصا الطاعة، فقد تمرد الصغد على سلطان المسلمين، وهاجم الترك البلاد وعاونوا الصغد منذ أيام عمر بن عبد العزيز خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدي ١٠٠)ـ ١٠٢هـ) وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز الحرشي ١٠٢)ـ ١٠٣هـ) الذي تولى خراسان من قِبَلِ الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي كان عليه إخماد ذلك التمرد، وبعد سلسلة من المعارك خاضها سعيد بن عبد العزيز إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامي (١٠٣ ـ ١٠٤ هـ قضى على حركات التمرد من جانب الصغد والترك، وأعادهم إلى الاعة صلحًا أو عنوة، وبذلك استعاد المسلمون سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد.

ولم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشي من تمكن وسيادة فيما وراء النهر؛ فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع في ولاية مسلم بن سعيد الكلابي على خُراسان(١٠٤:١٠٦هـ)، فقد غزا الأخير الترك فيما وراء النهر سنة ١٠٥هـ فلم يفتح شيئًا وعاد أدراجه، بل إن الترك تعقبوه فلحقوا به، وهو يعبر نهر جيحون بجنده.

وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو وفي عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك وهي في ظاهرها حملة ناجحة، وإن لم تحقق مكاسب جديدة، إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه كان فيه دلالة على طمع الترك بهم، وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر، وعودة الاضطراب إليها.

٢. الفتوح في أرمينية:

استؤنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور في عهد يزيد بن عبد الملك، وقد أشار الطبري وغيره إلى إغارة قام بها الترك سنة ١٠٣هـ على اللان، ومنها يتبين عوده الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم في أرمينية، وهذا ما دفع أمير أرمينية ـ آنذاك ـ معلق بن صفار البهراني إلى القيام بحملة على الخزر؛ فلقيهم بمرج الحجارة في رمضان في نفس العام ولكنه هزم، مما أطمع الأقوام القوقازية والتركية في المسلمين؛ فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية وشنوا غاراتهم وتوغلوا في البلاد؛ مما دعا الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وأذربيجان سنة ١٠٤هـ وأسند إليه مهمة صد الخزر، وأَمَّرَ حربهم، وأمده بجيش كبير، وأمره بحرب

الأعداء وقصد بلادهم وما أن سمع الخزر بمقدم الجراح حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التي كانوا قد استولوا عليها، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة باب الأبواب وعندما وصل الجراح إلى مدينة باب الأبواب وجدها خالية؛ فبث سراياه على ما يجاوره من البلاد فنصروا وغنموا.

ويبدو أن ما حققه المسلمون من نصر ومغانم أثار الخزر فتوجهوا إلى الجراح في أربعين ألفًا بقيادة ابن ملكهم ويدعي "نارستيك" ابن خاقان أما المسلمون فكانوا خمسة وعشرين ألفًا بقيادة الجراح والتقى الفريقان على نهر الران سنة ١٠٤هـ بعد معركة عظيمة نصر الله المسلمين وهزم الخزر، وتم إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم..

كما فتح الجراح حصن "بلنجر" سنة ١٠٤هـ عنوة، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار، أما صاحب بلنجر فقد تمكن من الفرار مع خمسين من قومه، فبعث الجراح إليه بالأمان ورد إليه حصنه وأهله وأمواله ليكون صنيعة للمسلمين وعينًا لهم على أعدائهم، ثم واصل الجراح فتوحاته، وتوجه إلى حصن "الوبندر" وصالح أهله ثم رجع بجيشه إلى "شكى" بعد سماع أخبار من صاحب "بلنجر" تتعلق باجتماع الخزر لحربه، وبعد نزوله "شكى" كتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه، ذاكرًا له اجتماع الخزر لحربه كما سأله المدد إليه، وبعد مجيء هشام بن عبد الملك حرص على إكمال ما بدأه سلفه، فأقرَّ الجراح على ولاية أرمينية وأمده بما يمكِّنه من صيانة الثغور، ودفع الأعداء عن ديار الإسلام.

الفتوح في أرض الروم:

تمثلت الجهود العسكرية- التي نمت في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ضد الروم- في تحصين الثغور وشحنها وصيانة الحدود والدفاع عنها، والفتح برًا عن طريق الصوائف والشواتي، وما تم خلال ذلك من فتوحات في آسيا الصغرى، والغزو بحرًا لجزر الحوض الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن طريق إفريقية-وقد كان عهد يزيد بن عبد الملك خاليًا من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين-وفي معاودة التفكير في فتح القسطنطينية عاصمتهم العتيقة، وإن كانت الصوائف والشواتي التي وُجِّهَت لآسيا الصغرى قد حفلت بكثير من الانتصارات، وفتح كثير من المدن والمواقع الرومانية.

٣. الجهاد في البحر المتوسط:

تابع ولاة إفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك جهود من سبقهم من أمراء الشمال الأفريقي، فقد قام يزيد بن أبي مسلم أمير أفريقية (١٠١ ـ ١٠٢هـ) بغزو جزيرة صقلية سنة ١٠١هـ، كما وجه مِن قِبَلِه سنة ١٠٢ هـ محمد بن أوس الأنصاري في غزوة بحرية إلى صقلية فعادت الحملة سالمة غانمة، وكان سبب تركيز أمير أفريقية على صقلية لأهميتها بالنسبة للروم، وهي محاولة لضرب تلك القاعدة البيزنطية المهمة، وتهديدًا للأعداء

وإشغالهم عن مهاجمة الساحل الإفريقي، وأما ولاية بشير بن صفوان على إفريقية (١٠٢ ـ ١٠٩هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية على جزر سردينية وكورسيكا وصقلية.

ومن غزواته في خلافة يزيد بن عبد الملك الحملة التي وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبي إلى جزيرة سردينية سنة ١٠٣ هـ فكان نصيبها النجاح حيث غنم المسلمون وسلموا.

٤. الفتوح في بلاد الغال:

بلاد الغال: تعني عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرينة) وجبال الألب والأوقيانوس، ونهر ألبا وملكة الروم، وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان، وأممها تتحدث بعدة لغات.

شهد عصر الخليفة يزيد بن عبد الملك حملة من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس، وهي الغزوة التي قادها السمح بن مالك الخولاني (١٠١ ـ ١٠٢هـ) إلى تلك الأصقاع.

وفي معركة غير متكافئة حيث بلغ جيش الفرنج عشرة أضعاف جيش المسلمين، أبدى فيها المسلمون من ضروب الشجاعة والإقدام ما لا يتصوره عقل، استُشهِد السَّمْح بن مالك سنة ١٠٢هـ في معركة "طولوشة" فأُسْنِدَتْ قيادة الجيش إلى أحد كبار الجند وهو "عبد الرحمن الغافقي" الذي نجح في الانسحاب بالجيش في مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين وإصابتهم في حالة التقهقر حتى وصل"أربونة.."

استمر عبد الرحمن الغافقي أميرًا للأندلس بتقديم أهل الأندلس له منذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولاني حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبي أميرًا للأندلس من قبل بشر بن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب، وذلك في سنة ١٠٣ هـ، وكان عنبسة من طراز السمح بن مالك رجلاً تقيًا وإداريًا بارعًا وعسكريًا فذًا، وكان حريصًا على الإسلام وأمينًا على دولته، فكان خير خلف لخير سلف، لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور في الأندلس، وإخماد الفتن فيها، ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية في الأندلس للقضاء على حركة "بلاي" وإخماد التمرد الذي قام به "أخيلا بن غطيشة" في مدينة طركونة حتى استقام له أمرها، ثم أعد نفسه للجهاد وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفس، وكان بداية ذلك سنة ١٠٥ هـ وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين، وبذلك يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وقد يكون خروجها قد تم في أواخر زمنه ـ أيضًا ـ أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات في بلاد الغال فإن ذلك قد حدث في خلافة هشام بن عبد الملك.

وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل إن يزيد مرض بالسل ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ بسواد الأردن، وقيل: إنه مات بالجولان، وقيل: بحوران، وصلَّى عليه ابنه الوليد بن يزيد، وقيل: صلَّى عليه أخوه هشام بن عبد الملك وهو الخليفة من بعده، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفِنَ بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده.

الفصل التاسع

الخليفة هشام بن عبد الملك

نبذة عن الخليفة:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي أمير المؤمنين، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

وُلِدَ هشام بن عبد الملك ـ على القول الراجح ـ سن ٧٢هـ، وسماه عبد الملك منصورًا لانتصاره على مصعب في تلك السنة.

قضى هشام الشطر الأخير من طفولته في منزل الخلافة الأموي بالشام في أواخر حكم أبيه وإخوته من الخلفاء وكان هشام مغمورًا في البلاط الأموي زمن أخويه الوليد وسليمان، وقد بقي بعيدًا عن مسرح الأحداث نسبيًا حتى توليه الخلافة سن ١٠٥هـ، وهو الرابع من ولد عبد الملك لصلبه الذين ولوا الخلافة.

كان هشام في خلافته حازم الرأي جماعًا للأموال، وكان ذكيًا مدبرًا، له بعد للأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، قال فيه الذهبي: كان عاقلاً حازمًا سائسًا فيه ظلم وعدل.

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة بعهد من أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ ،وكان هشام يُعَدُّ من ساسة بني أمية المشهورين، كان شديد المراقبة لعماله ودواوينه، وقد شهد له بجدارته أحد خصومه فقال عبد الله بن علي بن

العباس: جمعت دواوين بني مروان فلـم أَرَ ديوانًـا أصـح ولا أصـلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

حياته:

وُصِفَ هشام بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضـع الدرهم على الدرهم يكون مـالاً، ويبـدو أن السـبب في هـذا الوصـف شـدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان وحريصًا على مال المسلمين، ولذلك وصفه الشعراء والكُتَّـاب بالبخـل؛ لأن الشـعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية.

اتهامه بشرب الخمر:

جاءت روايات لا يصح إسنادها تشير إلى أن هشام بن عبد الملك كـان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة، وكانت له مجالس يدار فيهـا الخمـر، فإن تلك الروايات لا تصح من حيث السند، كما أن سيرة هشـام منافيـة لهـذا الاتهام الباطل، فقد زجر ولي عهده لمعاقرتـه وإدمانـه الخمـر، كـما زجـر ابنـه مسلمة المكَنى أبا شاكر، وألزمه الأدب وحضور الجماعة.

تقبله للهدايا:

كان هشام يتقبل الهـدايا مـن الـولاة وغـيرهم، ولم يَـرَ بـذلك إضرارًا بمصلحة الدولة أو إجحافًا بحقوق الناس، ولا شك أن قبول هشام للهـدايا من الولاة خاصة، وعدم إمعانه في التحري عن مصادر تلك الهدايا أمـر غـير مقبول، من حاكم مثله وهذا مخالف للنهج الذي سـار عليـه عمـر بـن عبـد العزيز.

فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ الْلَّتَبِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ قَالَ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي.

تربيته لأولاده:

كان لهشام عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، ويختلف المؤرخون في عددهم؛ فيذكر ابن حزم أن عددهم كان ستة عشرة ولدًا وبعض البنات، وقد حاول هشام أن يحسن تربية أولاده فاختار لهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري المحدث لتأديبهم، واختار هشام لأولاده ـ أيضاً ـ من يعلمهم اللغة والشعر وكان يحضر ـ أحيانًا مجالس مؤدبيهم، وكان يعطي مؤدب ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز، وكان يوصي مؤدب ابنه أن يعلمه القرآن، ويروِّه الأشعار، وأيام الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن، وقيل: أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويقريه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروه من الشعر أحسنه،

ويتخلل به مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطرفًا من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين، وبالرغم من ذلك فقد أساء بعض أبنائه السيرة، ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط الدولة الأموية عدا حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

ويُذكَر أن هشاماً شتم ابنه محمدًا لقيام أحد عبيده بضرب طفل نصراني، كان قد اعتدى على أحد أولاد محمد، كما منع أحد أولاده من ركوب الدابة سنة، عقابًا له على عدم حضوره لصلاة الجمعة بحُجَّة موت دابته، وأنه ليس باستطاعته أن يحضر إلى المسجد ماشيً، وقد كان هشام يهتم بتصرفات أولاده ويرغب لهم أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس، وتصلح أحوالهم مع ربهم ودينهم، ويتضح ذلك من اختياره لمؤدبهم، وتوليتهم مواسم الحج، وإجبارهم على حضور الجمعة.

كما كان هشام يُشرِكُ أولاده بالحروب، ويقلدهم قيادة جيوش الغزو وقد اشتهر منهم معاوية بن هشام، قال عنه ابن حزم: قاد الصوائف عشر سنين، وقد شارك معاوية في قيادة الحملات الموجهة لغزو الروم زمن أبيه أكثر من عشر مرات، وقد شارك في قيادة حملات الغزو من أولاد هشام: سليمان، ومسلمة، وسعيد، ومحمد.

علاقة هشام بن عبد الملك بالرعية:

كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل، وقضائهم حوائج الخلق، ولا يكتفي بذلك بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم، ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم،

وكان له موضع بالرصافة تُضرَب له به السرادقات، فيكون فيه ستين ليلة بارزًا للناس، يرد فيها المظالم ويأخذ على يد الظالم، من جميع الناس وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي السوام والأمة السوداء، فمَنْ دونهما وقد وَكَّل رجالاً عقلاء بإدناء الضعفاء، والنساء واليتامى منه، ويستقبل وفود الأمصار فيلبي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنع لهم الطعام بنفسه فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد مفرًا من إرضائه بكل سبيل، فقد شتم هشامٌ مرة رجلاً من الأشراف؛ فوبخه ذلك الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاسْتَحَى منه وقال: اقتصَّ مني، فقال: إذًا أنا سفيه مثلك، قال: فخُذْ عوضًا من المال؛ قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هي لله، ثم لك؛ فنكس هشام رأسه واستحى، وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبدًا.

وفي أيام هشام قحطت البادية، فقدمت عليه وفود العرب، فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة، ثم قال هشام لحاجبه: من أراد أن يدخل عليَّ فليدخل فدخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه؛ فقال :يا أمير المؤمنين إن للكلام طيًا ونشرًا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أَذِنَ لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال :انشره لله دَرُّك؛ فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كان لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا

تحسبوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، قال هشام: ما ترك لنا الغلام واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: أما لك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين.

كان هشام لا يدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون رجلاً أنه أُخِذَ من حقه، ولقد أعطى لكل ذي حق حقه، ويقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله..

يوميات هشام ومجلسه:

كان هشام إذا صلَّى الغداة كان أول من يدخل عليه حرسه، فيخبره بما حدث في الليل، ثم يدخل عليه موليان له مع كل واحد منهما مصحف فيقعد أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره حتى يقرأ عليهما جزأه، ويدخل الحاجب فيقول: فلان بالباب، وفلان، وفلان، فيقول: ائذن، فلا يزال الناس يدخلون عليه، فإذا انتصف النهار وُضِعَ طعامُه، ورُفِعَتِ الستورُ، ودخل الناس وأصحاب الحوائج وكاتبه جالس خلف ظهره، فيقول: أصحاب الحوائج، فيسألون حوائجهم، فيقول: لا، ونعم، والكاتب خلفه يوقع بما يقول: حتى إذا فرغ من طعامه وانصرف الناس صار إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعا بكُتَّابه فناظرهم فيما ورد من أمور الناس حتى يصلي العصر، فإذا صلَّى العشاء حضره سمَّاره: الزهري وغيره.

اهتمامه بحلبات السباق:

كان هشام بن عبد الملك يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له من خيله فيها وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يكن ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس، وكان هشام يقبل الهدايا من الخيل، ويقيم حلبات السباق لها، ويصلح الطرق ويوسعها لأجل ذلك، وكان يفرح كثيرًا إذا فازت خيله في السباق ويطلب من الشعراء وصف الفرس أو الحصان الفائز..

اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى:

كان الخليفة هشام بن عبد الملك شغوفًا بالإطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتاب عن تاريخ فارس، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به، فترجم مولاه سالم بعض كتب أرسطو إلى العربية، كما ورث ابنه جبلة بن سالم عن أبيه كثيرًا من معارفه وعلومه؛ فترجم بعض الآثار التاريخية إلى العربية.

العلماء في عهد هشام بن عبد الملك:

عندما تولى هشام بن عبد الملك حاول تقريب بعض العلماء ـ بعض الشيء ـ والاستفادة منهم، ومن أشهر هؤلاء العلماء العالم الجليل محمد بن شهاب الزهري، والإمام الأوزاعي، وأبو الزناد وغيرهم، وكان تأثير هؤلاء العلماء في اتخاذ القرار في بعض الجوانب، وبطريق غير مباشر من خلال تأثير قربهم من الخليفة وأسرته ـ لاسيما الزهري ـ على سلوك هشام وسيرته، ولعل الذي حَدَّ من تأثير العلماء في توجيه القرار في عهد هشام ـ مقارنة بتأثيرهم في

عهد عمر بن عبد العزيز ـ هو محاولة هشام أن يمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وَسَطًا بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة المُلك، ووسطًا بين عصبية القبائل القيسية واليمنية، وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه: " فيه ظلم مع عدل.."

سياسة هشام بن عبد الملك الخارجية:

لم يكن هشام بن عبد الملك رجل دولة من طراز رفيع في إدارة شئون الدولة الداخلية فحسب، بل أعطى عناية كبيرة للسياسة الخارجية، ولصيانة حدود الدولة وتأديب أعدائها، يقول فلهاوزن: "ولا شك أن المؤرخ يخطيء في تصور هشام، إذا ظن أنه كان خليفة لا هَمَّ له إلا أمور الإدارة والشئون الداخلية، على أن هشامًا لم يكن جنديًا ولكنه لم يكن يرهب الحروب، بل هو وجهها بهمة وبكل الوسائل، وجهَّز جيوشًا كبيرة، ولم يدخر في ذلك الأموال ولا حياة الرجال وكانت يداه -دائمًا- مشغولتين بالمشروعات الحربية في أكثر المواضع تباعدًا؛ فقد كانت جيوشه تقف بالمرصاد للروم، واستمر في إقامة الحصون على الحدود، وكان قواده لا يكفون عن الغزو والجهاد، وكان هشام يسند قيادة الجيوش في معظم الأحيان إلى رجال من أسرته، مثل: أخيه مسلمة بن عبد الملك، وأبنائه معاوية وسليمان، وأبناء عمه مثل: مروان بن محمد بن مروان، وأبناء إخوته مثل: العباس بن الوليد بن عبد الملك.

وإذا كان هناك من مأخذ على هشام بن عبد الملك فهو تغافله عن دعاة بني العباس الذين نشطوا في عهده في الدعوة لآل البيت وانبثوا في خراسان،وجَدُّوا في تشويه سمعة الدولة الأموية، وفي الاستعداد لتقويضه

ولعل كراهية هشام للعنف وسفك الدماء كانت سببًا في تغاضيه عنهم حتى استفحل أمرهم، وقد ظهرت آثار ذلك قبيل وفاته واستفحلت بعده، بحيث لم يستطع خلفاؤه وقف مَدِّ الدعوة العباسية التي نجحت في نهاية الأمر في القضاء التام على أسرته، ولذلك يقول ابن كثير: "لما مات هشام بن عبد الملك مات مُلْكُ بني أمية وتولى، وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله، واضطرب أمرهم جدًا، وإن كانت تأخرت أيامهم بعهده، نحوًا من سبع سنين، ولكن في اختلاف وهيج، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم وقتلوا منهم خلقًا وسلبوهم الخلافة"

وفاة هشام بن عبد الملك:

تُوُفي هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ.

عصر الضعف في الخلافة الأموية:

بعد وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ بدأت عوامل الضعف تسري في جسد الدولة الأموية، وبدأت الدولة تسير في منحدر الهاوية، وبدأت شمس الدولة في الأفول، فبوفاة هشام بن عبد الملك بدأت الاضطرابات والفتن والقلاقل تظهر على مسرح الأحداث في الدولة الأموية، واستمر الأمر كذلك نحوًا من سبع سنوات بعد وفاة هشام بن عبد الملك حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الخلافة العباسية.

وقفات مع الجهاد في الخلافة الأموية:

حافظت الدولة الإسلامية في العصر الأموي على أن تظل أُمَّةً مجاهدة؛ فأبقت القسم الأكبر من مواردها المالية يُصرف في المجال العسكري. وإضافة إلى إخراج الرواتب للجند، والأرزاق للذرية، والمعونة للمقاتلة عملت الدولة على توفير وسائل القوة ووجوه المنعة للجيش؛ فأقامت المدن العسكرية في جميع جبهات القتال ،وعبأتها بالجنود وشجعت الناس على الانتقال إليها والإقامة به، وأقطعتهم الأراضي الزراعية يستغلونه، والمنازل يسكنونه، ووفرت بها الطعام ومخازن الأسلحة والكسوة وحَصَّنتها بالأسوار والخنادق وبَنَتِ القلاعَ والحصونَ وأقامتِ المناظرَ والمنارات على طول الطريق بين الثغور والداخل، وجعلت المواقد عليها لتكون أخبار الثغور حاضرة على الدوام عندها.

وقد تحول كثير من هذه المدن العسكرية إلى مراكز مدنية حافلة بالبناء وأماكن العبادة ومراكز الثقافة وأسواق التجارة، وأخذت تشهد نهضة طيبة في الوجوه المختلفة من النشاط البشري.

كما عززت الدولة القوة العسكرية بإنشاء سلاح البحرية، وأقامت دور صناعة السفن في عكا ثم من بعدها في صُور من بلاد الشام، وفي جزيرة الروضة والفسطاط من بلاد مصر، وفي تونس ،وزُوِّدَتْ هذه المصانع بما يلزم من المواد والصناع.(اليعقوبي، تاريخه ج٢ ص٣٢٤، لبلاذرى فتوح البلدان ص:١٠٤ مروج الذهب)

ولم تغفل الدولة أن تأخذ الجيش بالتدريبات وإقامة العروض، وفي حال القيام بالغزو ،كانت تعطى الجنود أعطياتهم كتلا ،وتأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل، وتوعب فيه أهل الجدة والصبر والشجاعة ، وتجعل القيادة إلى أهل الخبرة والرأي والبأس والشجاعة والفضل والدين (أبو جعفر الطبري، تاريخه ج: ٦، ص:٧٢٧)).

لقد امتدت الفتوحات الإسلامية على يد الأمويين إلى آفاق لم يعرفها عصر الراشدين، حيث شملت دولة الإسلام ما بين الصين شرقا وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا غرباً.وطرقت أبواب القسطنطينية ، وضيَّقت عليها الخناق، وحاصرتها ثلاث مرات، وتحول بحر الروم إلى بحيرة إسلامية، ونشرت أعلام الإسلام في القارات الثلاث المعروفات آنذاك آسيا وأفريقيا وأوروبا، ودخلت أعداد غفيرة من البشر بذلك في دين الله، وأصبحت لغة العرب في أوج قوتها وثرائها، وأضحت لساناً لكثير من سكان هذه البلاد، وتحققت ألوان فذة من البطولة والتضحية، وطلب الشهادة في سبيل الله خلَّفت ذكرياتٍ مجيدة، ظلت غذاء ومدداً على امتداد التاريخ وتوالى الأجيال حتى اليوم، ولا تزال مسامع الدنيا تعى أسماء مثل المهلب بن أبى صفرة ويزيد بن المهلب، وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد ومسلمة بن عبد الملك.وغيرهم.

ولا ريب أن هذه الصفحات من صفحات الفَخَار للأمويين قد أثارت إعجاب الكثيرين من المؤرخين المنصفين والمتحاملين على الأمويين على السواء فقال الحافظ ابن كثير: "فكانت سوق الجهاد قائمة في بنى أمية، ليس

لهـم شـغل إلا ذلـك، قـد علـت كلمـة الإسـلام في مشـارق الأرض ومغاربها ،وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله ،وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً. لا يتوجه المسلمون إلى قُطْرٍ من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصـالحون والأوليـاء والعلـماء مـن كبـار التابعين في كل جيش مـنهم شرذمـة عظيمـة ينصرـ الله بهـم دينـه" ويعـترف جورجي زيدان- أحد المتحاملين على بنى أمية- بذلك:"ولم يبلغ العرب مـن الغزو والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هـذه الدولـة، وقـد تكـاثروا في عهـدها، وانتشروا في ممالك الأرض ."

ولم يكن تحقيق هذه الانتصارات الرائعة أمراً سـهلاً، أو عمـلاً يسـيراً؛ فقد استمر الأمويون يحاربون الروم والبربـر في شـمالي أفريقيـا -مـثلاً- نَيِّفـا وأربعين سنة حتى تمكنوا أخيرًا من إخضاعهم و إتمـام الفـتح، وعـلى الجبهـة الشمالية كان القتال في اتجاه القسطنطينية مكلفاً وباهظاً ومتواصلاً تقريباً عـبر الصوائف والشواتي، وفي ظروف جغرافية ، ومناخية عسـيرة، أمـا في الجبهـة الشرقية في بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند وعـلى مـا يـرى فلهوزن –فإن"الحروب في تلك البلاد لم تكن بالأمر اليسير عليهم فقد كـانوا أول الأمر قلة في العدد، ولم يكن سـلاحهم كافيـاً، وكـان بُعْـدُ المسـافات وصـعوبة الأرض وظـروف المنـاخ كلهـا مصـدرا لعقبـات كثـيرة قامـت في سبيلهم، وكان لابد لهم أن يحملوا معهم المؤن والملابس التي تقيهم البرد، ولم يكونوا يستطيعون الخروج إلى الغزو إلا في الفصـل المناسـب لـذلك مـن العام، ولم يكن أعداؤهم بالذين يُستَهانُ بهم، وكـان المسـلمون إذا حـاصروا مدينة جاءت لنجدتها في معظم الأحيان جيوش جرارة."

أمويون مجاهدون بأنفسهم:

كان الأمويون أنفسهم يصطلون بنيران هذا الجهاد، ويقدمون بأنفسهم القدوة والمثل في التضحية وقيادة الجيوش ومصادمة الأعداء فقد أرسل معاوية –رضي الله عنه –ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مراتٍ للغزو في بلاد الروم، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تُعد، وحصاره مدينة الروم– القسطنطينية– معروف ومشهور، وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى الغزو في أغلب الأحيان، وأولاد الوليد بن عبد الملك وهم العباس وعبد العزيز وعمر ومروان يقودون الغزو في بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك، كما أن سليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة في بلاد الروم، وأما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بنى مروان جميع، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء، وكان أولاده في مقدمة الغزاة، ومنهم معاوية وسليمان ومسلمة وسعيد وغيرهم، أما مروان بن محمد فكان بنفسه يقود الجيوش ويصبر في القتال صبراً شديداً حتى لُقِّبَ بالحمار.

الفصل العاشر
الشيعة في العصرين الأموي والعباسي

مقدمة:

الشيعة في العصرين الأموي والعباسي لا نأتي بجديد إذا ذهبنا إلى القول بأن الهجمة الشرسة التي كانت تستهدف استئصال الشيعة والقضاء عليهم قد أخذت أبعاداً خطيرة ودامية أبان الحكمين الأموي والعباسي، فما أن لبى الإمام دعوة ربه في ليلة الحادي والعشرين من رمضان على يد أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، وهو يصلي في محراب عبادته، حتى شرع أعداء الإمام وخصوم التشيع إلى التعرض الصريح بالقتل والتشريد لأنصار هذا المذهب والمنتسبين إليه، وإذا كان استشهاد الإمام علي يؤلف في حد ذاته ضربة قاصمة في هيكلية البناء الإسلامي، إلا أن هذا لم يمنع البعض ممن وقفوا موقفاً باطلاً ومنحرفاً من الإمام علي في حياته من التعبير عن سرورهم من هذا الأمر الجلل، كما نقل ذلك ابن الأثير عن عائشة زوجة رسول الله (صلى الله عليه وآله) **حيث قالت عندما وصلها النبأ:**

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله، فقيل: رجل من مراد ، فقالت:

فإن يك نائيا فلقد نعاه ... نعي ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعلي؟ فقالت: إني أنسى، فإذا نسيت فذكروني . . . ! !.

الشيعة في العصر الأموي:

أما معاوية فلا مناص من القول بأنه أكثر المستبشرين بهذا الأمر، حيث إنه قال لما بلغه: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في الحرب قد قضى نحبه. ثم أنشد:

قل للأرانب ترعى أينما سرحت وللظباء بلا خوف ولا وجل

في الجانب الآخر نرى أن الإمام الحسن الابن الأكبر للإمام علي ووارثه ينعى أباه بقوله في مسجد الكوفة: "ألا إنه قد مضى في هذه الليلة، رجل لم يدركه الأولون، ولن يري مثله الآخرون. من كان يقاتل وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله. والله لقد توفي في هذه الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم، وأنزل القرآن. ألا وإنه ما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله".

ثم بويع الحسن في نهاية خطبته، وكان أول من بايعه قيس بن سعد الأنصاري ، ثم تتابع الناس على بيعته ، وكان أمير المؤمنين قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت. فبينما هو يتجهز للمسير قُتل. فبايع هؤلاء ولده الحسن، فلما بلغهم مسير معاوية في أهل الشام إليه، تجهز هو والجيش الذين كانوا قد بايعوا علياً. وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية.

بيد إن الأمور لم تستقم للإمام الحسن لجملة من الأسباب المعروفة، أهمها تخاذل أهل العراق أولاً، وكون الشيوخ الذين بايعوا عليا والتفوا حوله

كانوا من عبدة الغنائم والمناصب، ولم يكن لهؤلاء نصيب في خلافة الحسن إلا ما كان لهم عند أبيه من قبل ثانياً.

وإن عدداً غير قليل ممن بايع الحسن كانوا من المنافقين، يراسلون معاوية بالسمع والطاعة ثالثاً. كما أن قسما من جيشه كانوا من الخوارج أو أبنائهم رابعاً.

إلى غير ذلك من الأسباب التي دفعت الإمام إلى قبول الصلح مع معاوية تحت شروط خاصة تضمن لشيعة علي الأمن والأمان، إلا أن معاوية وبعد أن وقع على صلحه مع الإمام الحسن لم يتردد من الإعلان عن سريرته بكل صراحة ووضوح على منبر الكوفة: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا - وإنكم لتفعلون ذلك - ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون، ألا وإني قد كنت منيت الحسن أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له.

وكان ذلك التصريح الخطير، والمنافي لأبسط مبادئ الشريعة الإسلامية، يمثل الإعلان الرسمي لبدء الحملة الشرسة والمعلنة لاستئصال شيعة علي وأنصاره تحت كل حجر ومدر. وتوالت المجازر تترى بعد معاوية إلى آخر عهد الدولة الأموية، فلم يكن للشيعة في تلك الأيام نصيب سوى القتل والنفي والحرمان.

وهذا هو الذي نستعرضه في هذا الفصل على وجه الإجمال، حتى يقف القارئ على أن بقاء التشيع في هذه العصور المظلمة كان معجزة من معاجز الله سبحانه، كما يتوضح له مدى الدور الخطير الذي لعبه الشيعة في الصمود والكفاح والرد على الظلمة وأعوانهم منذ عصر الإمام إلى يومنا هذا.

بـعض الوثائق من جرائم معاوية.

رسالة الإمام الحسين إلى معاوية: "أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها رغبة بي عنها، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رمي إليك عني، فإنما رقاه الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون المارقون، ما أريد لك حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين حزب الظلمة وأعوان الشيطان الرجيم.

ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين – إلى أن قال – أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك في زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه، ودين علي هو دين ابن عمه (صلى الله عليه وآله) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم، وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأمة في فتنة وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد.

وإني والله ما أعرف فضلاً من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعله فأستغفر الله لديني. وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت : متى تكدني أكدك ، فكدني يا معاوية ما بدا لك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ولا تمحق إلا عملك فكدني ما بدا لك، واتق الله يا معاوي، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة، وأخذك بالتهمة

وإمارتك صبيا يشـرب الشرـاب ويلعـب بـالكلاب، مـا أراك إلا قـد أوبقت نفسك، وأهلكت دينك، وأضعت الرعية والسلام."

ولعل المتأمل في جوانب هذه الرسالة والمتدبر لمفرداتها يدرك وبوضوح مدى الدور المنحرف الذي وقفه الأمويون وعـلى رأسـهم معاويـة في محاربـة أنصار مذهب التشيع ورواده، كما تتوضح له الصورة عن حجم المحنـة التـي مر بها الشيعة إبان تلك الحقبة الزمنية.

ولكي تتوضح الصورة في ذهن القارئ الكريم ندعوه إلى قراءة رسـالة الإمام محمد بن علي الباقر رضي الله عنه لأحد أصحابه، حيث قال: "إن رسـول الله (صلى الله عليه وآله) قبض وقد أخبر أنا أولى الناس بالناس ، فـتمالأت علينـا قريش حتـى أخرجـت الأمـر عـن معدنـه واحتجـت عـلى الأنصـار بحقنـا وحجتنا.

ثم تداولتها قريش، واحد بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حتى قتل، فبويع الحسن ابنه وعوهد ثم غدر به وأسلم ووثب عليه أهـل العـراق حتـى طعـن بخنجر في جنبه ، ونهبت عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده، فـوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليل حق قليل. ثم بايع الحسين من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليـه، وبيعتـه في أعنـاقهم وقتلوه ثم لم نزل - أهل البيت - نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتـل، ونخـاف ولا نـأمن عـلى دمائنـا ودمـاء أوليائنـا، ووجـد الكـاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء

وعمال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنا ما لم نقله ولم نفعله، ليبغضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن رضي الله عنه، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين رضي الله عنه ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحب إليه من أن يقال: شيعة علي، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير - ولعله يكون ورعاً صدوقاً - يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع".

بل وإليك ما أورده ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة:

كان سعد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب، فلما قدم زياد الكوفة والياً عليها أخافه فطلبه زياد، فأتى الحسن بن علي، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته، فحبسهم وأخذ ماله وهدم داره، فكتب الحسن إلى زياد: "من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد: فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره وأخذت ماله وعياله فحبستهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فابن له داره، واردد عليه عياله وماله، فإني قد أجرته فشفعني فيه".

فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد: فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلط على رعيته كتبت إلي في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي ورضا منك بذلك، وأيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك فغير رفيق بك ولا مرع عليك، فإن أحب لحم علي أن آكله اللحم الذي أنت منه، فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه، وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق، والسلام".

"كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي أو البراءة منه، فملأ منهم المسجد والرحبة، فمن أبى ذلك عرضه على السيف".

وعن المنتظم لابن الجوزي: أن زياداً لما حصبه أهل الكوفة وهو يخطب على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرب دورهم ويحرق نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة يعرضهم على البراءة من علي، وعلم أنهم سيمتنعون، فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم.

بيان معاوية إلى عماله: روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب "الأحداث" قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة! !: "أن برأت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته" فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر ، يلعنون عليا ويبرأون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي رضي الله عنه فاستعمل عليها زياد بن سمية، وضم إليه

البصـرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيـام عـلي رضي الله عنه ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيـدي والأرجـل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم مـن شـيعة عـثمان ومحبيـه وأهـل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطـائع، ويفيضـه في العـرب مـنهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجئ أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الروايـة في فضـائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحـد مـن المسـلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هـذا أحـب إلى وأقـر لعينـي، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عـثمان وفضـله ! ! فقرأت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا

حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هـذا المجـرى حتـى أشـادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلمـوه كـما يتعلمـون القـرآن، وحتـى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامـت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته، فـامحوه مـن الـديوان، وأسـقطوا عطـاءه ورزق.

وشفع ذلك بنسخة أخـرى: مـن اتهمتمـوه بمـوالاة هـؤلاء القـوم، فنكلوا به، واهدموا داره. فلم يكـن بلـد أشـد بـلاء مـن العـراق، ولا سـيما الكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي رضي الله عنه ليأتيه من يثق به، فيـدخل بيتـه فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمـه ومملوكـه، ولا يحدثـه حتـى يأخـذ عليـه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه.

فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشـر، ومضـى على ذلك الفقهاء والقضـاة والـولاة، وكـان أعظـم النـاس في ذلـك بليـة القـراء والمـراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عنـد ولاتهـم، ويتقربـوا مـن مجالسـهم، ويصـيبوا الأمـوال والضـياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الـديانين الـذين لا يستحلون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنـون أنهـا حـق، ولـو علموا أنها باطلة لما رووها، ولا تدينوا بها.

وقال ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي رضي الله عنه فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض. ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين رضي الله عنه وولي عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولي عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه، وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضا أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغض من علي رضي الله عنه وعيبه، والطعن فيه، والشنآن له، حتى أن إنسانا وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب - فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني عليا ، وإني فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجاج ، وقال : للطف ما توسلت به، قد وليتك موضع كذا.

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تأريخه ما يناسب هذا الخبر، قال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم.

ضحايا الغدر الأموي:

لعل المرء يصاب بالذهول وهو يتأمل أسماء الصحابة والتابعين ذوي المنازل الرفيعة والمكانة السامية والدور الجليل في خدمة الإسلام وأهله، كيف سقطوا صرعى بسيف الأمويين لا لشئ إلا لأنهم شيعة علي رضي الله عنه ،**ومن هؤلاء:**

١. **حجر بن عدي**: الذي قبض عليه زياد بعد هلاك المغيرة سنة (٥١ هـ) وبعثه مع أصحابه إلى الشام بشهادة مزورة، وفرية ظالمة، كان يراد منها قتله وتوجيه ضربة قوية لشيعة علي وتصفيتهم.

يقول المسعودي: "في سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي - وهو أول من قتل صبراً في الإسلام - وحمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها، فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق. **أنشأت ابنته تقول - ولا عقب له من غيرها:-**

ترفع أيها القمر المنير ... لعلك أن ترى حجرا يسير

يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله، كذا زعم الأمير

ويصلبه على بابي دمشق ... وتأكل من محاسنه النسور

ثم قتله مع أصحابه في مرج عذراء بصورة بشعة يندى لها الجبين، وهي مذكورة في جميع كتب التأريخ.

عمرو بن الحمق: ذلك الصحابي العظيم الذي وصفه الإمام الحسين سيد الشهداء بأنه: "أبلت وجهه العبادة". قتله معاوية بعدما أعطاه الأمان.

٢. **مالك الأشتر:** ملك العرب، وأحد أشرف رجالاتها وأبطالها، كان شهما مطاعا وكان قائد القوات العلوية. قتله معاوية بالسم في مسيره إلى مصر بيد أحد عماله.

٣. **رشيد الهجري:** كان من تلاميذ الإمام وخواصه، عرض عليه زياد البراءة واللعن فأبى، فقطع يديه ورجليه ولسانه، وصلبه خنقاً في عنقه.

٤. **جويرية بن مسهر العبدي:** أخذه زياد وقطع يديه ورجليه وصلبه على جذع نخلة.

٥. **قنبر مولى أمير المؤمنين:** روي أن الحجاج قال لبعض جلاوزته: أحب أن أصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب فقالوا: ما نعلم أحدا كان أطول صحبة له من مولاه قنبر. فبعث في طلبه، فقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم، قال له: ابرأ من دين علي، فقال له: هل تدلني على دين أفضل من دينه؟ قال: إني قاتلك فاختر أي قتلة أحب إليك، قال: أخبرني أمير المؤمنين: أن ميتتي تكون ذبحاً بغير حق. فأمر به فذبح كما تذبح الشاة.

٦. **كميل بن زياد:** وهو من خيار الشيعة وخاصة أمير المؤمنين، طلبه الحجاج فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلما رأى كميل ذلك قال:

أنا شيخ كبير وقد نفد عمري ولا ينبغي أن أكون سبباً في حرمان قومي. فاستسلم للحجاج، فلما رآه قال له: كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً، فقال له كميل: لا تبرق ولا ترعد ، فوالله ما بقي من عمري إلا مثل الغبار، فاقض فإن الموعد الله عز وجل، وبعد القتل الحساب. وقد أخبرني أمير المؤمنين أنك قاتلي، فقال الحجاج: الحجة عليك إذن، فقال: ذلك إن كان القضاء لك، قال: بلى، اضربوا عنقه.

٧. **سعيد بن جبير :** التابعي المعروف بالعفة والزهد والعبادة، وكان يصلي خلف الإمام زين العابدين، فلما رآه الحجاج قال له: أنت شقي ابن كسي، فقال: أمي أعرف باسمي منك. ثم بعد أخذ ورد أمر الحجاج بقتله، فقال سعيد: { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا- مسلماً - وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} . فقال الحجاج: شدوه إلى غير القبلة، فقال: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} ، فقال: كبوه على وجهه، قال: { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} . ثم ضربت عنقه.

هذا غيض من فيض وقليل من كثير مما جناه الأمويون في حق الشيعة طوال فترة حكمهم وتوليهم لدفة الأمور وزمام الحكم ، وتالله إن المرء ليصاب بالغثيان وهو يتأمل هذه الصفحات السوداء التي لا تمحى من ذاكرة التاريخ وكيف لطخت بالدماء الطاهرة المقدسة والتي أريقت ظلما وعدوانا وتجنيا على الحق وأهله .

الفصل الحادي عشر
علاقة الأباظية بالدولة الأموية

إن نظام الحكم في الإسلام هو الذي جاءت قواعده الأساسية في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم وطبقه الخلفاء الراشدون بطريقة عملية. وبما أن الخلافة هي أهم مرافق الدولة، وأعظم مظهر للأمة، وأقوى سلطة تشرف على تنفيذ أوامر الله، وتطبيق الكتاب العزيز، فقد جاء الإسلام بنظام الإمامة في رئاسة الدولة الإسلامية، ليقود المسلمين في كل زمان ومكان أفضل أبنائها وأكثرهم كفاءة، وأتمهم في الورع والنزاهة والإخلاص.

فالخلافة بهذا الوصف لا يمكن أن تخضع لنظام وراثي، ولا أن ترتبط بجنس أو قبيلة أو أسرة أو لون، وإنما يجب أن يشترط فيها الكفاية الدينية والخلقية والعملية والعقلية، فإذا تساوت هذه الكفايات في عدد من الأشخاص أمكن أن تجعل الهاشمية أو القرشية أو العروبة من أسباب المفاضلة، أو وسائل الترجيح.

وتنعقد الإمامة في الدولة الإسلامية بطريق واحد لا ثاني له، ألا وهو اختيار أهل الحل والعقد للإمام أو الخليفة، وقبول الإمام أو الخليفة لهذا المنصب. وبهذه الطريقة بويع الخلفاء الراشدون جميعا. لكن الأمويين والعباسيين ومن جاء بعدهم لم يلتزموا بهذا الأصل فتحولت الخلافة الإسلامية منذ أن عهد معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد بالخلافة إلى ملك عضوض وبذلك تحقق قول الرسول صلي الله عليه وسلم في الحديثين الذين رواهما الإمام أحمد في مسنده.

الحديث الأول رواه أبو إمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَتُنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولها انقضاء الحكم وآخرهن الصلاة)، والحديث الثاني رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم يكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه إذا شاء الله أن يرفعه ثم يكون ملكاً جبرياً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

ومن خلال تتبع ما حدث بعد معركة صفين ومقتل الإمام علي كرم الله وجهه وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة إلى معاوية وما حدث بعدها من أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، نجد أن عروة الإسلام الأولى -وهي الحكم - قد انتقضت، ومنذ ذلك الحين انتقل الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض توارثه بنو أمية ثم بنو العباس ومن جاء بعدهم كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وبقدر ما يؤكد الحديث الثاني أنه ستكون في آخر الزمان خلافة على منهاج النبوة وهي بشارة لهذه الأمة التي تعاني في هذا العصر من الملك الجبري أو الملك العاض في أماكن عدة من بلاد الإسلام، فإنه يبين بوضوح أنه سيحدث انحراف عن منهاج النبوة مباشرة بعد الخلافة الراشدة. وأول

انحراف حدث - كما هو معروف - هو الانحراف في اختيار الخليفة أو الحاكم وهو ما عناه النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الأول الذي ينص على أن أول ما يُنتقض من عرى الإسلام هو الحكم. وقد بدأ الانحراف في الحكم منذ تحكيم الحكمين بعد معركة صفين، التي راح ضحيتها آلاف من الصحابة والتابعين، وبعدها توارث بنو أمية الخلافة الإسلامية. وقد صاحب هذا الانحراف في اختيار الخليفة، عدم الالتزام بالعدل في الحكم وعدم الحرص على أموال الأمة.

ففي عهد الخلافة الراشدة كان المسلمون يختارون للخلافة أكفأهم لها، وأقدرهم على سياسة الأمة، لكن الأمر تغير بعد ذلك فقد أجمع المؤرخون والفقهاء وعلماء الأمة على أن أمراء وحكام الأمويين أو العباسيين قد تولوا الحكم عن غير مشورة من المسلمين، وفرضوا أنفسهم على الأمة، عدا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كما أن أكثرهم قد عاث فسادا في بيت مال المسلمين، فبدلا من إنفاقه في مصالح المسلمين ووضعه حيث أمر الله، أنفقوه على شهواتهم وأهوائهم، وعلى الشعراء - الذين كالوا لهم المديح- وعلى أنصارهم من القواد الذين ساعدوهم على تثبيت حكمهم.

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه القيم "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" في الفصل الثاني من الكتاب تحت عنوان "الانحطاط في الحياة الإسلامية" بعد أن تحدث عن المجتمع الإسلامي الأول وعصر الخلفاء الراشدين (ولكن من المؤسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يعدوا له عدة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية عميقة

متينة كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية وهذا الحكم عام يتمثل في خلفاء بني أمية وبني العباس، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فظهر في ذلك ثلمات في ردم الإسلام لم تسد حتى الآن، ووقعت تحريفات في الحياة الإسلامية ووقع فصل بين الدين والسياسة عملياً، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء أهل الدين فاستبدوا بالحكم و السياسة، واستعانوا - إذا أرادوا واقتضت المصالح - بالفقهاء ورجال الدين، فتحررت السياسة من رقابه الدين، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ويسمع ولا يملك من الأمر شيئا، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينيّه أو شخصيّه، ولكل ما نوى، وحينئذ انفصل الدين والسياسة، وأصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي، وأصبحت السياسة مطلقة اليد، حرة التصرف، نافذة الكلمة، صاحبة الأمر والنهي، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقه متميزة، ورجال الدنيا طبقه متميزة، والشقة بينهما شاسعة، وفي بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس. ولم يكن كثير من رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والأخلاق، بل كان في عدد منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة، وأصبحوا أُسوة للناس في أخلاقهم وعوائدهم، وزالت رقابة الدين والأخلاق

وارتفعت الحسبة وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنها لا تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها وأخلد عدد كبير من الناس إلى الترف والنعيم والملاهي والملاعب وانغمسوا في الملذات والشهوات، ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو، وتهافت على الملاهي والملذات.

ويقول خالد البيطار في كتابه "**الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز**" (عندما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز كانت الأوضاع قد وصلت إلى حال لا ترضي أحداً وقد ساءت الأحوال قبيل استلام يزيد بن معاوية واتسعت الهوة بين الخلفاء والعلماء وصار الناس في واد وحكامهم في واد آخر.

وقد ازدادت الأحوال سوءا باستلام بعض الولاة أمثال الحجاج لِما جنت أيديهم من ظلم وعسف، وقد وقع الخلفاء بما وقع به الولاة من ظلم وجور، ووقعوا كذلك في البطر والترف فصاروا يجمعون الأموال وينفقونها في غير محلها ويعطون الأعطيات بلا حساب ولا رقيب ولا قانون. كان الشاعر يدخل على الخليفة أو الوالي فيمدحه فيكيل له من المال ويخلع عليه من الأعطيات. وقد اعتمدوا على المظاهر في خلافتهم، وكانوا يأخذون الناس بالشبهة فلا احترام لأحد إلا بقدر ما يؤيدهم في مخالفاتهم أو يكف لسانه عنهم وقد عاملوا أهل البيت ومن يمت إليهم بصلة أو من يؤيدهم

أسوأ المعاملة حتى وصل الأمر بهم إلى شتم الإمام علي ولعنه على المنبر وكانوا يتصفون بالقسوة في كل أمورهم بالنسبة لمن يخالفهم، وقد أنفقوا كثيرا من الأموال وأضاعوا الرجال في حروبهم مع الخوارج ومع غيرهم . وقد بذلوا من أجل إبقاء الخلافة في البيت الأموي الكثير من الجهود، واكتسبوا كثيرا من العداوات والمخالفات لأكابر الصحابة والعلماء . كل تلك الأمور جعلت الناس في ضيق بل جعلتهم ينتظرون اليد الحانية المصلحة التي تعيد الحق إلى نصابه وتعيد إليهم أمنهم وراحتهم وتعيد إلى الإسلام وجهه الناصع وإلى المسلمين العدل والحق.

✍ **وهذه بعض الأمثلة لأعمال الأمويين المخالفة لأحكام الإسلام:**

- جعل الأمويون لعن الإمام علي سنة على المنابر في المساجد منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، ودام هذا حوالي ستين سنة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فاستبدله بقول الله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون).
- كان يزيد بن معاوية من شاربي الخمر سماعي الغناء والمستهترين بأوامر الله، وكان ممن اتخذ الصيد حرفة واتخذ الفتيان والغلمان والتفكه بالقرود وغيرها من الأعمال التي لا تليق بالخلفاء في الوقت الذي كانت فيه الفتن على أشدها.
- في عهد يزيد بن معاوية قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما وقُتل معهمن أهل بيته ومن أصحابه سبعون رجلاً في موقعة كربلاء المعروفة

وفي عهده أيضاً في سنة ٦٣ للهجرة خرج أهـل المدينـة عـلى يزيـد لِقِلّـة دينـه فجهز لهم مسلم بن عقبة فخرجوا له بظاهر المدينة فاستبيحت المدينة المنـورة مدة ثلاثة أيام وقُتل من أهل المدينة في واقعة الحـرة المشـهورة مـن الصـحابة والتابعين عدد كبير منهم عبد الله بن حنظلة المشهور بغسيل الملائكة.

- ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء بعضا من أخبار عبـد الملـك بـن مـروان منها قول يحيى الغساني أن عبد الملك بن مروان كان كثيراً ما يجلـس إلى أم الدرداء، فقالت له مرة : (بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربـت الطـلاء بعـد المنسـك والعبـادة. قـال: أي والله والـدماء قـد شربتهـا). وقـال العسكري: (كان عبد الملك أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف). وقـال ابـن عائشة: أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف في حجـره، فأطبقـه وقـال هذا آخر العهد بك.
- قال عبد الملك بـن مـروان في خطبتـه بالمدينـة: (والله لا يـأمرني أحـد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه)، رغم أنه كان عابـداً زاهـداً قبل توليه الخلافة وكان معدوداً في الفقهاء، إلا أنه قد تغـير بعـد ذلـك. قال السيوطي (لو لم يكن من مساوئ عبد الملك إلا توليته للحجاج على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عـنهم يهيـنهم ويـذلهم قـتلاً وضربـاً وشتماً وحبساً لكفى).
- في عهد الوليد بن عبد الملك الذي ورث الخلافـة عـن أبيـه سـار سـيرة والده حتى أن عمر بن عبد العزيز قال: (امتلأت الأرض - والله - ظلماً وجوراً). وذلك حين كان الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن

حجارة بالحجاز وقرة بن شريك في مصر.

- كان يزيد بن عبد الملك أخو الوليد صاحب لذّات وطرب، مولع بالغناء، فقد اشتهر بصحبته لحُبابة وسُلامة المغنيتين حتى قيل أنه مات بسبب جزعه على موت حبابة. وقد ذكر السيوطي أنه أقام أربعين يوما يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ثم عدل عن ذلك.
- عندما كتب السيوطي عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك وصفه بقوله "الخليفة الفاسق" فقال فيه كان فاسقاً، شارباً للخمر، منتهكاً لحرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة فمقته الناس لفسقه، وخرجوا عليه فقُتل. ولما قُتل وقُطع رأسه وجيء به، نظر إليه أخوه سليمان بن يزيد فقال: بعدا له! أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً.
- أما أعمال الحجاج فهي لا تحصى ويكفي أن نذكر أن الحجاج بعث إلى ابن عمر من يضربه بطرف رمح مسموم فمات منها، وختم في عنق أنس ابن مالك ختما يريد بذلك إذلاله.
- أحرق الأمويون البيت الحرام ورموه بالمنجنيق. كل هذا حدث من أجل القضاء على معارضيهم وتثبيت حكمهم. فقد أهرق الأمويون كثيراً من الدماء ظلماً وعدواناً. وقد تمثل ذلك في قتلهم لعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وحجر بن عدي وأصحابه وضربهم لمكة بالمنجنيق وقتلهم لكثير من الأبرياء وخصوصا في عهدي عبيد الله بن زياد والحجاج. ولقد استطاع الأمويون أن يضفوا على دولتهم صفة شرعية بالقوة والعنف أحياناً، وبالدهاء والحيلة أحيانا أخرى.

- تهاون الأمويون في العمل بسنّة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد في حديثه عن القراءة في الصلاة قال: (وأما المداومة فيها على قراءة قصار السور دائماً فهو فعل مروان بن الحكم، ولهذا أنكر عليه زيد بن ثابت، وقال: (مالك تقرأ في المغرب بقصار المفصل، وقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في المغرب بطولى الطولين، قال: وما طولى الطولين؟ قال : الأعراف). قال ابن القيم في زاد المعاد: قال شيخنا (يقصد ابن تيمية) وتقصير هذين الركنين مما تصرف فيه أمراء بني أمية في الصلاة، وأحدثوه فيها كما أحدثوا فيها ترك تمام التكبير، وكما أحدثوا فيها التأخير الشديد، وكما أحدثوا غير ذلك مما يخالف هديه (صلى الله عليه وسلم)، يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء (خرج القراء وهم أهل القرآن والصلاح بالعراق على الحجاج لظلمه وتأخيره الصلاة والجمع في الحضر، وكان هذا مذهبا واهيا لبني أمية كما أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يكون عليكم أمراء يميتون الصلاة).

هذه بعض النماذج من سلوك أمراء الأمويين، وقد يوجد في هذه الأخبار بعض المبالغات من المؤرخين في وصف تصرفات وسلوك بعض الأمراء، لكنها أيضا لا تخلو من حقائق مهمة أجمع عليها المؤرخون وهي أن الخلافة الإسلامية تولاها من ليس أهلا لها، كما أنهم لم يلتزموا بالإسلام في أنفسهم ولا طبقوا العدل في رعيتهم، فكان من نتيجة ذلك أن نقم الناس على سيرتهم وحكمهم خصوصا أن كثيرا منهم كان من بقية الصحابة ومن أبناء

المهاجرين والأنصار الذين ذاقوا حلاوة العدل والشورى في ظل الخلافة الراشدة فلم يرتضوا سيرة ولاة الأمويين المخالفة لمبادئ الإسلام، فمنهم من سكت، ومنهم من أنكر عليهم مخالفتهم للدين واستئثارهم بالرئاسة وهي شورى بين المسلمين، ومنهم من رفع السيف وأخذ يقاتلهم. ولكن الدولة الأموية كانت في شبابها وقد استقر لها الأمر فركزت كل جهدها إلى ضرب خصومها. ومن يدرس تاريخ الدولة الأموية يجد أن فترة حكمها كانت أغلبها فترة حروب مع معارضيها حتى انتهت على أيدي العباسيين. قال الثعالبي: (روت الرواة من غير وجه عن عبد الملك بن عمير الليثي قال: رأيت هنا في هذا القصر - وأشار إلى قصر الإمارة بالكوفة - رأس الحسين بن علي بين يدي عبيد الله بن زياد على ترس، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بين أبي عبيد، ثم رأيت رأس المختار بن يدي مصعب بن الزبير، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك، فحدثت بهذا الحديث عبد الملك، فتطير منه وفارق مكانه).

ومن أجل هذه الأعمال وغيرها كثير مما هو مفصل في كتب التاريخ ونتيجة للانحراف بالحكم الإسلامي عن حقيقته فقد عمت النقمة على الأمويين العالم الإسلامي كله ما عدا فئة من المستفيدين بالوضع والمعتزين بالجاه والمنصب.

ولقد اتفق الصحابة والتابعون والعلماء والفقهاء وعامة المسلمين الصادقين على أن الحكم بعد الخلافة الراشدة قد انحرف عن مجراه الطبيعي في النظام الإسلامي باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، ولكنهم رغم

اتفاقهم أن الحكم قد انحرف، فقد اختلفوا في معالجة هـذا الانحـراف حسب قربهم وبعدهم عن الحكم وفهمهم للإسلام، وحسب تصـوراتهم لمـا حدث وكيف حدث. **وباستقراء الحوادث التاريخية يمكننا أن نقسـم آراءهـم إلى ثلاثة أقسام:**

- قسم غير راض فهو ينتقد وينقم، ولكنه في نفس الوقـت يقـف مـن الحكم الأموي موقفا مسالماً، لا يجهر بالنقمـة، ولا يـدعو إلى الثـورة خوفاً من فتنة تضر بالأمة، أكثـر ممـا تصـلح، وتشـتت أكثـر ممـا تجمع، ولذا فهم يرون وجوب الخضوع للأمـر القـائم حتـى تتبـدل الأمور. ويمثـل هـذا الجانـب علـماء الحـديث الـذي اسـتطاعوا أن يتكيفوا مع الوضع القائم وأن يهتموا بجمع الحديث وحفظه.
- وقسم آخر رفع السيف وأخذ يقاتل الأمويين، وقـد تطـرف بعـض منهم حتى أنهم استحلوا دماء المسـلمين دون حـق، وهـؤلاء الـذين أطلق عليهم فيما بعد اسم الخوارج. ومنهم الأزارقة والنجدات.
- وقسـم ثالـث كـان ينتقـد الانحـراف ويطالـب بتنفيـذ أحكـام الله والاستمساك بشريعته دون دعوة تؤدّي إلى فتنة جامحة، فهـم يقفـون موقف الناقد الصريح الذي لا يسكت عن منكر، ولا يرفع سيفاً.

وكانت الإباضية من أوائل الفِرَق التي أنكرت على بنى أمية استئثارهم بالحكم دون غيرهم وتصرفهم في بيت مال المسلمين دون حق، لكنها لم ترفـع السيف في وجه أحد، إلا أن الدعاية السياسية في العهد الأموي استطاعت

أن تضفي لقب الخارجية على كل من عارضها سواء بالسيف أو اللسان، وحتى بالسكوت، ومنذ ذلك الوقت صنفت الإباضية من طائفة الخوارج.

وانتشرت كلمة الخوارج وتلقفها الناس فنشروها في كتبهم وفي أحاديثهم، وفي المجالس الخاصة والعامة، كما وضعت كثير من الأحاديث في ذم الخوارج. ووجد الكذابون والمشنعون والمستغلون ميداناً فسيحاً للافتراء والزيادة فنشروا أباطيل كثيرة عن الخوارج تناقلها الناس كأنها وقائع وأخذها كتاب المقالات كمادة علمية حشوا بها كتبهم دون تحقيق أو تمحيص أو نقد، فأصبحت كأنها حقائق لا يتوجه إليها نقد ولا يرتفع بصددها نقاش.

الفصل الثاني عشر
معارك الدولة الأموية

- **إفريقية**:

بعد أن فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر عام ٢٠هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقدم نحو الغرب حتى وصل إلى طرابلس إلا أن الخليفة لم يأذن له بالتقدم نحو إفريقية، وكان قد وجه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ففتح مصراتة، وسيَّر عقبة بن نافع ففتح زويلة، وعينه أميرًا على حامية مرابطة في برقة، وأرسل بسر بن أرطأة ففتح ودان، وعين عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرًا على الصعيد.

وعندما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة أَذِنَ بفتح إفريقية؛ فأمر بإرسال قوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح نحوها وأمده بجيش من المدينة فيه الحسن والحسين ابنا علي وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص، فالتقوا بأمير برقة عقبة بن نافع، ودخلوا طرابلس وانتصروا على الروم قرب موقع القيروان، وفتحوا قفصة

ثم نقضت إفريقية العهد فعاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها، وجدد فتحها، وبقي عقبة بن نافع أميرًا على برقة، وكثيرًا ما كان يحدث نقض العهد من قِبَلِ البربر فيقوم المسلمون بإعادة تسيير الجيوش ويجددون الفتح..

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عاد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وكان قد دخلها منذ عام ٣٨هـ، وتولى أمر المغرب معاوية بن حديج ففتح بنزرت عام ٤١هـ، كما دخل قمونية موضع القيروان عام ٤٥ه، وأرسل عبدالله بن الزبير ففتح سوسة في العام نفسه، ورجع معاوية بن حديج إلى مصر فتولى أمر المغرب رويفع بن ثابت الأنصاري، وبقى عقبة بن نافع على برقة ففتح سرت ومغداس، وأعاد فتح ودّان ودخل فزان ووصل إلى جنوبها إلى كاوار، ودخل غدامس وقفصة وابتنى القيروان، كما فتح كورا من بلاد السودان.

وفي عام ٥٠هـ تولى أمر مصر مسلمة بن مخلد فعزل عقبة بن نافع عن أمر المغرب، وولى أبا المهاجر دينار فوصل إلى المغرب الأوسط.

بعد أن وصل عقبة بن نافع، إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقام بفتوحاته هناك عاد إلى قاعدته القيروان، وفي طريق عودته فاجأه الروم وهو في عدد من جنده لا يزيد على ثلاثمائة فارس، وكلموا كسيلة الذي كان في عسكر عقبة؛ فأظهر غدره وجمع أقرباءه وهاجموا عقبة؛ فاستشهد ومعه أبو المهاجر دينار وذلك عام ٦٣هـ وكان نائبه على القيروان زهير بن قيس البلوي فقصده كسيلة، واضطر زهير إلى العودة إلى برقة وانتزع كسيلة القيروان من أيدي المسلمين، وقد كثر الروم في إفريقية إذ توقفت هجمات المسلمين كما أن البربر قد قويت شوكتهم، وعزَّ أمرهم بمجيء الروم إليهم، وكتب زهير إلى عبد الملك يخبره بذلك فأرسل إليه قوة كبيرة من بلاد الشام سار بهم إلى إفريقية واقترب من القيروان عام ٦٩هـ ونازل كسيلة في (ممس)

إلى الغرب من القيروان فانتصر عليه وقتله، ولاحق المسلمون البربر والروم حتى المغرب الأقصى، وكانت معركة ممس معركة حاسمة ذل بعدها الروم تمامًا وضعفت مقاومة البربر، وجاءت مراكب كثيرة من الروم من القسطنطينية وجزيرة صقلية فأغارت على برقة؛ فسلبت ونهبت كثيرًا، وصادف ذلك قدوم زهير فطلب من جنده الحركة السريعة نحو الساحل لاستنقاذ سبي المسلمين، فلما رأوه استغاثوا به وهم يُسحبون نحو المراكب فأسرع لنجدتهم وكانت الروم بأعداد كبيرة فجرت معركة استشهد فيها زهير عام ٧١هـ.

وأرسل عبد الملك عام ٧٣هـ حسان بن النعمان الغساني واليًا على إفريقية فسار من مصر بأربعين ألفًا ويقال إنه أول من دخل إفريقية من جند الشام فنزل طرابلس عام ٧٤هـ وسار بعدها إلى القيروان ولم يجد أثناء سيره سوى مقاومة خفيفة ثم سار إلى قرطاجنة وأمر بهدمها فهدمت حتى يحرم الروم من الإفادة من مرافئها، ثم أقام إلى الجنوب منها مدينة تونس، ولاحق الروم إلى الساحل فهزمهم في بنزرت وصطفورة، ثم عاد إلى القيروان فمكث فيها مدة، ثم انطلق نحو الكاهنة في جبال أوراس وكان البربر يطيعونها، وأمرها عظيم يخشاه الروم، والتقى الطرفان وهُزِمَ المسلمون بعد بلاء عظيم، وأخبر حسان الخليفة عبد الملك بذلك فأمره بالانتظار حتى تصل إليه الأوامر، أما من ناحية الروم فقد سُرُّوا بهزيمة المسلمين وحرصوا على استرجاع إفريقية، ووصل أسطولهم عام ٧٨هـ إلى قرطاجنة بإمرة البطريق يوحنا فتمكن من دخولها، وقسا الروم على المسلمين قسوة شديدة تدل على

حقدهم ومحاولة الانتقام، وتحصنوا في قرطاجنة والمدن المجاورة لها، وأخبر حسان أمير المؤمنين عبد الملك بما قسا به الروم.

بقي حسان مقيمًا في مكان (قصور حسان) بالقرب من سرتة مدة خمس سنوات وهو يستحث عبد الملك لإرسال الجنود إليه إلا أن عبد الملك كان مشغولاً في حوادث المشرق التي شغلته مدة من الزمن وهي حركة الخوارج وحركة ابن الأشعث، ثم أرسل نجدة إلى حسان عام ٨١هـ وأمره بالسير نحو إفريقية فتحرك حسان نحو الكاهنة فهزمها وقتلها عام ٨٢هـ وعمل على الإحسان إلى البربر فحَسُنَ إسلامُهم، ثم عاد إلى القيروان فاستراح به، مدة ثم اتجه شمالاً نحو قرطاجنة، وجرت معركة بحرية هُزِمَ فيها الرومُ، وفُتِحَتْ قرطاجنة وانتقل البطريق يوحنا هاربًا إلى بيزنطة، وطلب حسان النجدة البحرية من عبد الملك فأرسل له أسطولاً بإمرة عبد الملك بن قطن فاستولى على جزر (كركنة)، ثم أرسل حسان خيلاً إلى المغرب فسيطر على فاس، وخلصت له المغرب تمامًا، وحتى لا يعود الروم إلى قرطاجنة أنشأ حسان مرفأ تونس جنوب قرطاجنة.

وقام حسان بتدوين الدواوين وضرب الدنانير والدراهم العربية ثم عُزِلَ عن إفريقية سنة ٨٥هـ.

وبعد أن تولى موسى بن نصير إفريقية عمل على توطيد الوضع فيها، فعمل على نشر الإسلام بين البربر، وقد نجح في مهمته، ودان البربر بالطاعة للإسلام..

ولم تكن ساحة واحدة شأنها في ذلك شأن الجبهة الغربية، فكانت عدة ميادين، لأنها تقع على بلاد عدة أمم، ومعظمها وثنية بعكس الغربية التي يدين غالبية سكانها بالنصرانية فنرى في الشمال شعوب القفقاس المختلفة التي أشهرها اللان، وفي الشمال الشرقي نجد الأتراك في بلاد ما وراء النهر، وكانوا على الوثنية أيضًا، وفي الشرق نجد طخارستان وسجستان وسكانهما من الوثنين، وفي الجنوب الشرقي بلاد السند.

غزا المسلمون بلاد اللان عام ٤١هـ، وفتحوا الرُّخج، وغيرها من بلاد سجستان عام ٤٣هـ، ودخل الحكم بن عمرو الغفاري منطقة القيقان في طخارستان وغنم غنائم كثيرة عام ٤٥هـ، كما فتح المسلمون قوهستان، وفي عام ٥٥هـ، قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون ووصل إلى تلال بخارى.

وغزا المسلمون عام ٤٤هـ بلاد السند بإمرة المهلب بن أبي صفرة، كما غزوا جبال الغور عام ٤٧هـ، وكان المهلب مع الحكم بن عمرو الغفاري.

وكان سكان المناطق الشرقية ينكثون بالعهد مرة بعد أخرى ويعود المسلمون لقتالهم ودخول أراضيهم؛ لذلك نلاحظ أن مناطق تلك الجهات قد فتحت عدة مرات، واستمرت مدة من الزمن على هذه الحال حتى دانت نهائيًا أيام الوليد بن عبد الملك..

استغل الأعداء حروب المسلمين فيما بينهم فقاموا بحركات على كل جبهات القتال، وهدد الروم بلاد الشام، واضطر عبد الملك بن مروان إلى أن يدفع لهم إتاوة سنوية ريثما ينتهي من تدبير أمره، ووصلوا في عام ٧٩هـ إلى أنطاكية، وتمكنوا في إفريقية من قتل عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار عام ٦٣هـ ثم قتل زهير بن قيس البلوي عام ٧١هـ حتى تراجع المسلمون إلى

برقة، وتركوا القيروان قاعدتهم الأولى وراءهم.

ونقض أهل أرمينيا العهد، وكذا الترك على الجبهة الشرقية، وهاجموا المسلمين عدة مرات، فلما اجتمع أمر المسلمين على خليفة واحد، وتوحد أمرهم قاموا برد الضربة، وعاد للجهاد أثره وحدثت فتوحات على الجبهات الإسلامية كلها.

- **أسباب سقوط الدولة الأموية:**

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٦]

حقاً لكل أمة أجل، ولكل أجل كتاب.. والمُلك بيد الله تعالى.. يقلب الليل والنهار، فيعزُّ من يشاء بتوفيقه، ويذل من يشاء بخذلانه.. ويرفع من يشاء بقدرته، ويخفض من يشاء بحكمته.

ومن حكمة الله أنه إذا جَارَ الملوك على الرعية، فجار القوي على الضعيف، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه سلط الله على الملوك من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء بسواء.. وهذه سُنَّةُ الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تزول.

فلما قدَّر الله وشاء زوال ملك بني أمية.. هيَّأ لذلك أسبابه، وإذا قدَّر الله أمرًا فلا مردَّ له، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

اختلفت كلمة بني أمية، وسارع الناس واجتمعوا على الخليفة العباسي فكان انقراض ملك بني أمية، وبدأ مُلك بني العباس.. ولكن يبقى التساؤل: ما جوانب التقصير التي طرأت على الأمويين فأدت إلى زوال دولتهم؟

وعندما ننظر إلى حقبة الخلافة الأموية نجد أن جميع خلفائهم من لدن معاوية ـ رضي الله عنه ـ إلى آخرهم.. لم يتجاوزوا أربعة عشرة رجلاً.

وعندما نستعرض سير وأدوار حياتهم نجد عدة أسباب اجتمعت عندهم كانت هي الأسباب الحقيقية لسقوط دولة بني أمية وزوال عزهم ومجدهم.

فسقوط دولة الخلافة الأموية هو أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء، وإنما كل دولة تُذكر بمآثرها وبما تتركه من آثار إيجابية.

✍ **ومما لا شك فيه أن هذه الدولة الأموية تركت مآثر جليلة تُذكر لها منها:**

أنها زادت في مساحة الدولة الإسلامية فامتدت من أواسط أسيا شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وصبغت هذه المساحة الشاسعة من الأراضي بالصبغة العربية عن طريق تشجيع هجرة القبائل من الجزيرة العربية إلى البلاد المفتوحة حيث استقرت واختلطت بالسكان المحليين، فنتج عن هذا الانتشار العربي نشر اللغة العربية في أنحاء البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن، وكان من عوامل انتشار العربية تعريب الدواوين وضرب النقود العربية الإسلامية.

كما اهتمت بتدوين الحديث النبوي الشريف الذي بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز الأمر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية بين المسلمين على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم.

هذا وقد سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أمية ومحصِّليها عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: "ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شُغِلْنا بلذاتنا عن تفقُّدِ ما كان تفقدُه يلزمنا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافن، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلَّوا عنا، وخرُبت ضياعُنا فخَلَتْ بيوتُ أموالن، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورًا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أَوْكَد أسباب زوال ملكنا."

الواضح أن التماسك كان لا يزال باديًا على دولة الخلافة الأموية حتى عهد هشام بن عبد الملك، فقد أضاع الأمويون بعد وفاته في عام ١٢٥هـ ٧٤٣م كل شيء بعدما فقدوا تماسكهم، وكان عهد الوليد الثاني وما اكتنفه من عبث.. إلى جانب الحروب الأهلية التي حدثت بعد مقتله... كل ذلك ساعد في تحطيم ما كان من هيبة للأمويين في قلوب الناس.

وعلى الرغم من أن مروان الثاني كان مقاتلاً شجاعً، وقائدًا ممتازًا.. إلا أن فرص الإصلاح كانت قد تبدَّدت، ولم يستطع لمّ شعث الأمويين.. فتفرقوا وذهبت ريحهم.

ويبدو أن لهذا الانحلال الذي سرى في جسم الدولة أسبابًا خاصة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلها، وإلى الآثار الدينية والمعنوية التي أثارتها السياسة الأموية بالإضافة إلى أسباب عامة تكمن في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي برزت نتيجة التوسع في الفتوحات والاحتكاكات مع الشعوب المجاورة عسكريًا وحضاريًا.

والواقع أن سقوط دولة الخلافة الأموية لا يمكن أن يُعزَى إلى حادث منفرد؛ فلا بد أن تكون هناك جملة أسباب أدت إلى هذه النهاية المحتومة كان من بينها:

- تولية العهد لاثنين في وقت واحد:

من الأسباب التي أضعفت البيت الأموي وآذَنَتْ بذهاب ريحه تولية العهد لاثنين يلي أحدهما الآخر. ويبدو أن ما دفع بعض الخلفاء أن يسلكوا هذا المسلك لم يكن إلا تفاديًا لنشوب الحروب الأهلية بعد وفاة الخليفة!. وقد بذر هذا النهج بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء، ولا غرو. فما كان يتم الأمر لأول الأميرين حتى يعمل على إقصاء الثاني من ولاية العهد بل تعداهم إلى القواد والعمال.. فإنه لم يكد يتم الأمر لثانيهما حتى ينكل بمن ظاهر خصمه، وساعده على إقصائه من ولاية العهد.

وأول من سَنَّ هذه السنة مروان بن الحكم فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولم يأبه بما كان في مؤتمر الجابية حيث بايعوا عبد الملك ثم خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص وكان من أثر ذلك أن خرج عمر بن سعيد على عبد الملك.

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبد العزيز من ولاة العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان، إلا أن وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه، ولم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التي أورثت البغض والعداوة بين الأخوين، بل تعدتها إلى القواد والعمال، فإن الوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولايته للعهد وجعلها في ابنه عبد العزيز، وكتب بذلك إلى العمال فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، وقتيبة بن مسلم والي خراسان، ومحمد بن القاسم والي السند، وأجزل الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز مما أثار روح الكراهية والبغضاء بينه وبين أخيه، فلما ولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد انتقم ممن كان لهم يد في خلعه..

وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطورًا غريبًا وأضحت خطرًا على الدولة الأموية، فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بممالأة الخليفة السابق على خلعه.

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد. على أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته، فقد أمر يزيد بن المهلب

وكان عدو الحجاج الألد، وصالح بن عبد الرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب، كذلك انتقم سليمان من محمد بن القاسم ذلك القائد العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند، وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم الذي بسط نفوذ الدولة في بلاد ما وراء النهر..

- **ظهور روح العصبية:**

ظهرت روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الأموي الذي ظل حافظًا لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي اعترى ذلك الحزب فقد كان عمر صالحًا عادلاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاه جميع العناصر الثورية فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يوِّل واليًا إلا لكفايته وعدالته، فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها.

فلما توفى عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعًا بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن، ولما كان الخليفة من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة..

وكانت هذه الفتنة سببًا في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة، فقد قُتِلَ بعضُهم في الحرب، وحمل بعضهم في الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك فأمر بهم فقتلوا جميعًا.

وقد أخلصت أسرة المهلب في خدمة بني أمية، فأبلى هو وأبناؤه في حرب الأزارقة من الخوارج بلاءً حسنًا، كما حارب أهل خراسان والخزر والترك، وخلفه أبناؤه فكانوا مثله في الشجاعة والنُّبل والفضل، فمدحهم الشعراء وتغنَّى بفضلهم الركبان، وقصدهم الشعراء وذوو الحاجات، فأجزلوا لهم العطاء، ووصلوهم بالصلات الجمَّة، فعظم أمرهم وبعد صيتهم ونبه شأنهم، فكانوا غُرَّة في جبين الدولة الأموية، كما كان البرامكة في دولة بني العباس؛ لذلك لا ندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمني الذي أصبح منذ ذلك الحين خطرًا يهدد كيان حزب بني أمية، وقد زَجَّ يزيد بنفسه في تلك العصبية التي عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط، وأخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلاف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم مصدر قوتهم، فنراهم ينضمون إلى القيسية حينًا وإلى اليمنية حينًا آخر..

كان طبيعيًا بعد هذه الحاثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين، فولَّى أخاه مسلمة -الذي قضى على ثورة يزيد بن المهلب- على المشرق، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسي- واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفًا لا يملك من الأمر شيئًا..

ولما توفي يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام، رأى أن القيسية قد علت كلمته، فخاف ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين: اليمني والقيسي، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنين؛ فولى خالد بن عبد الله القسري على العراق، وولى أخاه أسدًا على خراسان؛ وبذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته وأخذ العنصر القيسي في الضعف، وتعصب خالد وأخوه لليمنية فأخذوا ينتقمون من المضريين.

على أن هشامًا لم يتبع سياسة ثابتة بإزاء القبائل المختلفة، فإنه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم إلى المضريين وولى منهم العمال، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن يسار خراسان، وكذلك فعل في بلاد الأندلس.

- بلاط الشهداء أو معركة بواتيه:

وقعت في ١٠ أكتوبر عام ٧٣٢ م بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة شارل مارتل)، هُزم المسلمون في هذه المعركة وقُتل قائدهم، وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.

التسمية:

البلاط في اللغة العربية تعني القصر أو الرخام، ويُرى أنها سميت ببلاط الشهداء في التاريخ الإسلامي لأنها وقعت بالقرب من قصر مهجور، ويُرى أنه بسبب الطريق المعبد من زمان الرومان الذي قاتل الجانبان عليه،

وأضيفت كلمة الشـهداء لكثـرة مـا وقـع في تلـك المعركـة مـن قـتلى للمسلمين.أما الأوروبيون فينسبون المعركة لمدينة تورز التي وقعـت المعركـة بالقرب منها فيسمونها معركة تور، وتسمى كذلك معركـة بواتييـه لوقوعهـا أيضاً بالقرب من بلدة بواتييه في فرنسا، ويقول الدكتور شـوقي خليـل بـأن بلاط هنا لا تعني الطريق المبلط ولكن (البلاط) في الأندلس تعنـي (القصرـ) أو(حصن حوله حدائق تابعه له).

ما قبل المعركة:

بعد أن فتح العرب إسبانيا ووطدوا حكمهم فيها عبروا جبال البرانس وبدؤوا بغزو الأراضي الإفرنجية (فرنسا في الوقت الحاضر) على يد قائـدهم في ذلك الوقت السمح بن مالك الخـولاني وفتحـت عـلى يـده مـدن منطقـة سبتمانيا: أربونة وبيزارس وآجده ولوديفيه وماغيولون ونييمس.

ورجع السمح إلى الأندلس ليجمع جيشا يحـاصر بـه مدينـة طولوشـة (أو تولوز) ويقال أنه جمع أكثر من مئة ألف شخص من الفرسان والمشاة. قام المسلمون بحصار تولوز طويلا حتى كاد أهلهـا أن يستسـلموا إلا أن الـدوق أودو دوق أقطانيا (أكوينتين) باغته بإرسال جـيش ضـخم ، فقامـت هنالـك معركة عرفت في التاريخ باسم معركة طولوشة أو (معركـة تولـوز)، وقـاوم المسلمون فيها قليلاً بالرغم من قلة عددهم وقتل قائدهم السـمح بـن مالـك فاضطرب الجيش وانسحب المسلمون لقاعدتهم في بلاد الإفرنج مدينة أربونة وكان ذلك في ٩ يونيو ٧٢١ م.

كان السمح هو والي الأمويين في بلاد الأندلس، وبعد وفاته قام الأندلسيون بتعيين عبد الرحمن الغافقي كوال مؤقت حتى ينظر الخليفة في من سيعين عليهم.

عين عنبسة بن سحيم الكلبي كوال للأندلس فقام بإكمال ما بدأ به السمح بن مالك وقد توغل كثيرا في الأراضي الفرنسية حتى بلغ مدينة أوتون في شرق فرنسا ، وفي طريق عودته إلى الأندلس فاجأته قوات إفرنجية فأصيب إصابة بليغة لم يلبث أن مات على إثرها في ديسمبر ٧٢٥ م. ثم جاء أربعة ولاة للأندلس لم يحكم أغلبهم أكثر من ثلاث سنين حتى عين عبد الرحمن الغافقي عام ٧٣٠ م.

قام عبد الرحمن بإخماد الثورات القائمة في الأندلس بين العرب والبربر وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني والثقافي. وفي تلك الأثناء قام الدوق أودو بالتحالف مع حاكم إقليم كاتالونيا المسلم عثمان بن نيساء وعقد صلحا بينه وبين المسلمين وتوقفت التوسعات الإسلامية في بلاد الإفرنج. كان الدوق أودو يعلم أن عدوه الأبرز هو شارل مارتل -وخاصة بعد معركة طولوشة- وأنه إذا صالح المسلمين فإنه سيأمن هجماتهم من جهة وسيشكلون قوة ورادعا في وجه تشارلز مارتل من جهة أخرى إذ لن يفكر تشارلز في مهاجمته خوفاً من المسلمين.

قام عثمان بن نيساء بما لم يكن في الحسبان؛ إذ أعلن استقلال إقليم كاتالونيا عن الدولة الأموية، فما كان من عبد الرحمن الغافقي إلا أن أعلن

الحرب ضده بصفته خائنا، ولم يستثن عبد الرحمن الدوق أودو من هذا الأمر؛ فجهز جيشه وأخضع كاتالونيا لدولته ثم اتجه صوب أراض أودو وحاصر مدينة البردال (بوردو) واحتلها المسلمون وقتلوا من جيش أودو الكثير حتى قال المؤرخ إسيدورس باسينسيز "إن الله وحده يعرف عدد القتلى".

المعركة:

وجد تشارلز مارتيل الوضع في بلاده مناسباً لإخضاع الأقاليم الجنوبية التي طالما استعصت عليه وكان يعلم أن العقبة الوحيدة في طريقه هي جيش المسلمين. كان الجيش الإسلامي قد انتهى بعد زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور بعد أن استولى على المدينتين، وفي ذلك الوقت كان جيش تشارلز مارتل قد انتهى إلى نهر اللوار دون أن ينتبه المسلمون بقدوم طلائعه، وحين أراد الغافقي أن يقتحم نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى قبل أن يكمل استعداده فاجأه مارتل بقواته الجرارة التي تفوق جيش المسلمين في الكثرة، فاضطر عبد الرحمن إلى الرجوع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر تشارلز بقواته نهر اللوار وعسكر بجيشه على أميال قليلة من جيش الغافقي، لقد اختار مارتل بحنكته مكان المعركة وتوقيتها أي أنه أجبر المسلمين على التواجد في المكان الذي يريده لهم.

حصلت بعض المناوشات بين الجيشين وكأن المعركة حرب استنزاف،أي أن من يصمد أكثر من الطرفين ينتصر. ومكث الطرفان على هذه الحال من ٦ إلى ٩ أيام (هناك اختلاف بين المؤرخين على مدة المعركة)

وفي اليوم الأخير للمعركة قامت معركة قوية بين الجيشين ولاح النصر للمسلمين. رأى مارتل شدة حرص جنود المسلمين على الغنائم التي جمعوها فأمر بعض أفراد جيشه بالتوجه إلى مخيم المسلمين والإغارة عليه لسلب الغنائم فارتدت فرقة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة لرد الهجوم المباغت وحماية الغنائم، فاضطربت صفوف المسلمين واستطاع الإفرنج النفاذ إلى قلب الجيش الإسلامي. ثبت عبد الرحمن مع قلة من جيشه وحاولوا رد الهجوم بلا جدوى وقتل عبد الرحمن فازداد اضطراب المسلمين وانتظروا نزول الليل حتى ينسحبوا لقاعدتهم أربونة قرب جبال البرانس.

ومع صباح اليوم التالي قام الإفرنج لمواصلة القتال إلا أنهم فوجئوا بانسحاب المسلمين ولم يجرؤ مارتل على اللحاق بهم وعاد بجيشه لبلاده.

تحليل المعركة

تضافرت عوامل كثيرة في هذه النتيجة، منها أن المسلمين قطعوا آلاف الأميال منذ خروجهم من الأندلس، وأنهكتهم الحروب المتصلة في فرنسا، وأرهقهم السير والحركة، وطوال هذا المسير لم يصلهم مدد يجدد حيوية الجيش ويعينه على مهمته، فالشقة بعيدة بينهم وبين مركز الخلافة في دمشق، فكانوا في سيرهم في نواحي فرنسا أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ، ولم تكن قرطبة عاصمة الأندلس يمكنها معاونة الجيش؛ لأن كثيرًا من المسلمين تفرقوا في نواحيها.

وتبالغ روايات في قصة الغنائم وحرص المسلمين على حمايتها، في الوقت التي تذكر فيه روايات أخرى أن الجيش الإسلامي ترك خيامه منصوبة والغنائم مطروحة في أماكنها.

ما بعد المعركة:

أدت المعركة إلى توقف الزحف الإسلامي في أوروبا الغربية وأعطي تشارلز لقب مارتل (أي المطرقة) بعد المعركة. وقد اختلف المؤرخون، قديمُهم وحديثُهم، مسلمُهم و مسيحيُّهم في أهمية تلك المعركة؛ فالبعض وصفها بأنها حفظت المسيحية من الفناء فيقول المؤرخ إدوارد جيبون في كتابه اضمحلال الإمبراطورية الرومانية:

«خط انتصار المسلمين طوله ألف ميل من جبل طارق حتى نهر اللوار كان غير مستبعد أن يكرر في مناطق أخرى في قلب القارة الأوروبية حتى يصل بالساراسنز يقصد المسلمين إلى حدود بولندا ومرتفعات أسكتلندا، فالراين ليس بأصعب مرورا من النيل والفرات، وإن حصل ما قد ذكرت كنا اليوم سنرى الأساطيل الإسلامية تبحر في التايمز بدون معارك بحرية ولكان القرآن يدرس اليوم في أوكسفورد ولكان علماء الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضة عن الوحي النازل على محمد.»

يختلف العديد من المؤرخين مع وجهة نظر جيبون فيخبرون عن توسعات المسلمين أنها لم تكن تتوقف لهزيمة أو خسارة معركة؛ فللمسلمين العديد من المحاولات للسيطرة على القسطنطينية قبل أن تسقط في عهد

العثمانيين وقد هزم المسلمون أكثر من مرة في الهند وبلاد ما وراء النهرين إلا أن ذلك لم يكن ليمنعهم من مواصلة القتال. ويشير أولئك المؤرخون أن المسلمين لم يكونوا طامحين في مواصلة القتال في القارة الأوروبية لأن تلك الأراضي كانت تعيش في وضع اجتماعي وثقافي وحضاري منحط.

مؤرخو القرن الحالي يرون بأن المعركة سواء إذا أوقفت المد الإسلامي أم لم تفعل لكنها وضعت الأسس الأولى لبناء الإمبراطورية الشارلكانية وهيمنة الفرنجة لقرن من الزمان. وإنشاء قوة الفرنجة بغرب القارة حددت مصير أوروبا والمعركة أثبتت ذلك.

كما أن الأمويين في الأندلس عانوا الأمرّين بسبب وجود جيوب المقاومة المسيحية في شمال البلاد والتي أرهقتهم و أشغلتهم عن مواصلة القتال في القلب الأوروبي، وعانوا كذلك بسبب العباسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة لإزالة دولتهم والحصول على أراضيها الأمر الذي أدى لجعل حروب الدولة الأموية الأندلسية حروب دفاع لا حروب احتلال وتحرير.

في عهد الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك"، وبفضل الله ثم جهود القائدين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير فتح المسلمون الأندلس سنة (٩٢ هـ = ٧١١م ، وأقاموا فيها دولة إسلامية تابعة لدولة الخلافة الأموية، وخلال سنوات قليلة امتدت فتوحات المسلمين حتى وصلت على يد القائد المجاهد السمح بن مالك إلى جنوبي فرنسا والتي كانت تعرف في ذلك الحين ببلاد الغال.

وفي إحدى غزوات السمح بن مالك التقى بقوات الفرنجة في تولوشة ونشبت معركة ضارية ثبت فيها المسلمون على قلة عـددهم وأبـدوا شـجاعة نادرة، و تأرجح النصر بين الفريقين حتى سقط السمح بن مالك شـهيدًا مـن فوق جواده في (٩ من ذي الحجة ١٠٢ هـ = ٩ من يونيو ٧٢١م)، فاضطرب جيش المسلمين واختل نظامه وارتد المسلمون إلى مدينـة "سـبتمانيا" بعـد أن فقدوا عدداً مقدراً من جنودهم.

وخلف السمح بن مالك عـلى قيـادة الجـيش وولايـة الأنـدلس عبـد الرحمن الغافقي لفترة مؤقتة ثم "عنبسة بن سحيم الكلبـي فـأتم فـتح إقلـيم سبتمانيا، وواصل سيره حتى بلغ مدينة "أوتون" في أعالي نهر الـرون، وبسـط سلطانه في شرق جنوبي فرنسـا، ثـم استشـهد، وبعـد استشـهاده اضـطربت الأمور وتتابع على حكم الأندلس ست ولاة فلم تعرف استقراراً حتـى تـولى عبد الرحمن الغافقي أمور الأندلس مرة أخرى في سنة (١١٢ هـــ = ٧٣٠م). فأحكم أمرهـا وأحسـن سياسـتها، فعـم الاسـتقرار ربوعهـا، غـير أن هـذا الاستقرار كانت تنغصه تحركات الإفرنج والقوط فعزم الغافقي على تأديبهم، وجمع جنده في "بنبلونة" شمال الأندلس، وعبر بهم في أوائل سنة (١١٤ هـ = ٧٣٢م) جبال ألبرت ودخل فرنسا (بلاد الغال)، واتجه إلى الجنوب إلى مدينـة "آرال" الواقعة على نهر الرون؛ لامتناعها عـن دفـع الجزيـة وخروجهـا عـن طاعتـه، ففتحهـا بعـد معركـة ضـارية، ثـم توجـه غربـا إلى دوقيـة أقطاينـا "أكويتين"، وحقق نصرا حاسما على ضفاف نهر الدوردوني ومزّق جيشها شر ممزق، واضطر الدوق "أودو" أن يتقهقر بقواته نحو الشمال تاركا عاصمته

"بردال" (بوردو) ليدخلها المسلمون فاتحين، وأصبحت ولاية أكويتين في قبضة المسلمين تماما، ومضى الغافقي نحو نهر اللوار وتوجه إلى مدينة "تور" ثانية مدائن الدوقية، وفيها كنيسة "سان مارتان"، وكانت ذات شهرة فائقة آنذاك؛ فاقتحم المسلمون المدينة واستولوا عليها.

ولم يجد الدوق "أودو" بدا من الاستنجاد بالدولة الميروفنجية، وكانت أمورها في يد شارل مارتل، فلبى النداء وأسرع بنجدته، وأعد جيشاً كبيراً حسن التدريب، تحرك به حتى وصل إلى مروج نهر اللوار الجنوبية حيث فاجأ جيش المسلمين بقواته الجرارة التي تفوق جيش المسلمين عدداً وعدة، فاضطر عبد الرحمن إلى الرجوع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر شارل بقواته نهر اللوار وعسكر بجيشه على أميال قليلة من جيش الغافقي.

وفي مكان يبعد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي شرق بواتييه يسمّى بالبلاط (وتعني الحصن) وتسمّى في المصادر الأوربية معركة "تور- بواتييه" نشب القتال بين الفريقين في (أواخر شعبان ١١٤ هـ - أكتوبر ٧٣٢م)، واستمر تسعة أيام حتى أوائل شهر رمضان، دون أن يحقق أحدهما نصرا حاسما لصالحه.

وفي اليوم العاشر نشبت معركة هائلة، وأبدى كلا الفريقين منتهى الشجاعة والجلد والثبات، حتى بدأ الإعياء على الفرنجة ولاحت تباشير النصر للمسلمين، ولكن حدث أن تسللت فرقة من فرسان العدو حتى

وصلت معسكر الغنائم، فارتدت فرقة كبير من فرسان المسلمين من قلب المعركة لرد الهجوم المباغت وحماية الغنائم، غير أن هذا أدى إلى خلل في النظام، واضطراب في صفوف المسلمين، واتساع في الثغرة التي نفذ منها الفرنجة.

وقتل قائد المسلمين عبد الرحمن الغافقي فازدادت الصفوف اضطرابا وعم الذعر في الجيش وتمكن جيش المسلمين من الانسحاب في جنح الليل إلى سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنيمة للعدو.

ولما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال فلم يجدوا أحدا من المسلمين، ولم يجدوا سوى الجرحى العاجزين عن الحركة؛ فذبحوهم على الفور، واكتفى شارل مارتل بانسحاب المسلمين، ولم يجرؤ على مطاردتهم، وعاد بجيشه إلى الشمال من حيث أتى.

تعليقاً على هذه المعركة قال "إدوارد جيبون" في كتاب "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية" عن هذه المعركة: "إنها أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما، وشدت بأزر النصرانية".

وقال السير "إدوارد كريزي": "إن النصر العظيم الذي ناله شارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢م وضع حدا حاسما لفتوح العرب في غرب أوروبا، وأنقذ النصرانية من الإسلام".

بينما يرى فريق آخر من المؤرخين المعتـدلين في هـذا الانتصـار نكبـة كبيرة حلت بأوروبا، وحرمتها مـن المدنيـة والحضـارة، فيقـول "جوسـتاف لوبون" في كتابه المعروف "حضارة العرب"، **الذي ترجمه "عـادل زعيـتر" إلى العربية في:**

"لو أن العرب استولوا على فرنسا، إذن لصارت باريس مثل قرطبـة في إسبانيا، مركزا للحضارة والعلم؛ حيث كان رجل الشارع فيها يكتـب ويقـرأ بل ويقرض الشعر أحيانا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبـا لا يعرفـون كتابة أسمائهم".

الفصل الثالث عشر
سقوط دولة الخلافة الأموية

الحروب الأهلية في الدولة الأموية في عهد عبدالملك بن مروان:

اختلفت كلمة بني أمية، وسارع الناس واجتمعوا على الخليفة العباسي فكان انقراض ملك بني أمية، وبدأ مُلك بني العباس. ولكن يبقى التساؤل: ما جوانب التقصير التي طرأت على الأمويين فأدت إلى زوال دولتهم؟ وعندما ننظر إلى حقبة الخلافة الأموية نجد أن جميع خلفائهم من لدن معاوية ـ رضي الله عنه ـ إلى آخرهم. لم يتجاوزوا أربعة عشرة رجلاً.. وعندما نستعرض سير وأدوار حياتهم نجد عدة أسباب اجتمعت عندهم كانت هي الأسباب الحقيقية لسقوط دولة بني أمية وزوال عزهم ومجدهم.

فسقوط دولة الخلافة الأموية هو أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء، وإنما كل دولة تُذكر بمآثرها وبما تتركه من آثار إيجابية.

ومما لا شك فيه أن هذه الدولة الأموية تركت مآثر جليلة تُذكر لها منها: أنها زادت في مساحة الدولة الإسلامية فامتدت من أواسط آسيا شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وصبغت هذه المساحة الشاسعة من الأراضي بالصبغة العربية عن طريق تشجيع هجرة القبائل من الجزيرة العربية إلى البلاد المفتوحة حيث استقرت واختلطت بالسكان المحليين، فنتج عن هذا

الانتشار العربي نشر اللغة العربية في أنحاء البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن، وكان من عوامل انتشار العربية تعريب الدواوين وضرب النقود العربية الإسلامية.

كما اهتمت بتدوين الحديث النبوي الشريف الذي بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز الأمر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية بين المسلمين على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم..

هذا وقد سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أمية ومحصِّليها عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: "ما كان سبب زوال ملككم؟

قال: إنا شُغِلْنا بلذاتنا عن تفقُّدِ ما كان تفقدُه يلزمنا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلَّوا عنا، وخرُبت ضياعُنا فخَلَتْ بيوتُ أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورًا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أَوْكَد أسباب زوال ملكنا.."الواضح أن التماسك كان لا يزال باديًا على دولة الخلافة الأموية حتى عهد هشام بن عبد الملك، فقد أضاع الأمويون بعد وفاته في عام ١٢٥هـ / ٧٤٣م كل شيء بعدما فقدوا تماسكهم، وكان عهد الوليد الثاني وما اكتنفه من عبث.. إلى جانب الحروب الأهلية التي حدثت بعد مقتله. كل ذلك ساعد في تحطيم ما كان من هيبة للأمويين في قلوب الناس

وعلى الرغم من أن مروان الثاني كان مقاتلاً شجاعً ، وقائدًا ممتـازًا. إلا أن فرص الإصـلاح كانـت قـد تبـدَّدت ، ولم يسـتطع لمّ شـعث الأمـويين .. فتفرقوا وذهبت ريحهم.

ويبدو أن لهذا الانحلال الذي سرى في جسـم الدولـة أسـبابًا خاصـة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلها، وإلى الآثـار الدينيـة والمعنويـة التـي أثارتها السياسـة الأمويـة بالإضـافة إلى أسـباب عامـة تكمـن في التطـورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي برزت نتيجة التوسـع في الفتوحـات والاحتكاكات مع الشعوب المجاورة عسكريًا وحضاريًا..

والواقع أن سقوط دولة الخلافة الأموية لا يمكن أن يُعزَى إلى حادث منفرد؛ فلا بد أن تكون هناك جملة أسباب أدت إلى هذه النهاية المحتومة كان من بينها.

تولية العهد لاثنين في وقت واحد: !!

من الأسباب التي أضعفت البيت الأموي وآذَنَتْ بذهاب ريحـه توليـة العهد لاثنين يلي أحدهما الآخر ..ويبدو أن ما دفع بعض الخلفـاء أن يسـلكوا هذا المسلك لم يكن إلا تفاديًا لنشوب الحروب الأهلية بعـد وفـاة الخليفـة!.. وقد بذر هذا النهج بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيـت ، وأورثهـم الحقد والبغضاء ، ولا غرو.. فما كان يتم الأمـر لأول الأمـيرين حتـى يعمـل على إقصاء الثاني من ولاية العهد، بل تعداهم إلى القواد والعمال. فإنه لم يكـد يتم الأمر لثانيهما حتى ينكل بمن ظاهر خصمه، وسـاعده عـلى إقصـائه مـن ولاية العهد..

وأول من سَنَّ هذه السنة مروان بن الحكم، فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولم يأبه بما كان في مؤتمر الجابية حيث بايعوا عبد الملك ثم خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص ، وكان من أثر ذلك أن خرج عمر بن سعيد على عبد الملك..

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبد العزيز من ولاة العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان، إلا أن وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه، ولم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التي أورثت البغض والعداوة بين الأخوين، بل تعدتهما إلى القواد والعمال ، فإن الوليد بن عبد الملك لما ولي الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولايته للعهد وجعلها في ابنه عبد العزيز، وكتب بذلك إلى العمال فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، وقتيبة بن مسلم والي خراسان، ومحمد بن القاسم والي السند، وأجزل الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز مما أثار روح الكراهية والبغضاء بينه وبين أخيه، فلما ولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد انتقم ممن كان لهم يد في خلعه..

وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطورًا غريبًا، وأضحت خطرًا على الدولة الأموية ، فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بممالأة الخليفة السابق على خلعه..

هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفي منهم، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد. على أن ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته ، فقد أمر يزيد بن المهلب

وكان عدو الحجاج الألد، وصالح بن عبد الرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب، كذلك انتقم سليمان من محمد بن القاسم ذلك القائد العظيم الذي بسط نفوذ الدولة على الهند والسند، وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم الذي بسط نفوذ الدولة في بلاد ما وراء النهر..

ظهور روح العصبية:

ظهرت روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الأموي الذي ظل حافظًا لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذي اعترى ذلك الحزب، فقد كان عمر صالحًا عادلاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية حتى نال رضاه جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يوِّل واليًا إلا لكفايته وعدالته، سواء أكان من كلب أو من قيس، فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها..

فلما توفى عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعًا بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن، ولما كان الخليفة من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة..وكانت هذه الفتنة سببًا في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة، فقد قُتِلَ بعضُهم في الحرب، وحمل بعضهم في الأغلال إلى يزيد بن عبد الملك فأمر بهم فقتلوا جميعًا..

وقد أخلصت أسرة المهلب في خدمة بني أمية، فأبلى هو وأبناؤه في حرب الأزارقة من الخوارج بلاءً حسنًا، كما حارب أهل خراسان والخزر والترك، وخلفه أبناؤه فكانوا مثله في الشجاعة والنُّبل والفضل، فمدحهم الشعراء، وتغنَّى بفضله الركبان، وقصدهم الشعراء وذوو الحاجات، فأجزلوا لهم العطاء، ووصلوهم بالصلات الجمَّة، فعظم أمرهم، وبعد صيتهم، ونبه شأنهم، فكانوا غُرَّة في جبين الدولة الأموية، كما كان البرامكة في دولة بني العباس؛ لذلك لا ندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمني الذي أصبح منذ ذلك الحين خطرًا يهدد كيان حزب بني أمية، وقد زَجَّ يزيد بنفسه في تلك العصبية التي عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط، وأخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلاف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم، فنراهم ينضمون إلى القيسية حينًا وإلى اليمنية حينًا آخر..

كان طبيعيًا بعد هذه الحاثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين، فولَّى أخاه مسلمة -الذي قضى على ثورة يزيد بن المهلب- على المشرق، ثم ولى عمر بن هبيرة وهو قيسي واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، وأصبح العنصر اليمني ضعيفًا لا يملك من الأمر شيئًا.. ولما توفي يزيد بن عبد الملك وخلفه أخوه هشام، رأى أن القيسية قد علت كلمته، فخاف ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ليعيد التوازن بين العنصرين: اليمني والقيسي، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنين؛ فولى خالد بن عبد الله القسري على العراق، وولى أخاه أسدًا على خراسان؛ وبذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته ، وأخذ العنصر القيسي

في الضعف، وتعصب خالد وأخوه لليمنية فأخذوا ينتقمون من المضريين..

على أن هشامًا لم يتبع سياسة ثابتة بإزاء القبائل المختلفة، فإنه بعد أن انحاز إلى جانب اليمنيين لم يلبث أن تحول عنهم إلى المضريين وولى منهم العمال؛ فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن يسار خراسان، وكذلك فعل في بلاد الأندلس..

وكان مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التي عجَّلت بسقوط حزب بني أمية، فإن اليمنية الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب فُوجِئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله لاتهامه بممالأة العلويين وإغداقه عليهم حتى خرج زيد بن علي زين العابدين، كما اتهم بالزندقة والإلحاد فعادت القلاقل سيرتها الأولى، وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين.

ولزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين لأن أمه كانت منهم، وأقصى العنصر اليمني، فأثار ذلك عوامل السخط والغضب في نفوس اليمنية عليه بعد أن قتل زعيمهم وأقصاهم من مناصب الدولة؛ فأخذوا يدبرون المكائد لقتله وسخط عليه عامة الناس، فانتهز اليمنيون هذه الفرصة وثاروا عليه، وانضم إليهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي كان يُظهِر التنسك والتواضع، فقتلوه في جمادى الآخرة ١٢٦هـ وبايعوا يزيد..

ولم يضع قتل الوليد حدًا للنزاع الذي قام بين أفراد البيت الأموي، وظهر بين العنصرين اليمني والمضري، بل ساعد على تفاقم ذلك النزاع؛ فإن يزيد لم يكد يعتلي عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة أسلافه فانضم إلى اليمنيين ولزم جانبهم، وأخذ يولي العمال منهم لأنهم ساعدوه على الوصول إلى الخلافة..وأطلق اليمنيون يدهم في الإساءة إلى المضريين الذين ثارت ثائرتهم، فأشعلوا نار الثورة في حمص، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من أفراد البيت الأموي، كما ثاروا في فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك ، غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب على هؤلاء جميعًا فأخضعهم، وزج بزعمائهم من أهل بيته في أعماق السجون..

ثم توفي يزيد بعد أن حكم ستة أشهر (١٢٦ هـ) فولي الخلافة بعده أخوه إبراهيم، وكان يزيد قد عهد إليه بالخلافة التي فقدت ما كان لها من هيبة في نفوس المسلمين، ولم يلقَ إبراهيم الاحترام الذي كان لمن سبقه من الخلفاء، حتى كان الناس يسلمون عليه بالخلافة تارة وبالإمارة تارة أخرى، وطورًا لا يسلمون عليه بواحدة منهما.

سار مروان بجنوده من الجزيرة يريد الشام مطالبًا بدم الوليد بن يزيد، وتظاهر بعزمه على إعادة الخلافة إلى ابنه إبراهيم وسرعان ما انضمت إليه القيسية لمناهضة اليمنية التي دبرت مؤامرة لقتل الوليد، فأخذ إبراهيم يحشد الجيوش لقتال مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية، ولكن مروان كان

قائدًا شجاعًا حنكته الحروب مع الخزر والترك فاستطاع أن يتغلب على جنود إبراهيم، وهزمهم شر هزيمة ودخل الشام ، وفرَّ إبـراهيم وكثـير مـن أنصاره..وكان مروان يريد أن تكون الخلافة في وَلَدِ الوليد، ولكـن اليمنيـين عمدوا إلى ابني الوليد فقتلوهما في السجن خوفًا من أن يليـا الخلافـة فيقتصـا منهم، وشهد محمد السفياني بأنهما جعلا الخلافة من بعدهما لمـروان، ثـم قـال السفياني لمروان :ابسط يدك أبايعك، فبايعه وتبعه أهل الشام، وبذلك أصـبح مروان خليفة المسلمين عام ١٢٧ هـ وفي عهده ثارت روح العصـبية في جميـع أنحاء الدولة الأموية ، وتقوَّض بناء البيت الأموي وأَشْرَفَ على الزوال.

أما يزيد بن عبد الملك فإنه لم يكن أحسن حالاً من يزيـد بـن معاويـة ، فقد كان كما ذكر البلخي صاحب كتاب "البدء والتاريخ" صـاحب لهـو فقـد شغف بجارية تسمى حبابة واشتهر بذكرها، كذلك اشتهر ابنه الوليد بـاللهو والمجون وكان شاعرًا مجيدًا له أشعار كثيرة في العتاب والغزل..

تعصب الأمويين للعرب:

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحمًا ودمًا، ومن ثَمَّ تعصب الأمويون للعرب والعروبة، وأخذوا ينظرون إلى الموالي نظـرة الاحتقـار والازدراء، بـما أيقظ الفتنة بين المسلمين، وبعث روح الشعوبية في الدولة الإسـلامية، وكـان منشأ تلك الحركـة اعتقـاد العـرب أنهـم أفضـل الأمـم ، وأن لغـتهم أرقـى اللغات..وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية ألفيناها حربًا سـلمية اشـتبكت فيهـا الألسنة والأقلام اشتباكًا لا يقل أثرًا عن اشتباك الأسـنة والرمـاح، وترجـع هذه الحركة ـ على ما يظهر ـ إلى الوقت الذي دخل فيه العرب بلاد الفرس

وغيرها من بلاد الأعاجم، ولما جاء الأمويون حملوا لواء هـذه الحركـة طوال خلافتهم، وانحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين المـوالي، فـأجمع هؤلاء أمرهم وثاروا على الأمويين في عهد عبـد الملـك بـن مـروان، فأرسـل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ليقضي على حركاتهم.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عمن أسلم سواء كان عربيًا أو غير عربي، ولقد نجحـت سياسـته في حياتـه، ثـم تبـدلت الحال بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي.

فـلا عجـب إذا أثـارت هـذه المعاملـة حنـق المـوالي وسـخطهم عـلى الأمويين، وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم، فانضموا إلى المختار ثـم إلى الخوارج ، واشتركوا في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، كما ثاروا مع يزيـد بـن المهلب للقضاء على هذه الدولة، فلما نشط دعاة العباسين انضموا إلى الـدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة، وقد فطن العباسيون إلى ما كـان يضـمره الموالي لبني أمية ودولتهم من كراهة فاستعانوا بهم في نشر الدعوة لهم..

انـقلاب الخلافة الإسلامية إلى الملك العضوض:

فبعد أن كان الخليفة يُختار من مجمـوع المسـلمين أو مـن أهـل الحـل والعقد بعد توافر عدة كفاءات به، وعلى رأسـها الجانـب الـديني مـن التقـي والصلاح، أصبحت الخلافة ملكًا يرثه الابن من أبيه، والأخ من أخيه، ومـن استطاع الغلبة.

تخلِّي خلفاء بني أمية عن القيادة الدينية: كان من صميم عمل الخليفة الحج بالناس والإمامة في الأعياد والجمع والصلوات إلا إذا طرأت له الأعذار من مرض أو نحوه.

وهذه القيادة الدينية كانت تقرب الخليفة من الرعية، وتشعرهم بقربه منهم، وحرصه على سلامة دينهم، وتقرب طائفة العلماء والزُّهَّاد من الخليفة فتصلح الدنيا والدين معًا.

فكان خلفاء بني أمية في بدء عهدهم يَؤُمُّون الناس، فخلف من بعدهم من أخَّر في إقامة الصلوات، ثم ازداد الأمر سوءًا عندما تخلى الخلفاء عن القيادة الدينية وأنابوا عنهم الولاة والأمراء. ويتمثل المنصب الديني ـ أيضًا ـ في القيام بدور القضاء، والفصل بين الناس في الخصومات، وكان خلفاء بني أمية يباشرونه بأنفسهم في بدء خلافتهم، ولا يجعلونه إلى أحد سواهم، إلا إذا شغلوا بجهاد أو نحوه من الأمور العظام.

فلما طال الزمان ترك الخلفاء القضاء للأمراء، والذين بدورهم أنابوا غيرهم، مما أضعف من شخصية الخليفة في أعين الرأي العام.

بغض الكثيرين من الرعية لبني أمية:

وقع بعض خلفاء بني أمية في بعض الأخطاء القاتلة التي جلبت لهم سخط الكثيرين من الرعية من أمثلة ذلك: موقف يزيد بن معاوية من الحسين ـ رضي الله عنه ـ وما نشأ عنه من قتل الحسين، وموقف عبد الملك بن مروان من آل الزبير، وقتاله لعبد الله ومصعب ابني الزبير حتى قتلا..

فقد ظهرت الشيعة وغيرها واجتمعوا على مناوأة الأمويين، والكيد لهم، وليس خروج المختار وتتبعه لقَتَلَة الحسين ـ رضي الله عنه ـ وقتلهم شر قلة إلا مثلاً من تلك الأمثلة على تغلغل الشعور بالبغض والسخط في قلوب الكثيرين من الرعية.

تأخر رواتب الجند في بعض الأحيان: الجندي ما هو إلا سلاح الحاكم ضد الخارجين على الشريعة، والدرع الواقي للدولة الإسلامية ضد أعدائها فإن أُعطِيَ ما له من عطاء كانت طاعته حاضرة، وإذا العطاء مُنِعَ تذمر وتخاذل، وتواطأ وتآمر.

وهذا ما حدث بالفعل في عهد بعض خلفاء بني أمية، وعلى الخصوص في أواخر عهدهم في خلافة مروان بن محمد حيث قلَّت الأموال، وتوقف الكثير من الأقاليم عن إرسال الأموال إلى دار الخلافة لسقوط تلك الأقاليم تحت راية الخوارج، وقد سُئِلَ شيخ من شيوخ بني أمية بعد زوال دولتهم عن أسباب زوال ملكهم فقال: وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهروه على حربنا."

النزاع بين أبناء البيت الأموي:

كان الملك موضع حديث بين أبناء البيت الأموي منذ زمن طويل، فقد شكت رملة بنت معاوية بن أبي سفيان إلى أبيها ما دار من حديث بين مروان بن الحكم وزوجها عمرو بن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عندما جاء مروان يعوده من مرض ألمَّ به، ومنه أن مروان قال لعمرو: "إنما ولي

معاوية الخلافة بذكر أبيك، فما يمنعك من النهوض لطلب حقك فنحن أكثر من آل حرب عددًا".. وما زال مروان يَعُدُّ فضلَ (كثرة وزيادة) رجال بني أبي العاص-قوم مروان وعمرو-على بني حرب-قوم معاوية- حتى تمنت رملة أن ولديها عثمان وخالدًا من عمرو بن عثمان ماتا.

فكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يستعين بمروان بن الحكم وسعيد بن العاص في الولاية على الحجاز دون غيرها لما يراه من طموحهما وتطلعهما إلى الخلافة، يداول ويغري بينهما في الولاية ليأمن مكرهما، ولم يحتج معاوية ـ رضي الله عنه ـ في مدافعته إياهم عن الملك إلى امتشاق السيف وظل بنو حرب يتقدمون بني أمية في قيادة الأمة حتى خلا منصب الخلافة منهم عام ٦٤هـ، فاختار أهل الحل والعقد من أهل الشام مروان بن الحكم خليفة بإزاء عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما.

فلما قام الوليد بن يزيد بالخلافة لم يستعمل أحدًا من آل الوليد بن عبد الملك وجفاهم، واشتد عليهم وعلى بعض بني عمه، ثم جعل الخلافة من بعده في ولديه الحكم وعثمان، فقام آل الوليد بن عبد الملك بالعمل ضده وكان رأسهم في هذا الوجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومعه منهم ثلاثة عشرة رجلاً، ولما بلغ جمع يزيد عسكر الولاية دعوهم إلى الكتاب والسنة وجعل الأمر شورى، وأخذوا يستميلونهم بالمال والولايات، فضعف أمر الوليد وقتل.

فثار أهل حمص والأردن وفلسطين الذين دعوا إلى الطلب بدمه وثروا على يزيد رغم إظهار يزيد التنسك وتذرعه بالدين في قتل الوليد.. ولكن قيام يزيد بقتل ابن عمه الوليد وجلوسه مجلسه في الخلافة، وضع سلطان بني أمية في قفص الاتهام ورفع عنه أستار المهابة، ودفع بهم إلى السقوط، وبعد أن كانت الخلافة تؤخذ بعهد من الخليفة القائم وبيعة الأمة أخذت هذه المرة بالقوة، وتحركت في مروان بن محمد أمير الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وقائد جيوش ثغورها أحاسيس الملك والسلطان ، وصار يرنو بنظره إلى دمشق.. فسار مروان بن محمد من الثغور إلى دمشق، وأظهر أنه يأخذ بثأر الوليد بن يزيد، ويعيد الخلافة في ولده فآزره أهل حمص ثم استوى على كرسي الخلافة، وأبعد بني عبد الملك الذين مضت الخلافة فيهم قرابة ستين عامًا، وهو ما لم يرضه أكثر الناس الذين كانوا حتى مقتل الوليد بن يزيد يوالون بني أمية..ففي الشام عارض أهل الغوطة وتدمر وحمص وفلسطين وغيرهم مروان بن محمد، واضطر مروان لإخضاع من ثار منهم أن يخوض معهم حروبًا قاسية سالت فيها الدماء وقتل الكثير، وقاد بعض فصولها ضده بعض بني عبد الملك بن مروان مثل: سليمان بن هشام بن عبد الملك، وبعد صراع مرير امتد نحو ثلاث سنين خرج مروان منه منتصرًا على خصومه ومخالفيه وبدت الأمور منقادة له، كشفت معركة الزاب أن صف مروان في هذه المعركة لم يكن موحدًا فقد ظهر التردد والتواكل بين جند مروان ، وبدا السيف وإن صنع الخضوع والانقياد عاجزًا أن يزرع المحبة والولاء في النفوس، والتضحية والوفاء والإخلاص في القتال، فهُزِمَ مروان بن محمد

وفَرَّ إلى مصر؛ فتتبعه العباسيون وقتلوه في قرية بوصير بمصر وانتهت بمقتله الخلافة الأموية عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م وقامت الدولة العباسية.

الخلافات المذهبية:

كان الخلاف حول موضوع الخلافة أحد الأسباب التي أدت إلى إضعاف الدولة الأموية ومن ثَمَّ زوالها، والمعرف أنه وجدت في العصر الأموي أربع جماعات في الميدان السياسي:

- **الأول:** أنصار بني أمية وأغلبيتهم من السنة.
- **الثانية:** أنصار العلويين من الشيعة الذين حصروا الخلافة في نسل علي بن أبي طالب، وقد حملوا لواء المعارضة طيلة العصر الأموي إلا أنهم مُنُوا بالفشل، وقد أدى فشلهم هذا إلى تحويل حركتهم إلى عقيدة دينية عاطفية شبه باطنية، وأن يختفوا في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة حتى تسنح لهم فرصة الظهور.
- **الثالثة:** جماعة الخوارج الذين لا يؤمنون بالوراثة كأساس لنظام الحكم، ولا يرون حصر الخلافة في جنس معين أو بيت معين، بل يعتقدون أن الخلافة للأمة يكون الاختيار فيها هو الأساس، كما أعلنوا غضبهم واشمئزازهم من شرور الحكام ومطامعهم، لهذا كانت هذه الجماعة معارضة للخط الأموي، وقد اشترك أفرادها في الفتن التي قامت ضد الدولة الأموية، كما انتشر عدد كبير منهم في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة بدمشق..

• **الرابعة:** جماعة العباسيين الذين دخلوا ميدان السياسة في أواخر العصر الأموي لينافسوا الأمويين والشيعة معًا، ويبدو أن هؤلاء كانوا أكثر براعة في دعوتهم وأساليبهم من الشيعة؛ فأقاموا تنظيمًا سريًا انتشر بسرعة في النصف الشرقي من دولة الخلافة الأموية عن طريق خلاياه السرية..وقد أدَّى هذا الخلاف إلى اصطدامات دامية، شغلت جانبًا كبيرًا من نشاطات الأمويين وأنهكتهم، وكانت تعبيرًا عن استياء أكثر من فئة في المجتمع الإسلامي من حكمهم، وغدت بعد ذلك عنصراً مهماً من عناصر المعارضة، استُغِلَّ اسمُها ليكون الواجهة الدينية للشعارات التي طرحها دعاة بني العباس.

انتشار الدعوة العباسية:

في الواقع أن انهماك مروان بن محمد في إخماد الثورات والفتن شغله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق ، خاصة في خُرَاسان التي كانت مركزًا للدعوة العباسية، وقد انتشرت في المنطقة انتشارًا واسعًا، واستقامت الأمور فيها لبني العباس، مما أدى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها، وفعلاً حصل هؤلاء الدعاة على موافقة إبراهيم الإمام الذي كان يعيش في الحميمة على الجهر بالدعوة والخروج على الأمويين، وقد تولى أبو مسلم الخراساني الذي أضحى رئيسًا للدعوة في خراسان أخذ البيعة تحت شعار "البيعة على الرضا من آل محمد.."

فالتف الناس حول الدعوة العباسية ، وسيطر أبو مسلم الخراساني على خُراسَان سيطرة تامة، ثم دخلت القوات العباسية مدينة الكوفة بقيادة حميد بن قحطبة في شهر ربيع الأول عام ١٣٢ هـ وسلَّم الأمر إلى أبي سلمة الخلال الذي أضحى وزير آل محمد..

وبويع في الكوفة لعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المعروف بأبي العباس، وقد كان أخوه إبراهيم الإمام قد عَهِدَ إليه بأمر الدعوة عندما قضى عليه مروان بن محمد بعدما افتضح أمره ليصبح أول خليفة عباسي.

وبعد أن تم له الأمر في العراق أرسل جيشًا بقيادة عمه عبد الله بن علي التقى بجيش مروان بن محمد علي نهر الزاب - وهو أحد فروع نهر دجلة - ودارت بين الجيشين الأموي والعباسي رحى معركة عنيفة في شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م استمرت أحدَ عشرَ يومًا، وانتهت بهزيمة مروان وفراره إلى قرية بوصير في منطقة الفيوم بمصر، وهناك داهمته في الليل قوة عسكرية عباسية فقاوم مروان حتى خَرَّ صريعًا ، وانتهت بمقتله أيام دولة الخلافة الأموية، وكان ذلك في عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م وقامت على أنقاضها دولة الخلافة العباسية.

يوم القاع ويوم الفلج الأول باليمامة:

قالوا: لما قتل الوليد كان على اليمامة من قبل يوسف بن عمر الثقفي: علي بن المهاجر بن عبد الله الكلابي فقال له المهير بن سلمى بن هلال أحد بني الدئل بن حنيفة: أخل لنا بلادنا فأبى ذلك فجمع له المهير وسار إليه وهو في

قصـره بقاع حجر فالتقوا بالقـاع بسـوق حجـر، فهزمـه المهـير حتـى أدخله قصـره وخرج من ناحية القصرـ فهـرب إلى المدينـة، وقتـل المهـير بـن سلمى ناساً من أصحابه، وكان يحيى بن أبي حفصة أشار على ابن المهـاجر أن لا يقاتل فعصاه فقال: بـذلت نصـيحتي لبنـي كــلاب فلـم تقبـل مشـوراتي ونصحي فدى لبني حنيفة من سواهم فإنهم فوارس كـل فـتـح **وقال شقيق بن عمرو السدوسي:**

إذا أنـت سـالمت المهـير ورهـطــه　　　أمنت من الأعداء والخوف والذعر

بــه دفـع الله الـنـفــاق وأهـلـــه　　　وأحيا بـه أهـل المجاعـة والفـقــر

فتى راح يوم القاع روحة مـاجــد　　　أراد بها حسن السماع مـع الأجــر

وتأمر المهير على اليمامـة، وكـان عـلى شرطـه عبـد الحكـم بـن حكـام العبيدي فركب المهير والناس معه فشد قوم عـلى عبـد الحكـم فقتلـوه فقـال القحيف العقيلي:

لقــد جمــع المهــير لنــا فقلنـــا　　　ألســنا نحــن عرضــتنا الجمــو

ثم مات المهير واستخلف عبد الله بن النعمان أحد بني قيس بـن ثعلبـة بن الدؤل.قالوا: فاستعمل عبد الله بن النعمان المندلث بن إدريس الحنفي على الفلج -والفلج قرية من قرى بني عامر بن صعصعة، وقال عمارة بن عقيل

بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى: هي لبني نمير- فجمع له بنو كعب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، وأتوا الفلج فقاتلهم المندلث بالفلج فقتل المندلث، قتله رحال بن فروة القشيري، وقتل أكثر أصحابه وظفرت بنو عامر ولم يقتل منهم كبير أحد، وقتل يومئذ يزيد بن المنتشر، وأمه الطثرية من طثرين بن عنز بن وائل، وكان معهم فقال القحيف: إن تقتلوا منا شهيداً صابرا فقد تركنا منكم مجازرا خمس مئين لم يدخلوا المقابرا وقال ثور بن الطثرية يرثيه:

أرى الأثل من نحو العقيق مجاوري مقيماً	وقد غالت يزيداً غوائله
مضى فورثناه دلاصاً مفاضةً	**وأبيض هندياً طوالاً حمائله**
وقد كان يحمى المحجرين بسيفه	**ويبلغ أقصى حجرة الحيّ نائله**

وقال القحيف:

أتانا بالعقيق صريخ كعبٍ فحلّ	**النبع والأسل النهال**

يوم الفلج الثاني: لما أتى عبد الله بن النعمان خليفة المهين قتل المندلث جمع جمعاً بلغ ألفاً من حنيفة وغيرها من ساكني اليمامة فغزا الفلج، فلما تصاف الناس انهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلي **فقال الراجز:**

فــرّ أبــو لطـــيفة الـمـنـافـــق		والجعونـــيان وفـــرّ طـــارق

لمـــا أحاطـــت بهـــم الـبـــوارق		والمـوت حيـث الخـرّق الخوافـق

يقصد طارق بن عبد الله القشيري، والجعونيان من بني قشير، وتجللت بنو جعدة البراذع وقاتلوا حتى قتلوا إلا نفراً منهم، وقطعت يد زياد بن حيان الجعدي فجعل يقول :أنشد كفاً ذهبت وساعدا أنشدها ولا أراني واجـدا ثـم قتل **وقال الأسوار بن عمرو مولى بني هزان:**

سلوا الفلج العـاديّ عنـا وعـنكم		وأُطمــة إذ ســالت مــدامعها دمــا

عشــيّة لــو شــئنا ســبينا نساءكـــم		ولكـــن صـــفحنا عفّـــة وتكرّمـــا

وقال بعض الربعيين:

سمونا لكعبٍ بالصفائح والقنـــا		وبالخيل شعثاً تنتحـي في الشّـكائم

فما غاب قرن الشمس حتى رأيتنـا		نسوق بني كعبٍ كسـوق البهـــائم

بضربٍ يزيل الهـام عـن سكناتـــه		وطعـنٍ كـأفواه المـزاد الشّواجـــم

وفـر أبــوك يـا لـطـــيفة هـاربـــاً		ولم ينج من أسـيافنا وهـو ســالـــم

يوم معدن الصحراء: وأغارت بنو عقيل وقشير، وجعدة بـن كعـب، ونمير بن عامر بعد الفلج الثاني، وقد تجمعوا عليهم بنو سهلة النميري، عـلى من كان من بني حنيفة بمعدن الصحراء، فقتلوا من وجدوا من بني حنيفة،

وسلبوا نساءهم، وكفت بنو نمير عن النساء، غير أن رباح بن جندل بن الراعي سبى امرأة واحدة مخصلةً بخصل الفضة، **فقال القحيف:**

ورثنا أبانا عامراً مشرفيةً صفائح فيها اليوم أنصاف ما بها

ضربنا بها أعناق بكر بن وائل وجاوزنا بها من ورائها جهاراً

يوم النشاش: قالوا: ولما أوقع بالعامريين يوم الفلج الثاني قال عمر بن الوازع الحنفي: لست بدون عبد الله بن النعمان وغيره ممن يغير، وهذه فترة يؤمن فيها السلطان، فمضى يريد أضاخ، فلما كان بأرض الشريف بث خيله فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم، وأقبل ومن معه حتى نزلوا النشاش، وأقبلت بنو عامر حاشدة حتى أغارت فلم يرع عمر بن الوازع إلاّ رغاء الإبل، فجمع ابن الوازع النساء في فسطاط وأقام عليهن حرساً من ثقاته، ولقي القوم فقاتلهم فهزمت حنيفة ومن معها، وهرب ابن الوازع فلحق باليمامة، وتساقط منهم خلق في قلب النشاش من العطش وشدة الحر، فطلب ابن الوازع فلم يقدر عليه، ورجعوا بالأسرى والنساء. **فقال بعض بني نمير:**

إذا عـدّ الفعـال وجـدت قـومي نمـيراً بـذّ فعلهـم الفعـالا
هـم قتلـوا البهـيم بهـا وجونـاً علانيـةً ومـا قـتلا اغتـيالا

بهيم بن عزة.

وقال حديج النميري:

كأنّ أبانا عامـراً لـم يلـد لـنـا أخاً غير نصل السّيف عند الشدائد
فنحن نداوي بالقنا صفحـاتـهـم وبالبيض نخليها مناط القـلائد

وقال دلم بن صامت النميري:

أنـا النّمـيري الـذي يحمـي مضـر يرفع من أبصارهم فوق البصـر
مبـارك الرايـة مـرزوق الظّفـر إنّ اليمانيـينّ فرسـان الـحـمـر
لم يصـبروا للمشـرفيّات البتـر والطعن بـالمرّان أجـواف البهـر
لمـا ضربنـاهم بـصـيّاحٍ ذكـر طاير عنه القين شـذّان الشّـرر

وقال القحيف أيضاً:

وبالنشّاش يومٌ طار فيه لنا ذكرٌ وعدّ لنا فعال

وقال أيضاً :

فداءٌ خالتي لبني عقيلٍ وكعبٌ حين تزدحم الجدود

وهم تركوا على النشاش صرعى بضربٍ ثمّ أهونه شديد

وقال حصين النميري:

يا دار جملٍ بلوى متالع كأنها بعد الجميع الرابع

سحق يمانٍ بعد لونٍ ناصع الله لقّى عمر بن الوازع

دائرة السوء بفجعٍ فاجع لما لقونا خلفه الطلائع

ولّوا شلالا كالنّعام الفازع

وقال بعض بني نمير:

فليت ابن المهير رأى نميراً بنشّاشٍ تواجهنا النّخيل

وفي أيماننا بيضٌ رقاقٌ صوارم ما يقوم لها قبيل

غزا يرجو الغنيمة من نمير فلم يغنم وأعجزه القفول

وقال القحيف العقيلي:

من مبلغٌ عنا قـريشـاً رسـالةً — وأفناء قيسٍ سـارت وحـلّـت
بأنا تركنا من حنـيفة بـعـدمـا — أغارت على أهل الحمى ثم ولّت
تسـكّ نمـيرٌ بالقنـا صفـحـاتـهـم — فكم ثمّ من نذرٍ لها قـد أحـلّـت

في أبيات: وقال سعد بن عياش الغنوي:

نحن صبحنا عمر بن الوازع ملمومةٌ — ذات غبـــــار ساطـــــع
بـــاكره الـــورد بمـــوتٍ نـاقـــع — تحـت ظـلال الخـرّق اللوامـع

وقال القحيف:

تركنا على النشّاش بكـر بـن وائـل — بطون السّباع العاويات قبورهـا
قتلنـاهـم حتـى رفعنـا أكـفّـنـا — بمشهورةٍ بيضٍ حدادٍ ذكورهـا
وشيبان قد كانـت لحـينٍ وشقـوةٍ — كباحثة عـن شـفرةٍ تستثـيرهـا

قالوا: وكفت قيس يوم النشاش عن السلب، فجاءت عكل من الحلـة فسلبتهم، ولم يكن لحنيفة بعد هذا اليـوم جمـع، غـير أن عبيـد الله بـن مسـلم الحنفي جمع جمعاً وأغار على ماء لقشير يقال له حلبان، **فقال الشاعر**:

لقد لاقت قشير يوم لاقت عبيد الله إحدى المنكرات

لقد لاقت على حلبان ليثاً هزبراً لا ينام على الترّات

وأغار على عكل فقتل منهم عشرين رجلاً، **فقال نوح بن جرير بن عطية:**

وضيّعتم يا عكل بالسرّ نسوةً فباتت علوج القريتين تكومها

ثم قدم المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه، حين ولي العراق من قبل مروان الجعدي، فوردها وهي سلم فلم يحارب، وتشاهدت بنو عامر على بني حنيفة فتعصب لهم المثنى بالقيسية، فضرب عدة من بني حنيفة **فقال بعضهم:**

إن تضربونا بالسياط فإننا ضربناكم بالمرهفات الصوارم

وإن تحلقوا منا الرؤوس فإننا قطعنا رؤوساً منكم بالغلاصم

ثم إن المثنى جعل يرفعهم إلى قاضيه طلحة بن إياس العدوي، فلم يقبل شهادة عامري فهدأت البلاد وسكنت، ولم يزل عبيد الله بن مسلم مستخفياً حتى قدم السري بن عبد الله بن الحارث بن عباس بن عبد المطلب والياً على اليمامة، من قبل بني العباس فدل عليه فقتله لما صنع، **فقال نوح بن جرير:**

فلولا السريّ الهاشمي وسيفه أعاد عبيد الله شراً على عكل

ثورة البربر في الشمال الأفريقي على الدولة الأموية:

كان والي إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفي استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في أذلا القيسية ثم إن هشاماً عَّين على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن القيسي- فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبآل موسى بن نصير وفي عام ١١٦هـ أرسل والي مصر عبيد الله بن الحباب فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي فأساء معاملة البربر، الأمر الذي دعاهم إلى الثورة.

تكرر الظلم والتعسف أيام إمارة عبيد الله بن الحبحاب والذي تولى إمارة إفريقية ١١٦هـ واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد في الوقت الذي فشت فيه النزعة الخارجية في إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبري حيث قال: فما زال – بربر إفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك .. فلما دب إليهم دعاة العراق واستشاروهم شقوا عصاهم وفرقوا بينهم إلى اليوم . وكان من سبب

تفريقهم أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا:إنا لا نخالف الأئمة، بما تجبي العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا: له: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم – أي نختبرهم – فخرج مسيرة المظفري زعيم الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام فطلبوا الأذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرش وزير هشام بن عبد الملك فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا. وقال تقدموا وآخرّ جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى اخوانه.. ثم إنهم عمدوا إلى ما شيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا. أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال: نفعل. فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم ... كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية. وهكذا اندلعت بإفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة ١٢٢هـ وهي أول ثورة في إفريقية في الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح همّ الخليفة في المشرق القضاء على هذه الثورات فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب منُذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها عام ١٥٦هـ بلغت ٣٧٥ هـ موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقي من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة

تمكن الخوارج من خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة ١٤٠هـ لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا كل من كان فيها من قريش وعذبوا أهلها .ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين.

هذا ولما بلغت أخبار الخوارج في إفريقية هشام بن عبد الملك ولي عليها كلثوم بن عياض القشيري في جمادي الآخرة سنة١٢٣ هـ وأرسله إليها في جيش قوامه اثنا عشر ألف وخرج معه أهل مصر وأهل برقة، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقي متوغلا سنة ١٢٣هـ فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية – بقرب طنجة – في جموع من البربر كثيرة واستماتوا في قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه، وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء في المشرق واستمرت المعارك الدولة الأموية في عهد هشام وخوارج الشمال الأفريقي وكان من أشهر ولاة الأمويين في تلك المرحلة كلثوم بن عياض وحنظلة بن صفوان الذي تولى ولاية إفريقية والمغرب سنة ١٢٤هـ وشرع في الاستعداد للدفاع عن القيروان واشتبك في قتال مع الخوارج الصفرية الذين كان يستحلون أموال أهل السنة، ويستحييون نساءهم وقتلهم في معركة القرن في عام ١٢٤هـ وقيل قتل فيها ما يزيد عن مائة وسبعين ألفاً وهذا رقم مبالغ فيه. وكانت حرباً في أبشع صور الحروب القاسية، فهبت ريح النصر على إتباع الدولة الأموية وهزم الخوارج وقتل عبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة وجيء براسة وبعكاشة أسيراً . وسمع الليث بن سعد الفقيه المصري بخبر هذه المعركة فقال: ما غزوة كنت أحب

أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن ووصل خبر هـذه المعركة إلى هشام مطلع ١٢٥هـ وكان هشام مريضاً هذا وقـد قامـت ثـورات متعددة للخوارج في عهـد هشـام وقـام الحـارث بـن سريـج بثـورة في بـلاد خراسان ولكنها لم تنجح في الوصول إلى أهدافها، وقـام الصـفد في بـلاد مـا وراء النهر بثورة وقامت بمصر حركات وانتفاضـات صـغيرة محـدودة الأثـر بسبب المعاملة السـيئة لـبعض الـولاة ومـن أراد التوسـع في هـذه الثـورات والحركات فليراجع عصر هشام بن عبد الملك وكـل تلـك الثـورات بسـبب انحراف هشام بن عبد الملك عن منهج عمر بن عبـد العزيـز الـذي لـزم العدل وأمر به عماله فلو سار هشام وغيره على هذا المـنهج لـوفر عـلى الأمـة خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

المراجع

المراجع العربية

١- القرآن الكريم الاحاد والمثاني / ابن ابي عاصم الضحاك / وفاة: ٣٨٧/ ط دار الدراية.

٢- الاخبار الطوال / الدينوري / وفاة:٢٨٢ / ط:دار احياء الكتاب العربي / ١٩٦٠

٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة / ابن الأثير / وفاة:٦٣ / ط:دار الكتاب العربي بيروت الأغاني / الأصبهاني / وفاة: ٣٥٦ / ط:دار الكتب العلمية / بيروت / ١٤١٢

٤- انساب الأشراف / البلاذري / وفاة: ٢٧٩ / ط:مؤسسة الأعلمي / سنة ١٣٩٤

٥- البداية والنهاية / ابن كثير / وفاة:٢٥٦ / ط:دار الفكر للطباعة / ١٤٠١.

٦- تاريخ الطبري / ابو جعفر محمد بن جرير الطبري / وفاة: ٣١٠ / ط: مؤسسة الأعلمي بيروت / ١٤٠٣.

٧- التاريخ الكبير / البخاري / وفاة: ٢٥٦ / ط: المكتبة الإسلامية / ديار بكر / تركيا تاريخ بغداد / الخطيب البغدادي / وفاة:٤٦٣ / ط:دار الكتب العلمية بيروت / ١٤١٧تيسير أعلام النبلاء / الذهبي / وفاة:٧٤٨ / ط: مؤسسة الرسالة بيروت الجامع الصحيح المختصر / البخاري / وفاة:٢٥٦/ ط:الموسوعة الذهبية سنن أبو داوود / ابن الاشعث السجستاني / وفاة: ٢٧٥ / ط:دار الفكر / ١٤١٠.

٨- سنن البيهقي / البيهقي / وفاة: ٤٥٨ / ط:دار الفكر
٩- سنن الترمذي / الترمذي / وفاة:٣٧٩ / ط: دار الفكر بيروت ١٤٠٣
١٠- سنن الدارمي / عبد الله بن بهرام الدارمي / وفاة:٣٥٥ / ط:مطبعة الاعتدال / دمشق ١٣٤٩
١١- السنن الصغرى / النسائي / وفاة: ٣٠٣
١٢- السنن الكبرى / النسائي / وفاة: ٣٠٣ / ط:دار الكتب العلمية / بيروت
١٣- تاريخ خليفة بن خياط ٢٣٢-٢٣٣.
١٤- تاريخ الطبري ج ٥ / ٣٤٠.
١٥- تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣.
١٦- تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣.
١٧- تاريخ الطبري(٥/ ٣٥٣)
١٨- انساب الأشراف ق٤ج١/ ٣٠٠.
١٩- المعرفة والتاريخ / ٥٣٢.
٢٠- تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٤٧.
٢١- تاريخ ابن عساكر ١٤/ ٢١٩.
٢٢- الفتوح لابن أعثم ج٥/ ٢١٤ .
٢٣- بحار الأنوار ٤٥/ ٩١ .
٢٤- كامل الزيارات ـ جعفر بن محمد بن قولويه ص ٤٤٤.
٢٥- سير أعلام النبلاء ٣/ ٣١٥ .
٢٦- الفتوح / احمد بن أعثم ٥/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣،
٢٧- معالم المدرستين (ج٣ ص ١٦٢.)
٢٨- بلاغات النساء ٢٠-٢٣ .

٢٩- محمد بن جرير الطبري – تاريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف القاهرة -١٩٧١.
٣٠- البلاذري أحمد بن يحيى – فتوح البلدان – تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة – بدون تاريخ.
٣١- ابن منظور المصري – مختصر تاريخ دمشق – دار الفكر – سوريا – ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
٣٢- عبد الشافي محمد عبد اللطيف – العالم الإسلامي في العصر الأموي – القاهرة – ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
٣٣- سيدة إسماعيل كاشف – الوليد بن عبد الملك – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة – بدون تاريخ